الإسلام والفنون الجميلة

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ ـ ١٩٩١ م

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني ـ هاتف: ٣٩٣٤٥٧٨ ـ ٣٩٣٤٨١٤
برقيا: شروق ـ تلكس: 93091 SHROK UN
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف: ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٧٦٥ ـ ٨١٧٢١٣
برقيا: داشروق ـ تلكس: SHOROK 20175 LE

د. محمد عمارة

الإسلام والفنون الجميلة

دار الشروق

الغلاف للفنان حلمي التوني

تقديم

على امتداد ساحة الفكر العربي والإسلامي، تصاعد الجدل، منذ سنوات، حول موقف الإسلام من الفنون.. فنون السماع: الغناء والموسيقى.. وفنون التشكيل: الرسم والنحت والتصوير..

تصاعد الجدل، ولا نقول نشأ، فلقد كان قائما هذا الجدل على امتداد القرون التي تمثل عمر حضارة الإسلام.. قائما بين الذين يقولون بإباحة هذه الفنون وحلّها، وبين الذين يكرهونها، وبين الذين يصعدون بهذه الكراهة إلى حد التحريم..

وهذا التصاعد لهذا الجدل حول موقف الإسلام من هذه الفنون قد تمثل في تجاوز «القول» إلى «الممارسة والتطبيق» عند فصيل من فصائل الحركة الإسلامية المعاصرة، يحكم بحرمة هذه الفنون.. فهناك بيوت حرمت فيها الأغاني، وحطمت الصور.. وهناك نفر من غلاة الإسلاميين نزعوا من «بطاقات الهوية» صورهم الشخصية!.. بل لقد قرأنا ـ منذ سنوات ـ عن طالب بجامعة الأزهر أثر مقاطعة الدراسة وهجران التعليم على الاستجابة لإدارة شئون الطلاب التي طلبت منه صورته كي توضع في «السجلات»؟!.. ناهيك عن الكتب التي أُلفت، أو أُعيد طبعها، والمقالات التي نشرت في الجدل الدائر حول هذا الموضوع..

وإذا كنا نتقدم بهذا الكتاب إلى مختلف الفرقاء الذين يختلفون حول موقف الإسلام من الفنون الجميلة ـ فنون السماع وفنون الصور ـ لنحسم ـ ببراهين فكر الإسلام ـ النقلية والعقلية ـ هذا الجدل القائم فى هذا الميدان .. فإننا نود أن ننبه ـ فى هذا التقديم ـ على حقيقة ـ ستبرهن عليها فصول هذا الكتاب ، وتؤكد عليها « ملاحقة » ـ حقيقة : أن الإسلام والفنون الجميلة قد ظلما جميعا فى أغلب هذا الجدل المستعر من حول حكم العلاقة بينهما ؟!..

● فهذه « الحرب » القائمة بين أنصار تحريم الفنون وبين أنصار حلّها وإباحتها ، يحسبها الفريقان قائمة فى ميدان واحد ، بينما هى ـ فى الحقيقة ـ قائمة فى ميدانين مختلفين .. فكأنما أغلب فرقائها يحاربون بضراوة ضد طواحين الهواء ؟!..

فلو اتفق الفرقاء ـ أهل الحِلّ وأهل الحُرمة ـ على أخذ رأى الإسلام ، فى هذه القضية ، من مصادره الجوهرية والنقية : الوحى الإلهى ، كما تمثل فى القرآن الكريم .. والبيان النبوى للبلاغ القرآنى ، كما تمثل فى السنة النبوية الشريفة ، قولا وفعلا وإقرارا ، تلك التى جسدت البلاغ القرآنى تجربة حضارية معيشة فى عصر صدر الإسلام .

ولو أنهم ، جميعا ، قد استرشدوا « بالثوابت » التى جاءت فى « فكر » أهل « الاجتهاد » ، من أئمة فقهاء الإسلام .. ولم يقفوا ، فقط عند كتابات أهل « التقليد » ..

ولو أنهم استحضروا ـ وهم يقرأون « فكر » أئمة الإسلام ـ فى هذه القضية ـ الملابسات الاجتماعية و المذهبية ووقائع التاريخ التى أحاطت بنشأة هذا « الفكر » .. لو حدث ذلك ، لالتقى الفرقاء فى ميدان واحد ، ولانطلقوا من منطلقات متفقة ، ولتحاكموا إلى معايير موحدة.. ولو أن ذلك

قد حدث لما استعرت هذه الحرب ، ولما تصاعد هــذا الجدل ، ولما احتدم هذا الخلاف ، الذى يبدد ويبدد الطاقات فى الصراع حول موقف الإسلام من الفنون !..

ولو اتفق هؤلاء الفرقاء ـ من أهل الحِلّ وأهل الحُرمة ـ على تحديد المعنى الـذى يقصدون عنـدمـا يقولـون : « الفنـون الجميلة ».. الجميلـة فى ذاتها، والجميلة فى وظـائفها وتأثيراتها ومقـاصدهـا.. واتفقوا ، كذلـك ، على نـوع وماهيــة « الإنسان » الـذى يريـده عصرنا مـن أمتنا ، ليستطيـع مواجهـة التحديـات الشرسة المعاصرة ، تلـك التى تقف لنهضـــة الأمة بالمرصـاد.. لو حدث الاتفاق على نوع وماهية هذا الإنســان الذى تحتاجه الأمة ، لتنهض به من وهدتها الحضارية الراهنة ، لاتفق هـؤلاء الفرقاء ـ أو على الأقل تقاربت مواقفهم من « نوع الفن الجميل » اللازم لتكوين هذا الإنسان.. ففنون الدعة والبطالـة والتواكـل و الاسترخاء والسطحيـة والتفاهـة غير فنون الحميـة والعمل والعزم والانتماء والنهوض.. والفنون التى تبنى الأمة المجاهدة لابد مختلفة عن « فنون » الخنا والفساد والفسق والانحلال!..

... ولو حدث الاتفاق ـ بين فرقاء حِلّ الفنون وحُرمتها ـ على هذه الأسس والمنطلقات والمقاصـد والغايات ، لتوحـد ميدان النظر ، وموضـوع البحث ، ولاتفق الفرقاء على كلمة سواء فى هذا الميـدان.. أو تقاربت مواقعهم على أقل تقدير!..

لكن شيئا من ذلك لم يحدث .. فـاستعرت الحرب ضد طواحين الهواء!.. واستهلك الجدل ، من الفريقين ، الكثير من الطاقات والامكانات .. وكان هذا الكتاب، الذى نأمل أن ينتقل بالقضية إلى موقع جديد..

كذلك ، نود أن نحدد ـ فى هذا التقديم ـ ماذا نعنيه بمضامين المصطلحات

التى جعلناها عنوانا لهذا الكتاب.. فذلك تقليد من تقاليد البحث العلمى ، نحــرص على أن نلتــزم بــه فيما نقدم مــن كتــابــات إلى العلماء والبــاحثين والقراء..

فنحن عنــدما نعنون بعضــا من كتبنا بعنــوان : (الإسلام و. . . .)[1] .. فإننا نعني ونريد أن نقول : إن هذا هــو اجتهادنا ورأينا وفهمنا للإسلام . . ولم ولن يتبادر إلى ذهننا أن الرأى الذى نقدمه هو ذات « حكم الله » الفاصل ف الموضــوع . . إنــه اجتهادنا ، الذى لا يصــادر الاجتهادات الأخرى بــاسم الإسلام . . فليــس لبشر حظ من هذا السلطــان . . سلطان السلطة الــدينية ، التى تفرد ويتفرد بها شــارع الدين ، سبحانه وتعالى ، ومُبلــغ الدين ، صلى الله عليه وسلم . . وهــى السلطة التى نقضنا جواز إضفائها على البشر ف أكثر من كتاب !..

إنــه رأى الإســلام ، كما نــراه نحن . . وليــس « حكــم الله » الــذى يجَبّ اجتهادات المجتهــدين . . وإذا كــان رسول الله ــ صــلى الله عليــه وسلم ــ قد وصــى صــاحبــه ، ذلك الذى ذهب على رأس الجيش محــاربــا ، فقال له : « إذا حاصرت أهــل حصن ، فأرادوك أن تنــزلهم على حكم الله ، فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنــك لا تدرى أتصــيب حكم الله فيهم أم لا !.. »[2].

---

(١) لنا بهذا العنــوان عدة كتب ، منها : (الإســلام وحقوق الإنســان) و (الإسلام والمستقبــل) و(الإسلام والمرأة) و (الإسلام والسلطة الدينية) و (الإسلام والحرب الدينية) و(الإسلام والوحدة الوطنية) و (الإسلام والعروبة) و (الإسلام وقضايا العصر) و(الإسلام وفلسفة الحكم) .. إلخ ..

(٢) رواه مسلــم وأبــو داود والــدارمــى والترمــذى والنســائى وابــن مــاجــة والإمــام أحمد .

إذا كان هذا هـو شـأن اجتهادات الصحابة ، بالنسبة إلى « حكم الله » . . فأحـرى أن تكون هـذه السنة مـرعية ، وأن يكـون على وعى بها الكـاتبون والقارئون على السواء!.

كذلك ، فإننا لا نتحدث فى هذا الكتاب ، عن رأى الإسلام فى مطلق الفن .. فرغم أن الفن إنما يعنى مطلق الموهبـة والمهارة . . إلا أننا نقصد إلى الحديث عن رأى الإسلام فى « الفن الجميل » على وجه الخصوص .

وإذا كان الفن هـو : « التطبيق العملى للنظرات العلمية ، بالـوسـائل التى تحققهـا . . وجملـة الوسـائل التى يستعملهـا الإنسان لإثارة المشــاعـر والعواطف ، وبخاصة عاطفة الجمال ـ كالتصوير ، والموسيقى ، والشعر ـ . وهو تعبير خـارجى عما يحدث فى النفس من بـواعث وتأثيرات ، بـواسطة الخطـوط أو الحركـات أو الأصـوات أو الألفاظ . . وهـو مهـارة تكتسـب بالـدراسة والمرانة . . فإنـه ـ فى مقامنـا هذا ـ ليس مطلـق المهارة . . وإنما المهارة التى يحكمها الذوق الجميل والمواهب الرشيدة . .

وإذا كان الجمال هو: البهاء والحسن والزينة ، التى تقع ـ كما يقول ابن الأثير (٥٥٥ ـ ٦٣٠ هـ ـ ١١٦٠ ـ ١٢٣٣م) ـ على الصور والمعانى . . فإن خروج المهارات ـــ أى الفنون ـ عن المقاصد الرشيدة ، يجردهـا من شرف الاتصاف بالجمال !.. فـابن سينا (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧ م) ـ الفيلسوف المسلم ـ قبل عشرة قرون ـــ يرى أن جمال المقاصد والغـايات شرط فى وصف المهارات بصفة الجمال ، فيقول : « وجمال كل شىء وبهاؤه هو أن يكون على ما يجب له »[٣] .. وعلى ذات الدرب ـ وفى عصرنا الحديث ـ

---

(٣) انظر ذلك فى (لسان العرب) ـ لابن منظور ـ طبعة دار المعارف ـ القاهرة و(المعجم الفلسفى) ـ وضع مجمع اللغة العربية ـ القاهرة ١٣٩٩ / ١٩٧٩م. و(المعجم الوسيط) ـ وضع مجمع =

يقول الناقد والأديب الروسي بلنسكي Belinsky (١٨١١ ـ ١٨٤٨م) : «إن الجمال شقيق الأخلاق ، فإذا كان عمل فني ما فنيا حقيقة فهو أخلاقي بنفس المعنى . . فإن الصور الفنية الإيجابية التي تعكس حياة الناس ونبلها وجمالها تفرض الاحترام والحب والاعجاب المخلص ، وتعطي أنماط الأبطال الحقيقيين في الحياة للقارئ والمتفرج متعة وبهجة جماليتين . أما الصور السلبية ، فإنها تثير مشاعر الاستنكار الأخلاقي والاحتقار التي ترتبط ارتباطا وثيقا في طابعها بمشاعر الازدراء والاحتقار التي نحسها عندما ندرك ما هو قبيح ودنئ . ومن ثم فإن وحدة الجمالي والأخلاقي هي أساس الدور التربوي ودور التحويل الأيديولوجي اللذين تقوم بهما الفنون في الحياة الاجتماعية . . » (٤)

هكذا يتفق ما كتبه الفيلسوف المسلم ابن سينا ـ في (النجاة) ـ قبل عشرة قرون ـ مع ما كتبه الناقد الروسي بلنسكي ـ ونشرته (الموسوعة الفلسفية) السوفيتية ـ حديثا ، على اشتراط جمال المقاصد والغايات لإضفاء صفة الجمال على المهارات ـ الفنون ـ « فوحدة الجمالي والأخلاقي هي أساس الدور التربوي ودور التحويل الأيديولوجي اللذين تقوم بهما الفنون الجميلة في الحياة الاجتماعية . . وجمال كل شيء وبهاؤه هو أن يكون على ما يجب له ! . . » . . كما يقول ابن سينا وبلنسكي! . .

تلك هي مضامين المصطلحات ، التي جعلناها عنوانا لهذا الكتاب . .

= اللغة العربية ـ القاهرة ١٣٩٢ / ١٩٧٢م . و (المعجم الفلسفي) وضع : يوسف كرم . ويوسف شلالة ، ود. مراد وهبة . طبعة القاهرة ، ١٩٧١ م .

(٤) (الموسوعة الفلسفية) ـ السوفيتية ـ بإشراف : م. روزنتال ، وب. يودين . ترجمة . سمير كرم . طبعة بيروت ، ١٩٧٤ م ، مادة « الجمالي والأخلاقي » .

فنحن نعنــى بـ « الإسـلام » : رأينا واجتهـادنا ورؤيتنا لموقـف الإسلام فى هذه القضية . . . و « الفنون » ، التى نجتهـد لنقدم فيها رأى الإسلام ، هى الفنون « الجميلـة » . . الجميلة فى ذاتها ، كثمرة للمهـارات الفنية العبقـرية للإنسان الفنان . . والجميلـة ، أيضا ، فى المقاصد والغايات التـى تتغياها فى الحياة الاجتماعية بالمجتمع الذى أبدعت فيه .

* * *

كذلك ، فنحـن لا نعنى ببيان رأى الإسـلام فى الفنـون الجميلة ، أن هناك «فنونا ـ دينية » ، هى تلك التى يرضـى عنها دين الإسلام . . ذلك أن الدين : «وضع الهى ، يدعو أصحاب العقول إلى قبول ماهو عند الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ . . » (٥) . . والعلوم التى هو ـ الدين ـ موضوعهـا هى العلوم «الشرعية». . بينما « الفن » إبداع بشرى ، وهو داخل ـ عند تصنيف العلوم ـ فى علوم الحضـارة وفنونها . . ورغم « الصلـة » التى تقيمها عقيـدة الفنان وأيديولـوجيته بين فلسفتها وبين « الفن » الـذى يبدعه ، فإن هـذا « الفن » يظـل غير « العقيدة » ، وإن وقفـت المغـايرة عنـد « التميـز » فلم تهبـط إلى «الانفصـال » التام ، كما لم ترتفع إلى « الاتحـاد » التام . .

فالفن المتسـق مع الإسـلام ، هو ذلـك الذى يحقق مقاصـده فى أمته وفى الإنسـانية ، عندمـا تشيع فيه الصبغة التى صبغت بها عقيـدته وميزت بها أيديولوجيته إبداع الإنسان الفنان . . إنها خيوط غير مرئية ، تلك التى تربط « الوضع الإلهى » «بالإبداع الإنسانى الجميل » . .

ونحن نستطيع أن نتلمس هذه الخيوط فى « الفطرة الجمالية السليمة » ،

---

(٥) الشريف الجرجانى (التعريفات) ـ مادة : الدين ـ طبعة القاهرة ـ سنة ١٩٣٨ م .

التى لابد وأن يزكيها دين الفطرة : الإسلام!. . وفى نصوص الوحى الإلهى ـ القرآن الكريم ـ تلك التى عرضت لقيمة الجمال ودوره فى خلق الله ، وفى حياة الإنسان ، وفى مهام العمران بالمجتمعات . . وفى البيان النبوى ـ السنة النبوية الشريفة ـ التى جسدت مقاصد الوحى الإلهى فى هذا الميدان . . وفى الاجتهادات التى مثلت « ثوابت » الفكر الإسلامى . فى موقف الإسلام من الفنون الجميلة ، عبر تاريخ الاجتهاد فى حضارة الإسلام . .

تلك هى مهمة هذا الكتاب ، التى تحاول أن تنهض بها فصوله ، سواء منها تلك التى درسنا فيها مختلف جوانب القضية . . أو تلك « النصوص » التى سقناها فى « الملحق » الذى ذيلنا به هذا الكتاب ، والتى قدمنا فيها أبرز الاجتهادات التى عرضت للقضية ، والتى مثلت وتمثل معالم الاجتهاد الإسلامى فيها عبر الزمان . . وعبر المكان . . وعبر المذاهب التى انحاز إليها هؤلاء الأئمة المجتهدون .

فإذا استطاعت صفحات هذا الكتاب أن تحسم هذه القضية . . قضية موقف الإسلام من الفنون الجميلة . . وأن تصل بفرقاء النزاع المحتدم حولها إلى كلمة سواء . . بلغنا الغاية من وراء الجهد الذى بذلناه فيه . .

والله من وراء القصد . . منه نستمد العون والتوفيق .

دكتور : محمد عمارة

الفصل الأول
المسلم.. والجمال

من الناس من يحسب أن هناك خصومة بين الإسلام وبين الجمال ، تدعو المسلمين إلى التجهم فى النظرة إلى الحياة ، وإدارة الظهر إلى ما فى الكون من آيات البهجة والزينة والجمال . . يحسبون ذلك ، فيقولونه ، أو يعبرون عنه بالسلوك المتجهم إزاء آيات الجمال والفنون والابداعات الجمالية فى هذه الحياة .

ولو كان هذا المسلك الخشن والغليظ والمتجهم ، أثرا من آثار المحن التى يُمتحن بها المسلمون فى مرحلة الاستضعاف التى يعيشونها ، ورد فعل للتحديات المعادية التى تفرض الهم والحزن على الوجدان الإسلامى المرهف، أو مظهر الغضبية لحرمات الله المنتهكة ، لكان ذلك مبررا ومفهوما .. لكن أن يكون هذا التجهم ، فى نظر هذا الفريق من الإسلاميين ، هو مما يقتضيه المنهج الإسلامى فى الحياة ، فذلك هو الذى يدعو إلى استجلاء منطوق ومفهوم المنهج الإسلامى إزاء جماليات الحياة .

وجدير بالتنبيه أن هؤلاء الذين يحسبون قيام علاقة التلازم بين التجهم ومخاصمة الأحاسيس الجمالية وبين منهج الإسلام ، منهم الإسلاميون ،

الذين يحسبون ـ مخلصين ـ أن هذا هو الموقف الحق للإسلام الصحيح فى هذا الموضوع ، ومنهم الخصوم الذين يتخذون من مسلك الغلظة لبعض الإسلاميين تجاه جماليات الحياة سبيلا للطعن على الإسلام . . فالقضية ، إذن ، أكبر من أن تكون «خيارا خشنا» لبعض من الإسلاميين هم أحرار فى سلوكه ، وإنما هى قد غدت واحدة من المطاعن التى يحاول نفر من خصوم المنهج الإسلامي استخدامها ـ ضمن مطاعن أخرى ـ لتشويه صورة منهج الإسلام فى الفكر والحياة . . الأمر الذى يكسب الحديث عن هذه القضية أهميته ، ويجعل له مكانه الطبيعى فى سياق الحديث عن معالم منهج الإسلام.

* * *

وبادئ ذى بدء ، فإذا كانت « الحضارة » هى جماع إبداع الأمة فى عالمى « الفكر » و « الأشياء » ، أى فى « الثقافة » التى تهذب الإنسان وترتقى به ، وفى « التمدن » الذى يجسد ثمرات الفكر ـ فى التطبيق ـ والتقنية ـ أشياء يستمتع بها الإنسان المتحضر . . إذا كانت هذه هى « الحضارة » ، فإنها ـ كإبداع بشرى ـ فى المنظور الإسلامى وفى التجربة الإسلامية ، وثيقة الصلة بدين الإسلام ، كوضع إلهى ، نزل به الوحى على قلب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

ففى التجربة الحضارية الإسلامية ، كان « الدين » هو الطاقة التى أثمرت ، ضمن ثمراتها ، توحيد الأمة ، وقيام الدولة ، والإبداع فى كل ميادين العلوم والفنون والآداب ، شرعية وعقلية وتجريبية ، كما كان الدافع للتفتح على المواريث القديمة والحديث للحضارات الأخرى ،

وإحيائها ، وغربلتها ، وعرضها على معايير الإسلام ، واستلهام المتسق منها مع هذه المعايير ، لتصبح جزءا من نسيج هذه الحضارة الإسلامية ، التي وإن كانت إبداعا بشريا ، إلا أنها قد اصطبغت بصبغة الإسلام الدين ، كما كانت ثمرة للطاقة التي مثلها وأحداثها عندما تجسد في واقع المسلمين . .

تلك هي العروة الوثقى بين دين الإسلام وبين حضارته ، بما فيها من إبداع شمل مختلف الميادين .. الشرعية .. والعقلية .. والتجريبية .. والجمالية..

بل إننا لو تأملنا في مكان « الهجرة » في دعوة الإسلام ودولته وأمته ، لرأيناها أكثر وأكبر من إنجاز لإنقاذ الدعوة من حصار « الشرْك المكّي » . . لأن الهجرة في حياة هذه الدعوة لم تقف عند الهجرة من مكة إلى المدينة — ومن قبلها الحبشة — وإنما كانت ، أيضا ، هجرة من « البداوة » ، إلى «الحضارة » ، من « البادية » إلى « الحاضرة » من حياة « الأعراب » ، التي تغلب عليها الغلظة ويسود فيها الجفاء ، إلى حياة « العرب » الذين استقروا في « القرى » . فغدا بإمكانهم أن يقيموا « مدنية » و « حضارة » في هذه «القرى » . . كانت إنجازا حضاريا ، ينتقل بالجماعة البشرية من طور ترحال البداوة الذي يستحيل معه قيام « التراكم » في الإبداع — الثقافي والتمدني — إلى طور الاستقرار والحضور في « القرى » الحاضرة ، الأمر الذي يتيح لابداعات الإنسان أن « تتراكم » ، فتعلو بناء حضاريا مناسبا للجهد الإبداعي المبذول فيه . .

تلك هي « المكانة الحضارية » للهجرة في حياة دعوة الإسلام ، في عصر صدر الإسلام . . وتلك هي بدايات خيوط العروة الوثقى بين الإسلام الدين

ـ الوضع الإلهي ـ وبين الحضارة الإسلامية ـ الإبداع الإسلامي لأمة الإسلام . .

وفي ضوء هذه « الحقيقة الحضارية » ، نفهم اصطفاء الله ، سبحانه وتعالى ، « مكة » ، أم القرى ـ وحاضرة الحواضر ـ مهبطا للوحي بالدين الجديد . . ونفهم مغزى كون « يثرب » ـ المدينة ـ وهي ثانية القرى والحواضر ـ هي دار الهجرة وعاصمة الدولة ومنارة الدعوة . . بل ونفهم سر استمساك القرى والحواضر الثلاث ـ المدينة ومكة والطائف ـ بالإسلام، يوم ارتدت عنه ، أو عن وحدة دولته ، البوادي بمن فيها من الإعراب ، عندما زلزلت وفاة الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قلوب هؤلاء البدو والأعراب ؟!.. نفهم جميع ذلك في ضوء العلاقة العضوية بين هذا الدين وبين الإبداع الحضاري للإنسان الذي تَدَيَّن بهذا الدين . .

بل ونفهم أن هذه العلاقة بين « الدين » وبين « الحاضرة » ، ومن ثم «الحضارة » ، ليست خصيصة إسلامية ، وإنما هي سُنة من سُنن الله في كل الشرائع والرسالات .. فكما اصطفى الله حاضرة مكة ، لتبدأ منها الدعوة ، قائلا لرسوله : (.. ولتنذر أم القرى ومن حولها) (١) .. أنبأنا في قرآنه الكريم، أن هذا الاصطفاء إنما كان اطرادا لسُنة إلهية . . (وما كان ربك مهلك القرى حتى يبعث في أمها رسولا يتلو عليهم آياتنا وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون) (٢) .. فأم القرى ، وحاضرة الحواضر كانت دائما هي موطن الرسل والرسالات ، وذلك للعلاقة العضوية بين « الدين » و«الحضارة » ، على امتداد تاريخ الإنسان .

ولأن هذا هو دور « الهجرة » في دعوة الإسلام وأمته ودولته ، ولأن هذه

هى وظيفتها الحضارية ـ الانتقال بالإنسان ـ الأعرابى ـ من غلظة البادية وتجهم خشونتها ـ إلى مدنية الحاضرة وتثقف ـ تهذب ـ عقول أبنائها ... لأن هذا هو دورها ، وهذه هى وظيفتها الحضارية ، كان المسلمون يستعظمون ويستنكرون رجوع المهاجر عن « المدينة » وانقلابه إلى «البادية» مرة أخرى حتى لقد سموا هذا الانقلاب « ردة » .. وقرأنا فى مصادر السُّنة ذلك السؤال الاستنكارى الذى سأله أحد الولاة لمن عاد فتعرب ـ رجع أعرابيا بعد هجرته ـ : « أرتددت على عقبيك ، تعربت ؟! » (٣).

تلك هى بدايات الخيوط بين الإسلام الدين وبين الحضارة .. وهى بدايات لا ترشحه كى يوحى بالتجهم إزاءها ، ولا بمخاصمة إبداعاتها الجمالية بحال من الأحوال ! ..

ثم ... إن « الجمال » ، الذى يظن بعض من الناس مخاصمة الإسلام إياه ، هو ـ إذا نحن تأملناه ـ بعض من آيات الله ، سبحانه وتعالى ، التى أبداعها فى هذا الكون ، وأودعها فيه .. إنه بعض من صنع الله وإبداعه ، سبحانه ، سوّاه وسخّره للإنسان ، طالبا من الإنسان أن ينظر فيه ، ويستجلى أسراره ، ويستقبل تأثيراته ، ويستمتع بمتاعه ويعتبر بعبرته (وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضرا نخرج منه حبا متراكبًا ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه ، انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون) (٤) .. إنها آيات خلق الله ، يأمر الإنسان أن ينظر فيها .

وأينما يمم الإنسان بصره أو بصيرته أو عقله أو قلبه ، فإنه واجد آيات الله التى خلقها « زينة » للوجود ، ودعاه إلى النظر فيها .. (إنا زينا السماء

الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد) [٥] . . (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ، ذلك تقدير العزيز العليم) [٦] . . (ولقد جعلنا فى السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظنا من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين) [٧] . . (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج) [٨] ..

فهذه « الزينة » ـ التى هى آيات إبداع الله ، سبحانه وتعالى ، هى « زينة ـ جمال » يدعو الله الإنسان إلى النظر فيها . . بل ويقول لنا إن خلقها ليس «للحفظ » فقط ، ولا « للمنفعة » وحدها . . وإنما « للزينة » التى أبداعها الله لينظر فيها الإنسان ويستمتع بما فيها من جمال ! . .

ومثل ذلك حديث القرآن الكريم عن آيات خلق الله التى أبداعها لنا فى صورة « الحيوان » المسخر للإنسان . . فليست « المنفعة » المادية وحدها هى الغاية من هذا الخلق والتسخير ، وإنما « الجمال » و « الزينة » أيضا غايات يتغياها الإنسان فى هذا الخلق الذى خلقه الله . . (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ، إن ربكم لرءوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون) [٩] .

فليست « المنفعة المادية » فقط هى غاية خلقها وتسخيرها للإنسان ، إذ « الجمال والزينة » كذلك « منفعة » محققة ولازمة ، أيضا ، للإنسان ! . .

والبحار ، التى سخرها خالقها للإنسان . . لا تقف منافعها عند المنافع المادية — اللحم الطرى ، وسبل الاتصال — وإنما إبتغاء « الحلية . . والزينة ..

والجمال » ، أيضا ، من منافعها . . (وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) (١٠) .

وعندما يشير الله سبحانه إلى بعض من نعمه وآياته . . نرى قرآنه الكريم يلفت النظر إلى ما ينزل من السماء من ماء تمتلئ به الأودية فيحيى الأرض ويزينها للناظرين . . وإلى ما يستخرجه الإنسان ، بالنار ، من حلى الزينة والجمال ، المستخرجة من معادن الأرض . . ففى الزرع : طعام ، وزينة ، وفى الذهب والفضة : نقد ، وحلية وجمال يتجمل به الإنسان . . (أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبدا رابيا ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال) (١١) . .

إن هذا الجمال وتلك الزينة . . هى آيات الله ، أبدعها وبثها فى هذا الكون ، وأمر الإنسان أن ينظر فيها . . إذن ، فالنظر فى هذا الجمال ، والاستقبال لآيات الزينة ، وفتح قنوات الاحساس الإنسانى على صنع الله هذا ، هو امتثال لأمر الله ، سبحانه وتعالى (انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه) . . (أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها . .) . . وهذا النظر ، فى هذه الآيات ، هو سبيل من سبل الاستدلال على وجود الله ، وعلى كمال قدرته وبديع صنعته . . وما تعطيل النظر فى آيات الجمال هذه - باصطناع الخصومة بين الإسلام وبين جماليات الحياة - إلا تعطيل للدليل على وجود الصانع المبدع لهذه الآيات ! . .

ويستوى مع هذا التعطيل للنظر - بقمع أدواته وسد قنواته وإهمال

ملكاته ـ « النظر » المجرد من « الاحساس » بآيات الجمال المودعة فى هذه المخلوقات ! . .

فالذين لا يرون فى المحيط الذى يعيشون فيه غير « المنافع المادية » ، ولا ترى بصائرهم آيات الجمال فى هذا المحيط ، لاشك أنهم معنيون وموصوفون بقول الله سبحانه (لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون) (١٢) . .

كذلك فإن تنمية الاحساس الجمالى لدى الإنسان المؤمن هى تنمية للملكات والطاقات التى أنعم بها عليه الله . . وفى ذلك الشكر لله الذى أنعم بها . . وإن فى استخدام هذه الملكات سبيلا للاستمتاع بما خلق الله فى هذا الكون من آيات الزينة والجمال الشكر لله على نعمة خلقه لهذه الزينة ولهذا الجمال . . وصدق الله العظيم إذ يقول : (وأما بنعمة ربك فحدّث) (١٣) . . وصدق رسوله الكريم عندما قال : « إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على عبده » (١٤) . .

* * *

وإذا كان المسلم ـ بحكم إيمانه وإسلامه ـ مدعوا إلى التخلق بأخلاق الله، ليكون ربانيا ، ومطلوب منه أن يسعى ، قدر الطاقة ـ ومع ملاحظة فوارق المطلق عن النسبى ـ أن يسعى كى يتحلى بمعانى أسماء الله الحسنى . . فإن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعلمنا أن « الجميل » هو من أسماء الله . . ففى الحديث الشريف : « إن الله جميل يحب الجمال » (١٥) .. فالمسلم ، إذن ،

مدعو إلى الاتصاف بالجمال ، الذى هو البهاء والحسن ، فى الفعل وفى الخلق ، وإلى تنمية إحساسه بالجمال الذى أودعه الله فى الكون ، جمال الصور وجمال المعانى على حد سواء [١٦] . . ففى ذلك « كمال » للإنسان و«سعادة » له أيضا . . وكما يقول الأمام الغزالى « فإن كمال العبد وسعادته فى التخلق بأخلاق الله تعالى والتحلى بمعانى صفاته ، وأسمائه ، بقدر ما يتصور فى حقه . . ليقرب بها من الحق قربا بالصفة لا بالمكان . . لأن استعظام الصفة واستشرافها يتبعه شوق إلى تلك الصفة وعشق لذلك الجلال والجمال ، وحرص على التحلى بذلك الوصف إن كان ذلك ممكنا . . أو يبعث الشوق إلى القدر الممكن منه لا محالة . . وبذلك يصير العبد ربانيا ، أى قريبا من الرب تعالى . . . » [١٧] عندما يكون جميلا ، يتصف ويستمتع بصفات وآيات الحسن والبهاء ، التى أبدعها البارئ ـ الجميل ، الذى يحب الجمال ـ . .

ولأن هذا هو موقف المنهج الإسلامى من آيات الجمال والزينة المبثوثة فى الكون ، ومن صفات الحسن والبهاء المتاحة للإنسان فى هذه الحياة ، كانت دعوة القرآن الكريم الناس إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد ، أى إلى إقامة التلازم وعقد القران بين التزين وبين دعاء الله والمثول بين يديه ، فكلاهما ـ التزين ، والصلاة ـ شكر لله سبحانه وتعالى . . (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد و كلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون)[١٨] . . ونحن نلحظ أن هذه الآيات تدعو الإنسان ـ مطلق الإنسان.

(يابني آدم) ـ وليس المسلمين وحدهم ، وذلك تنبيها على أن هذا هو مقتضى الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، طلب الزينة والجمال . . وتصحيحا للانحراف الذى جعل العبادة رهبانية تدير الظهر لصفات الحسن ومظاهر الجمال فى هذه الحياة ـ (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) ـ . . إنه المنهج الإسلامى ، الذى يعيد الإنسان ـ فى هذه القضية ، كما فى سواها ـ إلى « فطرته » والتى يمثل التجمل والتزين ملمحا أصيلا من ملامحها . . وفى حديث عائشة ، رضى الله عنها ، يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « عشرة من الفطرة : قص الشارب ، وقص الأظافر ، وغسل البراجم [١٩] ، وإعفاء اللحية ، والسواك ، والاستنشاق ونتف الإبط وحلق العانة ، وانتقاص الماء [٢٠] . . » [٢١] .

وإذا كان « المسجد » ، فى العرف الإسلامى ، هو : مطلق مكان السجود ، ولذلك كانت الأرض كلها مسجدا لأبناء الإسلام ، فإن اتخاذ الزينة هو فريضة إسلامية فى الأوقات الخمسة التى يمثل فيها المسلم ، يوميا ، بين يدى مولاه . . أى أنها فريضة إسلامية فى كل زمان ـ تقريبا ـ وفى أى مكان!..

وهذه الفريضة يتأكد التنبيه عليها فى أيام وأماكن الاجتماع ، كالجُمع والأعياد . . وفى حديث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ما على أحدكم، إن وجد سعة ، أن يتخذ ثوبين لجمعته ، سوى ثوبى مهنته » ! . [٢٢] و«من اغتسل ـ أو تطهر ـ فأحسن الطهور ، ولبس من أحسن ثيابه ، ومس ما كتب الله له من طيب أو دُهن أهله ، ثم أتى الجمعة ، فلم يلغ ولم يفرق بين اثنين ، غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى » [٢٣] .

ولا يحسبن أحد أن « الزينة » التي يطلبها الإسلام ويأمر بها مقصورة على الثياب الحسنة ، والطيب ، وحسن التجمل ، فقط ، عند المثول بين يدى الله فى الصلاة . . ذلك أن « الزينة » إذا كانت اسما جامعا لكل شيء يُتَزَيَّن به[٢٤] . . فإن مصادر طلبها ، ومواطن الاحساس بها مبثوثة فى كل آيات الجمال التى خلقها الله وأبدعها وأودعها فى سائر أنحاء هذا الوجود . . ففى الجنات وأزهارها وورودها ـ بل إن فى مطلق النبات ـ زينة للأرض ، تتزين بها ، وتتجمل ، كى يستمتع بها الإنسان . . ولقد كان من دعاء النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى حديث الاستسقاء ـ : « اللهم أنزل علينا فى أرضنا زينتها» ! . . وكانت دعوته إلى تزيين قراءة القرآن بالصوت الحسن : « زينوا القرآن بأصواتكم » ! . .[٢٥]

فالخيل « ستر وجمال للرجل يتخذها تكريما وتجمُّلاً ، ولا ينسى حق بطونها وظهورها وعسرها ويسرها . . »[٢٦]

والثياب الجديدة ، نعمة لا يقف المسلم إزاءها عند « منفعتها المادية » وحدها ، وإنما يبصر فيها « المعانى الجمالية » للثوب الجديد . . وفى الحديث الذى يرويه عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم : « من استجد ثوبا فلبسه فقال حين يبلغ ترقوته : الحمد لله الذى كسانى ما أوارى به عورتى ، وأتجمل به فى حياتى ، ثم عمد إلى الثوب الذى أخلق ـ أو قال : ألقى ـ فتصدق به ، كان فى ذمة الله تعالى وفى جوار الله وفى كنف الله حيا وميتا ، حيا وميتا ، حيا وميتا . » ! . .[٢٧]

فالثياب « للمنفعة المادية » ، و « للتجمل » كذلك . . ولقد قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لعمر بن الخطاب ، وقد رآه لبس ثوبا جديدا : «ألبس

جديدا ، وعش حميدا ، ومت شهيدا ، ويرزقك الله قرة عين فى الدنيا والآخرة»!

ولقد ميز الإسلام ما بين طلب الجمال ، والاستمتاع به ، عندما يحكمه الاقتصاد والاعتدال ، وعندما يكون شكرا لأنعم واهب هذا الجمال ، وبين «الكِبْرْ» الذى نهى عنه الإسلام ، وتوعد مقترفيه . . فعندما قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الذى يرويه ابن مسعود ـ : « لا يدخل النار من كان فى قلبه مثقال حبة من إيمان ، ولا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من كبر » . . عند ذلك قال رجل :

* يارسول الله ، إنى ليعجبنى أن يكون ثوبى غسيلا ، ورأسى دهينا ، وشراك نعلى (٢٩) جديدا ـ وذكر أشياء ، حتى ذكر علاقة سوطه (٣٠) ـ أفمن الكِبْرْ ذلك يارسول الله ؟ .

* فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « لا ! ذلك الجمال ، إن الله جميل يحب الجمال . ولكن الكِبْرْ من سفه الحق وازدرى الناس ! » (٣١) . .

فالجمال محمود . . بل هو سعى على درب الاتصال بطرف من صفات الله المعلنة فى أسمائه . . وليس هو الكِبْرْ المذموم ، الذى هو تسفيه الحق وازدراء الناس.

وأيضا . . فليس هذا الجمال هو « البغى » الذى ينهى عنه الإسلام . . ولقد سأل الصحابى مالك بن مرارة الرهاوى ، رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال :

* يارسول الله ، قد قسم لى من الجمال ما ترى ، فما أحب أحدا من الناس فضلنى بشراكين فما فوقهما ! أفليس ذلك هو البغى ؟! .

* فقال ـ صلى الله عليه وسلم : « لا ! ، ليس ذلك بالبغى ، ولكن البغى من بطر ـ أو قال : سفه الحق وغمط الناس » . (٣٢).

فالحرص على التجمل ، إلى حد التنافس فى الاتصاف بصفاته والجمع لمؤهلاته، ليس من « البغى » الذى ينهى عنه الإسلام .

ولقد أباح الإسلام للمرأة أن « تتجمل للخطاب » ، إظهارا لنعمة الجمال، وطلبا للزواج .. وفى حديث الصحابية سبيعة بنت الحارث الأسلمية .. عندما توفى عنها زوجها سعد بن خولة ، ووضعت حملها منه ، وبرئت من نفاسها: « تجملت للخطّاب » .. فدخل عليها أبو السنابل بن بعكك ـ من بني عبد الدار ـ فقال لها : مالى أراك متجملة لعلك ترتجين النكاح ؟! إنك ، والله ، ما أنت بناكح حتى تمر عليك أربعة أشهر وعشر ، فذهبت سبيعة إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وسألت عن ذلك ـ عن « العدة » ـ وليس عن «التجمل للخطّاب ـ فلم يكن ذلك موضع خلاف ! ـ قالت : « فأفتانى رسول الله بأنى قد حللْت حين وضعت حملى ، وأمرنى بالتزويج إن بدا لى .. »(٣٣) .

بل لقد رأينا « الجمال ـ والتجمل » نعما ، يدعو الرسول ربه أن يسبغها الله على الصحابى أبو زيد الأنصارى ، فيقول فى الدعاء له : « اللهم جمّله وأدم جماله..» ! .. ووجدنا القرآن الكريم يتحدث عن زينة الأرض وزخرفها كمهمتين من مهام خلافة الإنسان عن الله فى عمرانها ، لن تنتهى هذه الخلافة ، بطى صفحة هذه الحياة الدنيا ، إلا إذا بلغ الإنسان الشأن فى هذا السبيل (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والانعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت

وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون) [٢٥].

هذا هو منهج الإسلام إزاء آيات الجمال والحسن والبهاء والزينة والزخرف التي أبدعها الله وأودعها في الوجود ، طالبا من الإنسان النظر فيها ، والاستقبال لتأثيراتها ، والاستمتاع بمتاعها ، شكرا لله على إبداعها ، وعلى إبداعه الحواس المستقبلة لتأثيراتها ، وتخلقا ببعض من صفات الله ـ سبحانه ـ الذي هو « جميل يحب الجمال » ، كما قال عليه الصلاة والسلام..

* * *

ولقد كان منهج النبوة الذي تجسد في سلوك الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في خاصة نفسه ، ومع أهله ، وفي تشريعه للناس .. كان هذا المنهج ـ بصدد التربية الجمالية ، والسلوك الجمالي ـ البيان العملي والممارسة التطبيقية للبلاغ القرآني ، الذي شرع الله فيه منهج الإسلام في هذا الميدان .

فهذا الرسول ، الذي جاء رحمة للعالمين ، كان النموذج الأرقى للإنسان الذي يستشعر كل آيات الجمال في خلق الله ، ويلفت النظر بهذا السلوك الجمالي ، ليغدو سنة متبعة في مذهب الإسلام وحضارة المسلمين ..

لم يكن الرسول « مترفا » ، ولا « مستغنيا » ، ولكن الله قد أغناه عن الحاجة ، بعد أن كان فقيرا عائلا .. (ووجدك عائلا فأغنى) [٢٦] .. لم يكن « الراهب » الذي يقيم الخصام بين مملكة الأرض ومملكة السماء .. ولا « الناسك نسكا أعجميا » ، الذي يدير ظهره للدنيا وطيباتها .. كان يقبل الهدية ، ويهدي إلى الناس ، وكان يتصدق ، دون أن تتطلع نفسه أو تمتد يده

إلى شيء من الصدقات . . كان له من المال ـ في « فدك » ـ ومن الغنائم ـ سهم وصفايا ـ ما يكفيه وأهله ، كإمام للدولة، بمقاييس بساطة تلك الدولة ودرجتها في الثراء ، في ذلك الزمان وذلك المكان .. كان المال في يده ، لكنه لم يستول على قلبه في يوم من الأيام ! ..

ونحن إذا شئنا أن نتلمس في سيرته ـ في خاصة نفسه ـ نماذج شاهدة على رقيه وارتقائه في السلوك الجمالي ، والاحساس بالجمال ، فإننا واجدون الكثير ..

● يروى ابن عباس فيقول : « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتفاءل ، ولا يتطير ، ويعجبه الاسم الحسن » ! .. (٣٧)

والذين يتأملون هذا السلوك ، في ضوء قضيتنا ، يدركون أن التفاؤل إنما هو ثمرة لرؤية إيجابيات الواقع وجماليات المحيط .. وهو ضد التشاؤم، الذي لا يرى صاحبه سوى القبح والسلبيات . . وأيضا هو غير السذاجة ، التي لا يبصر صاحبها لا الايجابيات ولا السلبيات ! .. فالتفاؤل موقف إيجابي من جماليات الحياة وإيجابيات المحيط .

« ولا يتطير » ... لأن المتطير هو الذي لا يرى من الأشياء إلا جانب القبح والشؤم .. على حين أن في هذه الأشياء ـ كل الأشياء ـ من وجوه الخير والجمال ما يطرد التطير والتشاؤم عن الذين يبصرون هذا الخير وهذا الجمال.

« ويعجبه الاسم الحسن » ! ... أي أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد بلغ في استشعار آثار الجمال إلى الحد الذي جعله يلمحها حتى في الأسماء .. فهو يدرك أثر « العنوان » في الدلالة والإيماء على « المضمون والموضوع » ! ..

● وفي مأكله ومشربه ـ على بساطتهما ـ كان طالبا للجمال والاستمتاع .

« كان يحب العسل والحلواء » [٣٨] .. و « كان أحب الشراب إليه الحلو البارد » [٣٩] .. فكان ـ على بساطة عيشه ـ ذواقه يحب الطيب والجميل من الطعام والشراب .. وقصصه شهيرة عندما كانت تعاف نفسه حلال الطعام إذا لم تستطبه نفسه ـ عليه الصلاة والسلام .

● وكما لبس البسط من الثياب .. فلقد « لبس جبة رومية .. » [٤٠] .. وعندما أهديت إليه جبة من ديباج منسوج فيه الذهب ، لبسها ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقام على المنبر ، وجلس ولم يتكلم ! ثم نزل ، فجعل الناس يلمسون الجبة وينظرون إليها » ! .. فلما خشي افتتانهم بأمثال هذه الأشياء سألهم :

* « أتعجبون منها ؟! » .

* قالوا : ما رأينا ثوبا قط أحسن منه ! .

* فقال ـ صلى الله عليه وسلم : لمناديل سعد بن معاذ في الجنة أحسن مما ترون !» [٤١] .

لقد لبس هذا الذي لم ير الناس ثوبا قط أحسن منه .. لكنه ذكَّرهم بما هو خير منه وأفضل عند الله ! ..

● وعلى اختياره للبساطة في أدوات منازله وحاجيات أهله .. فلم يكن يعاف استخدام ثمين الأدوات .. ويروى حميد فيقول : « رأيت عند أنس بن مالك قدحا كان للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه ضبة فضة ! » [٤٢] .

● وعندما تحدث عن الطيبات التي يعشقها ويحبها في هذه الحياة ، كشف لنا عن ذوق راق ، يستشعر آيات الجمال ، ويستمتع بطيبات الحياة . « حُبب إلىَّ من الدنيا : النساء ، والطيب ، وجعلت قرة عيني في الصلاة » [٤٣] .

ومن الذى لا يرى الرقى فى التحضر ، والسمو فى الإنسانية مجسدا فى هذا النبى العظيم .. الذى جعلت قرة عينه فى الصلاة .. والذى كان يقوم الليل حتى تتورم قدماه .. والذى كان لا يجَُارَى فى شجاعة المقاتل ، حتى ليقول على بن أبى طالب ـ وهو من هو فى الفروسية والفداء ـ فى خبر شجاعة النبى المقاتل : كنا إذا حمى الوطيس واحمرت الحدق احتمينا برسول الله؟!.. هذا النبى ، هو ذاته الذى يقف بالمسجد ، أثناء اعتكافه فيه للعبادة ـ والمعتكف لا يغادر المسجد أثناء الاعتكاف ـ يقف على عتبة حجرة أم المؤمنين عائشة ـ وكانت حائضا لا يحل لها دخول المسجد ـ يقف على عتبة الحجرة ، بين يدى زوجه ، لترجل له ، شعره أثناء الاعتكاف ؟!.. أى رقى هذا الذى تجسده تلك الصورة الإنسانية الجميلة ، التى يصورها حديث عائشة : « أنها كانت تُرَجِّل النبى ، وهى حائض ، وهو معتكف فى المسجد ، فيناولها رأسه وهى فى حجرتها .. » ؟ (٤٤).

● ثم .. أى رقى فى الجمال والتجمل يبلغ ذلك الذى تحدث عنه خادمه أنس بن مالك عندما وصف هذا الجانب من حياته ، فقال : « ما شممت عنبرا قط ولا مسكا ولا شيئا أطيب من ريح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .. ولا مسست قط ديباجا ولا حريرا ألين مسًا من كف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان أزهر اللون ، كأن عرقه اللؤلؤ » ؟! (٤٦).

ترى ، هل هناك فى الجمال والتجمل أرقى من ذلك الذى كان « كأن عرقه اللؤلؤ»؟!.. هذا هو رسول الله .. جسد فى عشقه للجمال ، وارتقائه على دربه منهج الإسلام فى التربية الجمالية .. فكانت حياته ، فى خاصة نفسه ، التجسيد لسنته التى علمنا إياها عندما قال : « إن الله جميل يحب الجمال»!..

أما « سيرته الجمالية » فى أهله ، فإنها هى الأخرى نموذج للجمال الراقى، وللرقى الجمالى .. تدهشنا اليوم ، بعد أكثر من أربعة عشر قرنا .. فما بالنا إذا تصورناها فى ذلك التاريخ البعيد ؟ ! ..

● هذه عائشة ، زوجه ، رضى الله عنها .. التى تروى عنه الحديث ، وتفتى فى الدين .. كانت تعشق اللعب بالتماثيل .. تماثيل البنات ، والخيل ذات الأجنحة ـ وكانت تسمى خيل سليمان ! ـ وكانت لها صواحب يأتينها ويلعبن معها فى بيت النبوة .. وعندما كان صواحبها يستحين من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يدفعهن دفعا رقيقا ليلعبن مع عائشة بالتماثيل! .. تروى ذلك أم المؤمنين عائشة فتقول : « كنت ألعب بالبنات على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان لى صواحب يلعبن معى ، فكن إذا رأين رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينقمعن منه ، فكان رسول الله يسرّبهن إلىّ يلعبن معى » ؟ (٤٧).

● وهذا النبى ، الذى يأتيه الوحى ، ويبلغ رسالة ربه ، ويقود الدولة ، ويرعى الأمة ، ويكاتب الملوك ، ويقاتل صناديد الشرك ، وينهض بتغيير وجه الحياة على الأرض .. هذا النبى يمارس « السباق » مع زوجته عائشة أم المؤمنين ، رضى الله عنها ! .. وأين ؟.. ليس سرا وراء الجدران والأبواب المغلقة .. وإنما فى الطريق وهم مسافرون ! ..

تروى عائشة حديث هذا الخلق الراقى فى الاستمتاع بجمال الحياة ، وفى الأخذ بحظه من طيباتها ، فتقول : « خرجت مع النبى فى بعض أسفاره، وأنا جارية (٤٨) لم أحمل اللحم ولم أبدن ، فقال للناس : تقدموا ، فتقدموا ، ثم قال لى : تعالى حتى أسابقك ، فسابقته فسبقته ! . فسكت عنى حتى إذا

حملت اللحم وبدنت ونسيت ، خرجت معه فى بعض أسفاره ، فقال للناس : تقدموا ، فتقدموا ، ثم قال : تعالى حتى أسابقك ، فسابقته فسبقنى ! فجعل يضحك وهو يقول : هذه بتلك ! » (٤٩).

ترى ، هل هناك ما هو أرقى من هذا السلوك الجميل ، الذى وإن حمل صاحبه تبعات الدنيا بأسرها ، فإنه لا ينسى حظه من جماليات الحياة ؟!..

إننا نسوق هذا الطرف من سيرة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا لنحجب أو نستدر العجب ، وإنما لنقول إن هذا هو المنهج الطبيعى والوحيد للإسلام فى علاقة المسلم بجماليات الحياة .. منهج (ابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنسى نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ..) (٥٠) .. فلقد أحسن الله إلينا بآيات الجمال التى زين بها كل ما فى الوجود . .

والإحسان المقابل هو أن نحسن الاستقبال لهذه النعم الآلهية ، ونرتقى بقنوات وأدوات وحواس استشعارها والاستمتاع بها ، شكرا له على ما أنعم ، وإقامة للتوازن والوسطية الإسلامية ، التى وإن أنكرت الترف والاسراف فى الملذات ، فإنها تنكر الرهبانية ونسك الاعاجم وإدارة الظهر لطيبات الحياة ، وتعطيل الحواس التى أنعم الله بها علينا عن أن تستمتع بطيبات وجماليات هذه الحياة .. إنه المنهج الذى يعلمنا أن كل عمل يرتقى بإنسانية الإنسان ، حتى ما كان منه « لهوا » يروّح عن النفس ، و « لذة » حلالا ، فهو « عبادة » لله ، يستمتع بها الإنسان فى دنياه ، وتُكتب له بها الحسنات التى يوفاها فى أخراه !.. يقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم :.. إن كل شىء يلهو به الرجل باطل إلا : رمية الرجل بقوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته امرأته ، فإنهن من الحق » !.(٥١) ويقول : « عجبت من قضاء الله عز وجل ، للمؤمن ،

إن اصابه خير حمد ربه وسكر ، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر . المؤمن يُؤجر فى كل شىء حتى فى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته » (٥٢) فحتى فى العشق .. والحنان .. والملاعبة ، يُؤجر المؤمن ، لأنه يستمتع بطيبات الحياة وجمالياتها .

ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يقف ـ فى هذا المنهج ـ عند تقرير جابر بن عبد الله :

ـ « أتزوجت » ؟ .

ـ فيقول جابر : نعم ..

ـ فيسأله الرسول : «أبكرا ؟ أم ثيبا ؟؟ » .

ـ فيقول جابر : لا ، بل ثيبا ..

ـ فيقول ـ صلى الله عليه وسلم : « أفلا بكرا تلاعبها » (٥٣) .. وتلاعبك؟!..

تلك هى سنة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى التربية الجمالية .. وهذا هو منهج النبوة بإزاء جماليات الدنيا وزينة الكون وطيبات الوجود .. وهكذا تجسد هذا المنهج النبوى سنة عملية وأسوة حسنة ، ضربنا عليها الأمثال ، وسقنا لها النماذج الشاهدة .. من حياته الشريفة ، فى خاصة نفسه ، وفى علاقاته بأهله ، وفى توجيهاته للناس ..

إنه منهج العشق الجلال للطيب من آيات الجمال ، ينفى ـ بل ويستنكر ـ ذلك التجهم الذى يفتعل الخصام بين المسلم وبين طيبات وجماليات هذه الحياة .. فالمسلم لن يستطيع أداء فريضة الشكر لله على نعمة الجمال ، إلا إذا عرف ، واستمتع ، بأنعم الله فى هذا الجمال !..

* * *

الهـوامش

(١) الأنعام : ٩٢ .

(٢) القصص : ٥٩ .

(٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي .

(٤) الأنعام : ٩٩ .

(٥) الصافات : ٦ ، ٧ .

(٦) فصلت : ١٢ .

(٧) الحجر : ١٦ ـ ١٨ .

(٨) ق : ٦ .

(٩) النحل : ٥ ـ ٨ .

(وفى الحديث الشريف عن الخيل : « الخيل معقود بنواصيها الخير إلى يوم القيامة ، وهى لرجل أجر ، ولرجل ستر وجمال ، وعلى رجل وزر . فأما الذى هى له ستر وجمال ، فرجل يتخذها تكريما وتجمُّلاً ولا ينسى حق بطونها وظهورها وعسرها ويسرها . وأما الذى هى عليه وزر فرجل يتخذها بذخا وأشرا ورياء وبطرا » . رواه مسلم والإمام أحمد) .

(١٠) النحل : ١٤ .

(١١) الرعد : ١٧ .

(١٢) الأعراف : ١٧٩ .

(١٣) الضحى : ١١ .

(١٤) رواه الترمذى .

(١٥) رواه مسلم والترمذى وابن ماجة والإمام أحمد ـ وهو فى إحدى روايات أبى هريرة لحديث أسماء الله الحسنى . انظر : الغزالى (المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) ص ١٠٧ . طبعة القاهرة ، سنة ١٩٦١ .

(١٦) انظر تعريف « الجمال » فى (لسان العرب) لابن منظور . طبعة دار المعارف . القاهرة .

(١٧) (المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى) ص ٢٠ ، ٢١ .

(١٨) الأعراف : ٣١ ، ٣٢ .

(١٩) البراجم : مفردها برجمة - بضم الباء وسكون الراء وضم الجيم - عُقَد الأصابع ومفاصلها كلها ، أو هي خطوط الكف التي يترسب فيها الغبار .

(٢٠) انتقاص الماء : من معانيه : الاستنجاء .

(٢١) رواه النسائي . (ولقد ذكر راوى الحديث تسع صفات ، ونسى العاشرة) .

(٢٢) رواه ابن ماجة .

(٢٣) رواه ابن ماجة والإمام أحمد .

(٢٤) انظر معنى مصطلح « الزينة » فى (لسان العرب) لابن منظور .

(٢٥) رواه البخارى وأبو داود والنسائي وابن ماجة والدارمي والإمام أحمد .

(٢٦) من حديث أبى هريرة - رواه مسلم والإمام أحمد .

(٢٧) رواه الترمذى وابن ماجة والإمام أحمد .

(٢٨) رواه ابن ماجة والإمام أحمد .

(٢٩) شراك النعل : السير يكون على وجهها .

(٣٠) علاقة السوط : السير فى مقبض السوط ، يعلق منه .

(٣١) رواه مسلم والترمذى وابن ماجة والإمام أحمد .

(٣٢) رواه أبو داود والإمام أحمد - (والشراك : السير يكون على وجه النعل) .

(٣٣) رواه مسلم والنسائي وأبو داود .

(٣٤) رواه الإمام أحمد .

(٣٥) يونس : ٢٤ .

(٣٦) الضحى : ٨ .

(٣٧) رواه الإمام أحمد .

(٣٨) رواه البخارى ومسلم والترمذى وأبو داود والدارمى وابن ماجة والإمام أحمد .

(٣٩) رواه الترمذى والإمام أحمد .

(٤٠) رواه الترمذي ، من حديث المغيرة بن شعبة .

(٤١) رواه البخاري ومسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والإمام أحمد .

(٤٢) رواه الإمام أحمد .

(٤٣) رواه مسلم والنسائي والإمام أحمد .

(٤٤) رواه الإمام أحمد .

(٤٥) الأزهر : الأبيض المستنير .

(٤٦) رواه مسلم والإمام أحمد .

(٤٧) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة والإمام أحمد .

(٤٨) أي صغيرة شابة .

(٤٩) رواه أبو داود والإمام أحمد .

(٥٠) القصص : ٧٧.

(٥١) رواه الترمذي والنسائي وأبو داود وابن ماجة والإمام أحمد .

(٥٢) رواه الإمام أحمد .

(٥٣) رواه البخاري ومسلم والنسائي وابن ماجة وأبو داود والدارمي والإمام أحمد .

* * *

الفصل الثانى
جَمَاليـَّات السَّمَاع

لكن ..:

إذا كان هذا هو مستوى الوضوح والحسم الذى بلغه المنهج الإسلامى فى الانتصار للتربية الجمالية ، وربط أواصر العودة بين أحاسيس الإنسان المسلم وحواسه وبين آيات الجمال ومظاهر الزينة فى الوجود .. فلماذا هذا الذى نراه سلوكا لنفر من الإسلاميين يخاصم الجمال ويحبذ التجهم ، وهذا الذى نراه اتهاما موجها إلى الإسلام - من جاهليه ومخاصميه - بمخاصمة الجمال ؟؟..

ولماذا شاعت وتشيع الكتابات والمأثورات حول هذه المخاصمة .. ومخاصمة « الغناء » و « الموسيقى » وأدواتهما ، والعداء لفنون التشكيل - رسما ونحتا وتصويرا - على وجه الخصوص ؟؟ ..

إن الخلاف الناشب بين فقهاء الإسلام حول إباحة أو منع الغناء والموسيقى والرسم والنحت والتصوير - وهى من أبرز الفنون الجمالية التى عرفها الإنسان فى تطوره الحضارى - خلاف قديم وشهير.. وهناك العديد من المأثورات المروية - وأغلبها أحاديث نبوية - تختلف مضامينها فى

هذا الموضوع .. وحول هذه المأثورات ، وملابساتها، وصحتها - رواية ودراية - وحول اتساق بعضها مع البعض الآخر ، دارت وتدور أغلب آراء المختلفين فى هذا المقام .. ولذلك ، فإن الوصول فى هذا الأمر إلى رأى نطمئن إليه ، يقودنا إلى كلمة سواء ، يدعونا إلى أن ننظر نظرة فاحصة ومقارنة ونقدية إلى هذه المأثورات وبادئ ذى بدء ، فنحن بإزاء .

(أ) وقائع حدثت فى عصر البعثة ، وفى بيت النبوة .. والمسجد النبوى.. وبيوت الصحابة .. هى مما يدخل فى « السنة العملية » والممارسة التطبيقية للمنهج النبوى .. أى أنها « شواهد مادية » ، تعلن عن إباحة الغناء .. وتفيد ، أيضا ، بأن اجتهادات مخالفة قد حدثت أثناء هذه التطبيقات والسنة العملية، أراد أصحابها - وهم صحابة أجلاء - منع الغناء ، لكن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقر الغناء ، ونبه أصحاب هذه الاجتهادات على خطئها وخطئهم فيها ..

(ب) أحد عشر مأثورا من الأحاديث تفيد منع الغناء والنهى عنه وتوعد المغنين والسامعين .

(جـ) تفسير عدد من مفسرى القرآن الكريم للمراد « باللهو » فى الآية القرآنية : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) [١] ، على أنه هو الغناء .. تلك هى المأثورات .. والسنة العملية .. والتفسير .. التى جاءت فى الغناء والأدوات الموسيقية المصاحبة له .. والتى دار بسببها ومن حولها خلاف الفقهاء حول موقف الإسلام من حكم الغناء، وموقف المسلمين من هذا الفن ..

● فمن السنة العملية التى رويت فى إباحة الغناء ، نختار ثلاث مرويات،

شهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الغناء فى اثنتين منها ، ولم يقف موقفُه منه عند إقراره فقط ، وإنما خطّأ من اجتهد لمنعه .. أما المروية الثالثة فكان شهود الغناء فيها بعض الصحابة ، الذين خطّأوا من اجتهد لمنعه ، وقالوا إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رَخّص فيه ، فهو مباح ..

فعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : « دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث (٢) ، فاضطجع على الفراش ، وحَوَّل وجهه . فدخل أبو بكر فانتهرنى ، وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ؟! . فأقبل عليه رسول الله ، فقال : «دعهما». فلما غفل ـ (أى أبو بكر) ـ غمزتهما فخرجتا(٣).

فنحن أمام سنة عملية ، أقر فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الغناء ، فى بيت النبوة ، من فتاتين غنتا بأشعار تتحدث عن ذكريات وقائع الحرب فى التاريخ .. بل والتاريخ الجاهلى ! .. وعندما اعترض الصديق أبو بكر ، مجتهدا فى المنع ، اعترض الرسول على هذا الاجتهاد ، مؤكدا الإباحة ـ ولم يطعن أحد من علماء الجرح والتعديل فى أحد من رواة هذا الحديث ـ ..

وعن عائشة ، أيضا ـ وفى ذات الحديث ـ تكملة تروى أحداث واقعة ثانية لسُنّة عملية أخرى فى هذا الموضوع .. تقول ، رضى الله عنها : «وكان يوم عيد ، يلعب السودان ـ الحبشة ـ بالدرق (٤) والحراب ، فى المسجد ، فإما سألت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإما قال : «تشتهين تنظرين ؟» ، فقلت : نعم ، فأقامنى وراءه ، خدى على خده ، يسترنى بثوبه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون ، فزجرهم عمر ، فقال النبى : « أمْناً بنى أرفدة .. دونكم

بني أرفدة »(٥). حتى إذا مللْت ، قال : «حسبك ؟ » ، قلت : نعم ، قال : «فاذهبي» .

فهنا ، أيضا ، سُنّة عملية أقرت اللعب - (التمثيل) - المصحوب بالغناء والرقص - ففي بعض الروايات أنهم كانوا يغنون شعرا يقول :

يا أيها الضيف المعرج طارقا لولا مررت بآل عبد الدار
لولا مررت بهم تريد قراهم منعوك من جهد ومن إقتار

وفي بعض الروايات : « كانت الحبشة يزفنون - (أي يرقصون) - وفي بعضها : « يرقصون بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويقولون : محمد عبد صالح .. »(٦).

وعندما اجتهد عمر بن الخطاب في المنع ، عارضه الرسول - صلى الله عليه وسلم - مقرا الإباحة ومؤكدا لها ..

ومن الأمور ذات الدلالة في هذا المقام ، أن البخاري عند ما روى هذه السُّنّة العملية لم يضعها في « باب اللعب » ، وتحت عنوانه ومصطلحه وحده، وإنما رواها في « باب اللهو » وتحت عنوانه ومصطلحه أيضا ..

فلقد روى حديث أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها : « كان الحبش يلعبون بحرابهم ، فسترني رسول الله وأنا أنظر ، فما زلت أنظر حتى كنت أنصرف . فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن تسمع اللهو » (٧).

كما روى عن أبي هريرة - في « باب اللهو بالحراب » - قوله : « بينما الحبشة عند النبي - صلى الله عليه وسلم - بحرابهم ، دخل عمر فأهوى إلى الحصى فحصبهم بها ، فقال : دعهم ياعمر » ..

وغير هذه المأثورات الثلاث ، التي أكدت الإباحة بتخطئة اجتهادات المنع،

هناك الأحاديث الكثيرة التى تؤكد على الإباحة ، وتتحدث عن الفكر الشاهد لها وعليها ..

فعن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أنها زفت امرأة إلى رجل من الأنصار ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « يا عائشة ، ما كان معكم لهو ؟ ، فإن الأنصار يعجبهم اللهو » (٨)

وفى رواية ثانية لهذه الواقعة : أنكحت عائشة ذات قرابة لها رجلاً من الأنصار ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أهديتم الفتاة؟.. ألا بعثتم معها من يقول : أتيناكم أتيناكم ، فحيَّانا وحيَّاكم »(٩).

وفى حديث آخر ، عن السائب بن يزيد أن امرأة جاءت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : « ياعائشة ، أتعرفين هذه ؟ » قلت : لا ، يانبى الله . قال : « قينة بنى فلان ، تحبين أن تغنيك ؟ » ، فغنتها .. »(١٠).

أما الإمام أحمد ، فإنه يروى ـ فى مسنده ـ عن عبد الله بن عمير ـ أو عميرة ـ قال : « حدثنى زوج ابنة أبى لهب ، قال : دخل علينا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، حين تزوجت ابنة أبى لهب ، فقال : « هل من لهو؟»..

تلك هى بعض مأثورات السنة النبوية ـ وأغلبها وقائع « سُنّة عملية» ـ الشاهدة على إباحة هذه الفنون الجميلة ـ غناء ورقصا ، وتمثيلا ـ .. وهى المأثورات التى أقرت الإباحة وأكدتها فى مواجهة الاجتهاد فى المنع ، فخطأت هذا الاجتهاد ..

● أما وقائع وروايات السنة العملية ، التى تحدثت عن الغناء فى مجتمع الصدر الأول ، على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ دون أن يكون هناك جدل ولا اجتهاد يمنع منه ، فإنها كثيرة جدا فى كتب السيرة

والحديث.. ومنها على سبيل المثال لا الحصر :

عندما دخل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة ، مهاجرا ، فرح أهلها وكانوا ينتظرون مقدمه لعدة أيام ـ حتى ليروى البراء بن عازب فيقول : ما رأيت أهل المدينة فرحوا بشيء كفرحهم برسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصعدت ذوات الخدور على الأسطحة من قدومه يقلن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داعي
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

أما جوارى ـ (فتيات) ـ بني النجار ، فلقد خرجن إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ عندما بركت ناقته بباب أبي أيوب الأنصارى ـ من بني مالك بن النجار ـ خرجن يضربن بالدفوف ويغنين :

نحن جوار من بني النجار ياحبذا محمد من جار

فقال لهن ـ صلى الله عليه وسلم :

ـ « أتحببنى ؟ » .

ـ قلن : نعم ، يارسول الله .

ـ فقال : « الله أعلم أن قلبي يحبكم » .

وفي إحدى الروايات ، أن أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ وهو صاحب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، يوم الهجرة ـ همّ بزجر الجوارى عن هذا الغناء .. فقال له الرسول : « دعهم ياأبا بكر حتى تعلم اليهود أن ديننا فسيح » !؟ ..

فهو مَعْلَم ، إذن ، من معالم الفسحة والمرونة التي يستجيب بها الإسلام لحاجات النفس الإنسانية .. وسبيل من سبل الترويح التي تنفي عن النفس الوحشة وتبرؤها من عوامل الحزن والضيق .. ! ..

وعندما شرع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد أن استقر بالمدينة ـ في بناء المسجد ، كان يحمل ـ مع الصحابة ـ طوب اللَّبِن ، مشاركا في البناء.. وخلال العمل ، كان ينشد مترنما :

هذا الجمال لا جمال خيبر　　　هذا أبرز بنا وأطهر

ومن الصحابة من كان ـ أثناء ذلك ـ يغني أغاني العمل .. فيقول البعض منهم :

لئن قعدنا والنبي يعمل　　　ذلك إذن للعمل المضلل !

وكان آخرون يترنمون :

لا يستوي من يعمر المساجدا　　　يدأب فيها قائما وقاعدا

ومن يرى عن التراب حائدا(١١)

ولقد صنع ذلك الأشعريون ـ قوم أبي موسى الأشعري ـ عندما قدموا إلى المدينة .. فعن أنس بن مالك ، قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: « يقدم عليكم غدا أقوام هم أرق قلوبا بالإسلام منكم » ، قال: فقدم الأشعريون ـ فيهم أبو موسى الأشعري ـ فلما دنوا من المدينة جعلوا يرتجزون يقولون :

غدا نلقى الأحبة　　　محمدا وحزبه ! (١٢)

وحديث آخر يحكي كيف شهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ «ندب»

الجوارى ، على أنغام الدفوف ، تذكرة بالأبطال الشهداء فى وقائع الإسلام !..

فعن أبى حسين ، قال : كان يوم لأهل المدينة يلعبون ، فدخلت على الربيع بنت معوذ بن عفراء ، فقالت : دخل علىّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقعد على موضع فراشي هذا ، وعندى جاريتان تندبان آبائى الذين قتلوا يوم بدر ، تضربان بالدفوف ، فقالتا فيما تقولان :

وفينا نبى يعلم ما يكون فى غد

فقال ـ صلى الله عليه وسلم : « أما هذا فلا تقولاه ، لا يعلم ما فى غد إلا الله عز وجل » (١٢).

تلك بعض من مأثورات السنة النبوية ـ وأغلبها وقائع « سُنّة عملية » ـ الشاهدة على إباحة الغناء ، وما صاحبه من فنون مساعدة ..

● أما المأثورات التى منعت الغناء ونهت عنه وحذرت منه ومن سماعه ، فإنها تبلغ عشرين مأثورة ، ما بين حديث ، أو تفسير « للهو » فى الآية الكريمة : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) .. تفسير « اللهو » بأن المراد به الغناء ..

وأحد هذه الأحاديث مروى عن عائشة ـ التى أوردنا رواياتها للعديد من الأحاديث الشاهدة على حلّ الغناء ! ـ وفيه تقول : عن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « إن الله حرم المغنية ـ (وفى رواية : القينة) ـ وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها »(١٤).

ولقد تتبع الإمام ابن حزم الأندلسى (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ / ٩٩٤ ـ ١٠٦٤م) ـ وهو من هو ـ كظاهرى ـ فى الالتزام بالسنة ـ وهو من هو فى نقد الرجال والروايات ـ تتبع هذه المأثورات ، فعرض رواتها على ما

استقرت عليه قواعد الجرح والتعديل للرواة ، فخلص إلى أن هذه الأحاديث جميعها معلولة .. فقال : « وكل هذا لا يصح منه شيء ، وهي موضوعة » .. ولقد اتفق معه فى هذا النقد لهؤلاء الرواة كثيرون من المحدثين والحفاظ وعلماء الرجال .. من مثل الذهبى - صاحب (ميزان الاعتدال) وابن حجر العسقلانى - صاحب (لسان الميزان) - .. وكنموذج على هذا النقد لرواة هذه الأحاديث :

١ - حديث عائشة ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إن الله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها » .

فى رواة هذا الحديث « سعيد بن أبى رزين ، عن أخيه .. وكلاهما لا يدرى أحد من هما » .

٢ - حديث محمد بن الحنفية عن على بن أبى طالب ، عن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « إذا عملت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء».. ومنها - : « .. واتخذت القَيْنَات ، والمعازف .. » .

« جميع رواة هذا الحديث إلى يحيى بن سعيد لا يُدْرَى من هم . ويحيى بن سعيد لم يرو عن محمد بن الحنفية كلمة ولا أدركه » ! ..

٣ - حديث معاوية : « أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى عن تسع .. منهن الغناء .. » .

فى رواة هذا الحديث « كيسان ، ولا يدرى من هو ، ومحمد بن مهاجر ، وهو ضعيف » . وفيه النهى عن الشِّعر ، وهم يبيحونه .! ..

٤ - حديث سلام بن مسكين عن شيخ شهد ابن مسعود يقول : الغناء ينبت النفاق فى القلب .

فى رواة هذا الحديث شيخ لم يُسَمَّ ولا يعرفه أحد ! ..

٥ ـ حديث أبى أمامة : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: « لا يحل تعليم المغنيات ولا شراؤهن ولا بيعهن ولا اتخاذهن ، وثمنهن حرام ، وقد أنزل الله ذلك فى كتابه : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) ، والذى نفسى بيده ما رفع رجل عقيرته بالغناء إلا ارتدفه شيطانان يضربان بأرجلهما صدره وظهره حتى يسكت».

فى رواة هذا الحديث « إسماعيل بن عياش ، وهو ضعيف ، والقاسم ، وهو مثله « ضعيف!..

٦ ، ٧ ـ حديثى عبد الملك بن حبيب :

(أ) أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن المغنى أذنه بيد شيطان يرعشه حتى يسكت » ...

(ب) وأنه قال : « إن الله حرم تعليم المغنيات وشراءهن وبيعهن وأكل أثمانهن » .

وأحاديث عبد الملك كلها هالكة . ! ..

٨ ـ حديث البخارى .. « ليكونن من أمتى قوم يستحلون الحِرّ والحرير والخمر والمعازف » .

لم يورده البخارى مسندا ، وإنما قال فيه : قال هشام بن عمار ، ثم هو إلى أبى عامر ، أو إلى أبى مالك ، ولا يُدْرَى أبو عامر هذا .

٩ ـ حديث أنس ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « من جلس إلى قينة صُبّ فى أذنه الآنُك يوم القيامة » ..

أما هذا الحديث « فبلية ! لأنه عن مجهولين ، ولم يروه أحد قط عن مالك

من ثقاة أصحابه ، والثاني عن مكحول عن عائشة ، ولم يلقها قط ، ولا أدركها ، وفيه أيضا من لا يُعْرَف ، وهو هاشم بن ناصح وعمر بن موسى ، وهو أيضا منقطع ، والثالث عن أبي عبد الله الدوري ، ولا يُدْرَى مَنْ هو » !..

١٠ ـ حديث ابن شعبان .. عن ابن عباس في قول الله عز وجل : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) قال : الغناء .

وأحاديث ابن شعبان هالكة .

١١ ـ حديث ابن أبي شيبة .. عن أبي مالك الأشعري ، أنه سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ، تضرب على رؤوسهم المعازف والقينات ، يخسف الله بهم الأرض » ..

في رواة هذا الحديث « معاوية بن صالح ، وهو ضعيف ، ومالك بن أبي مريم ، ولا يُدْرَى من هو » ! ..

١٢ ـ حديث : إن الله تعالى نهى عن صوتين ملعونين ، صوت نائحة ، وصوت مغنية .

وهو حديث لا يُدْرَى من رواه .

١٣ ـ حديث عقبة بن عامر الجهني : « قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : كل شيء يلهو به الرجل فباطل إلا رمى الرجل بقوسه ، أو تأديبه فرسه ، أو ملاعبته امرأته ، فإنهن من الحق » ..

وفي رواة هذا الحديث عبد الله بن زيد بن الأزرق ، وهو مجهول ! .. وله طريقا آخر ، في رواته : خالد بن زيد ، وهو مجهول ! ..

١٤ ـ حديث : « كل شيء ليس من ذكر الله فهو لعب لا يكون أربعة :

ملاعبة الرجل امرأته ، وتأديب الرجل فرسه ، ومشي الرجل بين الغرضين، وتعليم الرجل السباحة » ..

وهذا الحديث « مغشوش مدلس دلسة سوء ، لأن الزهرى المذكور فى رواته ليس هو ابن شهاب ، لكنه رجل زهرى مجهول اسمه عبد الرحمن..»!.. وله طريق آخر ، فى رواته : عبد الوهاب بن بخت ، وهو غير مشهور بالعدالة .

ثم إن هذا الحديث ليس فيه تحريم .. فاللعب ـ كما فى هذه الرواية ـ و«السهو واللغو » ـ كما فى روايته الأخرى ـ غير التحريم !..

١٥ ـ حديث عائشة : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلوا عليه » .

فى رواة هذا الحديث : هاشم ، وعمر ، وهما مجهولان .. ومكحول لم يلق عائشة !..

١٦ ـ حديث عبد الله بن عمر : قال رجل : يارسول الله ، لى إبل أفأحدو فيها ؟ قال : نعم . قال : أفاغني فيها ؟ . قال : اعلم أن المغنى أذناه بيد شيطان يرغمه حتى يسكت » ..

فى رواة هذا الحديث عبد الملك ، وهو هالك ، والعمرى الصغير ، وهو ضعيف .

١٧ ـ حديث أبى هريرة : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «يمسخ قوم من أمتى فى آخر الزمان قردة وخنازير ، قالوا : يارسول الله ، يشهدون أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ؟ قال : نعم ، ويصلون ويصومون ويحجون ! قالوا : فما بالهم يارسول الله ؟ . قال : اتخذوا المعازف ،

والقينات ، والدفوف ، ويشربون هذه الأشربة ، فباتوا على لهوهم وشرابهم فأصبحوا قردة وخنازير » ..

هذا الحديث مروى عن رجل لم يُسَمَّ ولم يُدْرَ من هو ! ..

١٨ ـ حديث أبى أمامة : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « تبيت طائفة من أمتى على لهو ولعب ، وأكل وشرب ، فيصبحوا قردة وخنازير ، يكون فيها خسف وقذف ، ويبعث على حى من أحيائهم ريح فتنسفهم كما نسفت من كان قبلهم باستحلالهم الحرام ، ولبسهم الحرير ، وضربهم الدفوف ، واتخاذهم القيان » .

فى رواة هذا الحديث : الحارس بن نبهان ، وهو لا يكتب حديثه ، وفرقد السبخى ، وهو ضعيف ، وسليم بن سالم ، وحسان بن أبى سنان ، وعاصم بن عمر ، وهم غير معروفين .

١٩ ـ حديث أبى أمامة : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم : « إن الله بعثنى رحمة للعالمين ، وأمرنى بمحو المعازف ، والمزامير ، والأوثان ، والصلب ، لا يحل بيعهن ولا شراؤهن ولا تعليمهن ولا التجارة بهن ، وثمنهن حرام » ..

فى رواة هذا الحديث : القاسم ، وهو ضعيف ! ..

٢٠ ـ أما التفسير المنسوب إلى عدد من أئمة المفسرين للقرآن الكريم ، والقائل إن المراد باللهو فى الآية (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) هو الغناء ، فضلا عن ما فى هذا التفسير من تعارض مع الأحاديث النبوية الصحيحة التى جاء فيها الكلام عن الغناء المباح باسم اللهو ـ « ما كان معكم لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو » هل من لهو » .. فاقدروا قدر

الجارية الحديثة السن تسمع اللهو » .. « قد رخص لنا في اللهو عند العرس » - فإن ابن حزم يراه مجرد تفسير مفسرين ، وليس حديثا عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ولا ثبت عن أحد من أصحابه ، وإنما هو قول بعض المفسرين ممن لا يقوم بقوله حجة ، وما كان هكذا فلا يجوز القول به . ثم لو صح لما كان فيه متعلق ، لأن الله تعالى يقول : (ليضل عن سبيل الله) ، وكل شيء يقتني ليضل به عن سبيل الله ، فهو إثم وحرام ، ولو أنه شراء مصحف وتعليم قرآن » !..

هكذا أورد ابن حزم - وهو الخبير الحجة في نقد النصوص - كل ما يتعلق به دعاة تحريم الغناء من المرويات ، وأبرز عللها ، فأسقط حجيتها عندما أثبت افتقارها إلى شروط الثبوت ! .. ثم عقب على كل ذلك بقوله : «..ولا يصح في هذا الباب شيء أبدا ، وكل ما فيه فموضوع ،والله لو أسند جميعه أو واحد منه فأكثر من طريق الثقات إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لما ترددنا في الأخذ به .. فلا حجة في هذا كله لوجوه :

أحدهـا : أنه لا حجة لأحد دون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

والثاني: أنه قد خالف غيرهم من الصحابة والتابعين .

والثالث: أن نص الآية يبطل احتجاجهم بها ، لأن فيها : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) [١٥] وهذه صفة من فعلها كان كافرا بلا خلاف ، إذا اتخذ سبيل الله تعالى هزوا . ولو أن امرءا اشترى مصحفا ليضل به عن سبيل الله ويتخذها هزوا لكان كافرا . فهذا هو الذى ذم الله تعالى ، وما ذم قط ، عز وجل ، من اشترى لهو الحديث ليتلهى به ويروح نفسه ، لا ليضل عن سبيل

الله تعالى ، فبطل تعلقهم بقول كل من ذكرنا .

وكذلك من اشتغل عامدا عن الصلاة بقراءة القرآن ، أو بقراءة السنن ، أو بحديث يتحدث به ، أو بنظر فى ماله ، أو بغناء ، أو بغير ذلك فهو فاسق عاص لله تعالى . ومن لم يضع شيئا من الفرائض اشتغالا بما ذكرنا فهو محسن .

واحتجوا فقالوا : من الحق الغناء ؟ .. أم من غير الحق ؟ .. ولا سبيل إلى قسم ثالث ، فقالوا : وقد قال الله عز وجل : (فماذا بعد الحق إلا الضلال)(١٦)؟..

فجوابنا : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إنما الأعمال بالنيات ، ولكل امرئ ما نوى »(١٧) .. فمن نوى باستماع الغناء عونا على معصية الله تعالى فهو فاسق ، وكذلك كل شيء غير الغناء ، ومن نوى به ترويح نفسه ليقوى بذلك على طاعة الله عز وجل ، وينشط نفسه بذلك على البرّ ، فهو مطيع محسن ، وفعله هذا من الحق . ومن لم ينو طاعة ولا معصية ، فهو لغو معفو عنه ، كخروج الإنسان إلى بستانه متنزها ، وقعوده على باب داره متفرجا ، وصباغة ثوبه لازورديا أو أخضر أو غير ذلك ، ومد ساقه وقبضها ، وسائر أفعاله ، فبطل كل ما شغبوا به بطلانا متيقنا ، ولله تعالى الحمد ، وما نعلم لهم شبهة غير ما ذكرنا » .(١٨).

* * *

أما الإمام القرطبى (٦٧١ هـ/١٢٧٣م) ـ صاحب (الجامع لأحكام القرآن) ـ فإنه يفتح أمام العقل المسلم أبواب النظر فى تفسير آية (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا

أولئك لهم عذاب مهين) .. وذلك عندما يورد لنا أسباب نزولها ، فنرى فيها أن اللهو المذموم هنا ليس هو فن الغناء الحسن ـ المباح ـ ، ولا هو مطلق الغناء ـ كفن من الفنون الجميلة ـ وإنما هو في رأيه ـ : غناء المجون ، المثير والمهيج للغرائز الحيوانية الشهوانية .. أو : ذلك الغناء الموظف للصرف عن الإيمان بالإسلام ، والذي كان يصنعه واحد من رؤوس الشرك في مكة ـ وهو النضر بن الحارث بن علقمة (٢هـ/ ٦٢٤م) ـ وهو من شياطين قريش، وصاحب لواء المشركين يوم بدر ـ ذلك أنه قد اشترى كتب الأعاجم، واشترى القيان ، ليغري بأساطير الكتب ، وبغناء القيان الناس عن الدخول في الإسلام والاستماع إلى القرآن.. فهذا هو اللهو الموظف في الإضلال عن سبيل الله ، الذي تحدثت عنه الآية الكريمة .

بل وينبه القرطبي على أن أئمة الإسلام ـ كالحسن البصري (٢١ ـ ١١٠ هـ/ ٦٤٢ ـ ٧٢٨ م) ـ من يرى أن المراد باللهو هنا « هو الكفر والشرك » .. ومن ثم فلا علاقة لهذه الآية بمطلق الغناء ! ..

يحكي القرطبي ذلك ، عندما يفسر هذه الآية ، ويقول : إن ابن مسعود يرى أن المراد باللهو فيها هو : الغناء .. ثم يردف قائلا :

« .. وعن الحسن : هو الكفر والشرك ..

وتأوله قوم على : الأحاديث التي يتلهى بها أهل الباطل واللعب ..

وقيل : نزلت في النضر بن الحارث ، لأنه اشترى كتب الأعاجم ـ رستم[١٩] ، وأسفنديار [٢٠] ـ فكان يجلس بمكة ، فإذا قالت قريش : إن محمداً قال كذا ، ضحك منه ، وحدثهم بأحاديث ملوك الفرس ، ويقول : حديثي أحسن من حديث محمد ـ حكاه الفراء والكلبي وغيرهما ..

وقيل : كان ـ أي النضر بن الحارث ـ يشتري المغنيات ، فلا يظفر بأحد

يريد الإسلام إلا انطلق به إلى قينته فيقول : أطعميه وأسقيه وغنيه ، ويقول: هذا خير مما يدعوك إليه محمد من الصلاة والصيام . وأن تقاتل بين يديه!..

هذا القول والأول - (أى شراء النضر للمغنيات ، وشراؤه لكتب الأعاجم - ليلهى بها عن الإسلام ويضل بها عن سبيل الله) - ظاهر فى الشراء - (ومن الناس من يشترى) - ..

وقالت طائفة : الشراء فى هذه الآية مستعار ، وإنما نزلت الآية فى أحاديث قريش وتلهيهم بأمر الإسلام وخوضهم فى الباطل . قال ابن عطية : « فكأن ترك ما يجب فعله وامتثال المنكرات شراء لها .. » .

ثم يمضى القرطبى ليؤكد على أن تفسير اللهو هنا بالغناء لا يمكن أن ينصرف إلى مطلق الغناء ، وإنما هو خاص « بالغناء .. الذى يحرك النفوس ويبعثها على الهوى والغزل والمجون ، الذى يحرك الساكن ويبعث الكامن ، فهذا النوع إذا كان فى شعر يشبب فيه ، بذكر النساء ووصف محاسنهن وذكر الخمور والمحرمات ، لا يختلف فى تحريمه ، لأنه اللهو والغناء المذموم بالاتفاق . فأما ما سلم من ذلك فيجوز القليل منه فى أوقات الفرح ، كالعرس والعيد ، وعند التنشيط على الأعمال الشاقة .. وأما طبل الحرب فلا حرج فيه، لأنه يقيم النفوس ويرهب العدو .. والدف مباح .. وقيل : إن الطبل فى النكاح كالدف ، وكذلك الآلات المشهرة للنكاح يجوز استعمالها فيه بما يحسن من الكلام ولم يكن فيه رفث » [٣١].

ويدعم هذا الرأى - فى موقع آخر من تفسيره - عندما يعرض لآيات سورة الجمعة : (يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع . ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا

قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما ، قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين) (٢٢).

ففى هذه الآيات ورد الحديث عن « اللهو » باعتبار حكمه كحكم (التجارة) فى كل منهما الطيب والخبيث ، ولك منهما أوقاته التى يجب أن لا تتعارض مع أوقات فرائض الإسلام ..

فهذا « اللهو » ـ الذى تتحدث عنه هذه الآيات ـ كان غناء مصحوبا بأدواته ـ من المزامير والطبول ـ .. ولم تأت الآيات لتنه عنه فى ذاته ، وإنما لتعيب الانصراف عن خطبة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوم الجمعة، إلى هذا اللهو .. ولتعيب كذلك ، الانصراف عن الخطبة إلى تلقى قافلة التجارة القادمة إلى المدينة ، يقودها دحية بن خلفة الكلبى ..

نعلم ذلك من ملابسات وأسباب نزول هذه الآيات ، التى يوردها القرطبى عندما يقول : « .. كان يوم جمعة ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخطب ـ فدخل رجل فقال : إن دحية بن خليفة الكلبى قدم بتجارة ـ وكان دحية إذا قدم تلقاه أهله بالدفاف ـ .. وقال جابر بن عبد الله : كانت الجوارى إذا نكحن ـ (تزوجن) ـ يمررن بالمزامير والطبل ، فانفضوا ـ (أى المسلمين ـ من المسجد) ـ إليها ـ (أى إلى المزامير والطبول) ـ فنزلت « الآيات.!.»(٢٣)

فالمنهى عنه ليس اللهو وليس التجارة ، وإنما التلهى والانشغال بهما عن الصلاة ! ..

ويزيد من جلاء وتأكيد هذا المعنى ما أورده القرطبى ، أيضا ، من أن الذم لا يلحق بمطلق اللعب ، ولا بمطلق اللهو ، وإلا كان الذم لاحقا بمطلق

الحياة الدنيا والتي جاءت الإشارة إليها بأنها لعب ولهو ـ؟!.. ففي تفسيره قول الله سبحانه : (وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو وللدار الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون) (٢٤) يكشف القرطبي عن أن المراد ليس ذم مطلق الحياة الدنيا ، وما فيها من لعب ولهو ، وإنما المراد « والمقصد بالآية تكذيب الكفار في قولهم : « إن هي إلا حياتنا الدنيا » (٢٥)..

تلك هي رؤية الإمام القرطبي ـ ورواياته عن أئمة التفسير ـ في معنى «اللهو » الذي هو إضلال عن سبيل الله .. وفيها يقطع بأن الغناء الحسن ، الموظف لتنشيط النفس وإعانتها على العمل ، وللارتقاء بالعواطف وإحداث السرور والسعادة في مناسباتها ـ كلاما ولحنا وصوتا وأدوات ـ هو مما أباحه الإسلام .. وهي رؤية تدعم ما قاله ابن حزم في ذات الموضوع .

فالغناء ، إذن ، لا يعدو أن يكون بعضا من ألوان الجمال ، الذي خلقه الله. ومعيار الحلّ والحرمة فيه هو « وظيفته » التي يوظف فيها ، و«المقصد » الذي يقصده الناس من ورائه .. فإن أسهم في ترقية السلوك الإنساني ، والارتقاء بعواطف الناس ، وأعان على تذوق نعم الله في كونه، والكشف عن آيات الجمال في إبداعه ، كان خيرا .. وإلا فهو منكر بلا خلاف .

تلك هي شهادة ابن حزم .. والقرطبي .. في هذه القضية « الخلافية ».. وتلك هي قصة المنهج الإسلامي مع « شبهة » الخصام بينه وبين فن الغناء والسماع .. وهي قصة تؤكد اتساق موقف هذا المنهج ، الساعي إلى تنمية الحواس الجمالية في الإنسان ، ليدوم سعيه على درب الاكتشاف لما أودع الله في هذا الكون من آيات الزينة والجمال .

* * *

وأدوات الموسيقى

أما آلات العزف - الموسيقى - فإن الأحاديث التى وردت فى منعها أو تحريمها ، هى الأخرى معلولة ، بمقاييس « علم الجرح والتعديل » .. وكنماذج لهذه الحقيقة :

● حديث عائشة عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أمرنى ربى عز وجل بنفى الطنبور والمزمار » .. رواه إبراهيم بين اليسع بن الأشعث المكى .. والنسائى يقول عنه : إنه « ضعيف » .. أما البخارى فإنه يقول : إنه « منكر الحديث » .

● وحديث على بن أبى طالب : « نهى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ضرب الدف ولعب الصنج وصوت الزمارة » ..

وفى رواته : عبد الله بن ميمون ، عن مطر بن سالم .. والأول « ذاهب الحديث » .. والثانى « شبه مجهول » ..

● وحديث ابن عباس عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : «صوتان ملعونان فى الدنيا والآخرة : صوت مزمار عند نعمة ، وصوت ندبة - (أو رنة) - عند مصيبة »..

وفى رواته : محمد بن زياد الصحان اليشكرى ، الذى يقول فيه أحمد بن حنبل : « أعور كذاب خبيث يضع الحديث » !..

● وحديث على بن أبى طالب ، عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « بعثنى ربى عز وجل بمحق المزامير والمعازف ، والأوثان التى كانت

تُعْبَد فى الجاهلية ، والخمر ، وأقسم ربى عز وجل بعزته ألا يشربها عبد فى الدنيا » .

ورواة هذا الحديث : محمد بن الفرات ، عن أبى إسحاق السبيعى ، عن الحارث الأعور .. وجميعهم مجرحون .. فالأول منهم يقول عنه أبو بكر بن أبى شيبة : إنه « شيخ كذاب » .. والثالث قال فيه البخارى : إنه « منكر الحديث » .. وقال عنه يحيى بن معين : « ليس بشىء ، ولا يكتب حديثه » .

ولقد قال الإمام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر (٤٤٨ ـ ٥٠٧ هـ/ ١٠٥٦ ـ ١١١٣ م) فى هذه الأحاديث وأمثالها : « هذه الأحاديث وأمثالها احتج بها من أنكر السماع ، جهلا منهم بصناعة علم الحديث ومعرفته ، فترى الواحد منهم إذا رأى حديثا مكتوبا فى كتاب جعله لنفسه مذهبا ، واحتج به على مخالفه ، وهذا غلط عظيم ، بل جهل جسيم » ![٢٦].

أما الذين حاولوا تخريج دلالات الأحاديث الصحيحة ، التى جاءت فى إباحة السماع ، حتى لا تشهد لإباحة الاستماع ، وإن شهدت لإباحة السماع؟! ـ ومنهم الإمام ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ/ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨م) الذى فسرّ حضور النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مجلس غناء الجاريتين فى بيت عائشة ، وإنكاره على أبى بكر منعهما من الغناء .. فسر ابن تيمية موقف الرسول بأنه كان « يسمع » ولا « يستمع » ؟ ![٢٧].. فلأن محاولته هذه هى نموذج للتخريجات البادية التمحل والتكلف ، والتى لا يمكن لمثلها أن توهن من حجج الذين يبيحون الاستماع والسماع كليهما ! ..

ففى حديث عائشة ـ رضى الله عنها ، الذى تقول فيه : إنها زفت امرأة من الأنصار ، فقال لها النبى ـ صلى الله عليه وسلم : « ياعائشة ، ما كان

معكم من لهو ؟ فإن الأنصار يعجبهم اللهو ؟ .. »[٢٨].

في هذا الحديث نرى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشير باللهو ، ويوجه الأنظار إليه ، باعتباره الصواب والطبيعي والمطلوب في هذا المقام؟!..

أما حديث عامر بن سعد ، فإنه قاطع في أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد رخص لصحابته في « اللهو عند العرس » .. يقول عامر بن سعد: دخلت على قرظة بن كعب ، وأبي مسعود الأنصاري ، في عرس ، وإذا جوار يغنين ، فقلت : أنتما صاحبا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن أهل بدر ، يفعل هذا عندكم !.. فقالا : اجلس إن شئت فاسمع معنا ، وإن شئت اذهب ! « فقد رخص لنا في اللهو عند العرس »[٢٩].

فهو توجيه .. ورخصة .. تجعل الإباحة حكم الطيب الحسن منه .. وليس مجرد « عارض » يسمعه الإنسان ، دون أن تكون له إرادة ونية طلب الاستماع إليه ! ..

وإذا كان « اللهو » ـ كما مر في حديث جابر بن عبد الله ـ شاملا لأدوات الغناء مع الغناء ـ من مثل المزامير والطبول والدفوف ـ وما ماثلها في وظيفتها يقاس عليها ـ فإنها ـ ولاشك ـ داخلة هي الأخرى في معناه ..

ولذلك ، فلقد أصاب ابن حزم عندما قال بإباحة الآلات والمعارف ، انطلاقا من هذه الأحاديث التي صحت ، واستنادا إلى « العلة » التي رآها قادحة في ثبوت حديث تحريم المعازف .. واستشهادا بكونها مالا حلالا في نظر الإمام أبي حنيفة (٨٠ ـ ١٥٠ هـ / ٦٩٩ ـ ٧٦٧ م) الذي قال : «من سرق مزمارا أو عودا قطعت يده ، ومن كسرهما ضمنهما »[٣٠].. إذ لو كانت محرمة ، لكانت هدرا ، كالخمر ، وأدوات الميسر ، وغيرها من المحرمات.. ولما

لم تكن كذلك ، فإنها مال حلال ، له حرمته ، من سرقه يقطع، ومن أتلفه يضمن .. إذ الأصل فى الأشياء هو الحِلّ ، ما لم يرد نص بالتحريم .

أما الإمام الغزالى - والذى عرض للسماع ، غناء وموسيقى ، بدراسة مسهبة - فإنه يجمل الموقف الإسلامى المنحاز إلى الاستمتاع الحلال بالجماليات الحلال ، غناء وموسيقى ، عندما يرى ذلك فطرة إنسانية يزكيها الإسلام ، الذى ينكر التجهم والخصام مع جماليات الحياة .. فيقول: «.. ومن لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج ! .. ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال ، بعيد عن الروحانية ، زائد فى غلظ الطبع وكثافته على الجِمَال والطيور ، بل على جميع البهائم ! ، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة..»(٣١).

هذا عن منهج الإسلام وموقفه من جماليات السَّماع ..

* * *

الهوامش

(١) لقمان : ٦ .

(٢) بعاث حصن للأوس ، ويوم بعاث وقعة من وقائع الجاهلية كانت بين الأوس والخزرج انتصر فيها الأوس .

(٣) رواه البخارى ومسلم وابن ماجة ـ (وتحويل الرسول وجهه ، هو عن رؤية المغنيات، وليس عن السماع ، فأداته الاذن !) .

(٤) الدرقة : الترس من جلود ، ليس فيه خشب ولا عقب .

(٥) أى أعطاهم الأمان ، ضد زجر عمر بن الخطاب لهم .. و « دونكم بنى أرفدة » إغراء وتشجيع على مواصلة اللعب ، أى عليكم باللعب الذى أنتم فيه .. و « أرفدة » - لقب الحبشة ، سموا به لأن أرفدة كان أشهر أجدادهم .

(٦) أخرج هذه الرواية الإمام أحمد عن أنس بن مالك .

(٧) رواه النسائى .

(٨) رواه البخارى .

(٩) رواه النسائى .

(١٠) رواه النسائى .

(١١) انظر ذلك فى (الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى) جـ ٤ ص ١٧٨ ـ ١٨٣ . طبعة بيروت ، سنة ١٩٧٧ م . والغزالى (إحياء علوم الدين) ص ١١٢٠ طبعة دار الشعب، القاهرة .

(١٢) رواه الإمام أحمد .

(١٣) رواه الإمام أحمد . وانظر : النويرى (نهاية الارب) جـ ٤ ص ١٤١. طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة .

(١٤) رواه الترمذى ، ورواه الطبرانى فى الأوسط بإسناد ضعيف . وقال البيهقى : ليس بمحفوظ .

(١٥) لقمان : ٦ . (١٦) يونس : ٣٢ .

(١٧) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة .

(١٨) انظر تفصيل ذلك ـ لابن حزم ـ فى : (رسالة فى الغناء الملهى ، مباح هو ؟ أو محظور؟) ، وفى (المحلى) ـ المسألة رقم ١٥٦٥ ـ وجميعها فى ملحق هذا الكتاب ـ ويشهد لذلك أيضا عبارة البخارى التى عنون بها أحد أبواب كتاب الاستئذان ، وهى : « باب : كل لهو باطل إذا شغله عن طاعة الله .. » .. وهى تعنى أن اللهو الذى لا يشغل عن طاعة الله ، ليس مباحا فقط ، وإنما هو غير باطل ، أى مفيد ! ..

(١٩) هو رستم دستان ـ من أبطال الفرس الأسطوريين . قالوا : إنه عاش حوالى سنة ٣٠٠ ق . م . وتنسب إليه خوارق كثيرة وعجيبة . ولقد تغنى الشاعر الفارسى الفردوسى بمغامراته فى « الشاهنامة » وبمغامراته يزين الفنانون الفرس صفحات المخطوطات .

(٢٠) اسفنديار : بطل اسطورى فارسى ، من أبناء ملوكهم ، وإليه تنسب بطولات وفتوحات ضد الترك وغيرهم من الشعوب .

(٢١) (الجامع لأحكام القرآن) جـ ١٤ ص ٥٢ ـ ٥٤ . طبعة دار الكتب المصرية ـ والرفث: هو قول الفحش ـ .

(٢٢) الجمعة : ٩ ـ ١١ .

(٢٣) (الجامع لأحكام القرآن) جـ ١٨ ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢٤) الأنعام : ٣٢ .

(٢٥) (الجامع لأحكام القرآن) جـ ٦ ص ٤١٤ .

(٢٦) انظر النويرى (نهاية الأرب) ، جـ ٤ ص ١٤٧ ـ ١٦٠ .

(٢٧) ابن تيمية (مجموعة الرسائل الكبرى) جـ ٢ ص ٣٠٢ طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠هـ.

(٢٨) رواه البخارى .

(٢٩) رواه النسائى .

(٣٠) (رسالة فى الغناء الملهى ، أمباح أم محظور) - رسائل بن حزم - جـ ١ ص ٤٣٩ .

(٣١) (احياء علوم الدين) ص ١١٣١ ، ١١٣٢ .

* * *

الفصل الثالث

إذن .. فيما الخلاف ؟!!!

لكن ..

إذا كان هذا هو مبلغ الوضوح والحسم ، فيما يتعلق بمنهاج الإسلام في جماليات السماع ، يزكي ما هو طيب ونافع منها ، وينهي عن الخبيث ـ كموقفه من كل المباحات ـ فقيم ، إذن ، ولماذا هذا الخلاف المستعرة ناره بين قوم من الاسلاميين حول الغناء ؟.. ولم هذه الكتب والرسائل التي ذهبت ـ في القرون الأخيرة وفي زمننا الحاضر ـ إلي تحريم « السماع » ؟!.. وإلي أي شيء يستند هؤلاء الذين يحرمون الغناء وألحانه ، والموسيقي وأدواتها ، إذا كان علماء « الرجال » وأساطين « الرواية » للأحاديث النبوية قد قطعوا، بلسان ابن حزم وغيره ـ بأن مرويات التحريم « لم يصح منها شيء ، وهي موضوعة » ؟!..

لماذا هذا الخلاف ـ رغم هذا الحسم والوضوح ؟ ـ .. وإلي أي شيء استند ويستند المخالفون ؟؟..

إننا ، ونحن نجيب علي هذا التساؤل ، ونحاول تجلية حقيقة هذا الخلاف، الذي يشغل مساحة كبيرة من اهتمامات قطاع من قطاعات الحركات الإسلامية المعاصرة ، سنجد أننا بإزاء لونين من الخلاف والمخالفين:

● فهناك المقلدون من عامة كُتّاب « ـ ولا نقول «فقهاء » ـ عصر التراجع لحضارة الإسلام ، أولئك الذين عاشوا وكتبوا في ظل سيادة « النصوصية ـ الحرفية ـ الجامدة » وهيمنة « التقليد » وضمور ملكة « الاجتهاد » .

وفي عصر التراجع هذا ، كان الغناء ، كفن من الفنون الراقية والجميلة ، قد تراجع ، بل انحط ، هو الآخر ، فصار أقرب إلي الفسوق والمجون منه إلي الفن الجميل ، وغدت الموسيقي وأدواتها ومجالسها قرينة بتعاطي الخمر ، ومقدمة لتهييج الغرائز الحيوانية والشهوانية لدى الإنسان .. وهنا ، وأمام هذا الواقع الجديد والطارئ علي الحياة الإسلامية وحضارتها ، كان الاتجاه الذي قال بتحريم السماع .. وكان الاستناد في هذا التحريم إلي الاحاديث الضعيفة التي رويت في التحريم .. لقد كان الغناء فسقًا وفجورًا ، وكان الذين يتصدون للكتابة فيه غير خبراء بنقد المرويات والتمييز بين الروايات ما ستندوا في التحريم ـ وهو صحيح في حق هذا اللون من «الغناء» ـ إلي الموضوع والمعلول من المرويات .. وهؤلاء هم الذين يقول فيهم الامام الحافظ أبو الفضل محمد بن طاهر : « لإن هذه الأحاديث وأمثالها احتج بها من أنكر السماع ، جهلاً منهم بصناعة علم الحديث ومعرفته ، فتري الواحد منهم إذا رأى حديثًا مكتوبًا في كتاب جعله لنفسه مذهبًا ، واحتج به علي مخالفه ، وهذا غلط عظيم ، بل جهل جسيم ! »(١).

هكذا أصبح « الغلط العظيم ، والجهل الجسيم » سببًا في شيوع الاستدلال بهذه المرويات الموضوعة علي تحريم « الغناء » ـ عندما انقطع وجه الشبه بين هذا « الغناء » وبين الفن الجميل ـ .. ثم جاء الناظرون في هذه الكتب ـ ممن « يقدسون » آراء الأقدمين ، ويتحرجون من إعمال العقل فيما

كتبه الموتي ، وخاصة إذا كانت هذه الكتابات محبذة للمنع والتشدد والتحريم ! ـ فعمموا هذا التحريم علي كل أنواع الغناء دونما تمييز بين ما هو هابط منه وماجن وضار بتكوين الشخصية السوية للإنسان المسلم ، والمشاعر لهذا الإنسان ؟..

هذا لون من الخلاف والمخالفين في هذا الموضوع .

● أما اللون الثاني ،فهو ذلك الذي قصد به أصحابه شيئًا ، وظن القارئون لهم به شيئًا آخر ؟! .. وتلك قضية من أعجب قضايا هذا الموضوع!!..

لقد دخلت الحضارة الإسلامية ، بسقوط بغداد تحت سنابك خيل الاجتياح التترى (٦٥٦ هـ ـ ١٢٥٨م) مرحلة « الدفاع عن الذات » ، تلك الذات التي تعرضت منذ ذلك التاريخ إلي خطر يهدد « الوجود » .. حتى «الوجود » .. ومجرد « الوجود » ؟!..

فمن قبل هذا الحدث الجلل .. ومذ عسكرة الدولة والمجتمع ، بتمام السيطرة للعسكر المماليك ، الغرباء عن روح الحضارة الإسلامية ، وتحويلهم خلافة الإسلام إلي لعبة بيد قادة الجند ـ وهو الطور الذي بدأ باغتيالهم للخليفة المتوكل العباسي (٢٠٦ ـ ٢٤٧ هـ ـ ٨٢١ ـ ٨٦١ م) ـ منذ ذلك التاريخ ، كانت الحضارة الإسلامية تواجه مخاطر « النصوصية الجامدة » ، وذبول ملكة الابداع والاجتهاد والتجديد ، وسيادة الجمود .. وفي هذا المناخ ـ وشيئًا فشيئًا ـ وبالتدريج البطيء ـ أخذت العقلانية الإسلامية تتواري ، وأخذ إبداعها ـ في مختلف الميادين ـ يذبل ، بينما تزايد التقليد في علوم الشريعة ، وضعفت الاضافات في علوم الكون والوجود ،

وأصبح الازدهار والشيوع من نصيب الفكر « الغنوصي والباطني » ، بما يحمل من شيوع للبدع والخوارق والخرافات ، والذين يقارنون بين الكتب التي ترصد طبقات الأعلام ، في علوم الوجود ـ الفلك ، والرياضة، والكيمياء، والحساب ، والجيولوجيا ، والميكانيكا .. الخ .. ـ وكذلك طبقات المجتهدين في علوم الوحي ـ الكلام ، والفقه ، وأصوله ، والقرآن ، وعلومه ، والسنة ، وعلومها ـ الذين يقارنون طبقات العلماء في هذه الميادين ، خلال هذه المرحلة ، التي تعسكرت فيها الدولة والمجتمع ، بكتب الطبقات التي ترصد أعلام « التصوف الباطني ـ الغنوصي » ، وتعدد خوارق و « أعمال » و « إنجازات » أقطاب « الطرق الصوفية » ، سيجدون ـ دون كبير عناء ـ الخط البياني « الصاعد » لـ « فكر » الغنوصية الباطنية ، ذي الجذور الفارسية القديمة ، والطابع الأفلاطوني المحدث ، والمحمل بأساطير الاسرائيليات ؟!..

لقد دخلت الحضارة الإسلامية هذا المنعطف منذ عسكرة الدولة والمجتمع ، عندما تراجعت العقلانية الإسلامية ، الجامعة ـ بالوسطية ـ بين « النقل » و « العقل » فكانت السيادة « للنصوصية » المخاصمة « للعقل » ، ولنقضيها : « الباطنية ـ الغنوصية » المخاصمة « للعقل » و « النقل » معًا!..

هنا .. ومنذ ذلك التاريخ ، برز لدي دعاة التجديد وأعلام الاجتهاد ـ الذين قل عددهم ، لكن لم تنقطع سلسلتهم ـ .. برز فكر « الدفاع » عن الذاتية المتميزة لحضارة الإسلام ، وبرز التركيز في فكر هؤلاء المجتهدين علي الرفض القاطع ـ وأحيانًا المغالي ـ لكل ما يمت بصلة إلي فكر الباطنية الغنوصية بأي سبب من الأسباب !..

فلما كان الزلزال الذي تمثل في الاجتياح التتري، الذي دمر بغداد - بما كانت ترمز إليه من دولة الإسلام وخلافته وحضارته - ثم تقدمت جحافله مهددة « وجود » الأمة كلها، والحضارة جميعها، والوطن بأسره .. نظر المجددون المسلمون وأعلام الاجتهاد، فرأوا أن هذه الهجمة التترية إنما جاءت إلي عالم الإسلام كثمرة لحلف « صليبي - تترى »، عقدته البابوية في أوروبا مع الدولة التترية، فتحولت به هذه الهجمة إلي بلاد المسلمين، بعد أن كانت وجهتها الأصلية أوروبا » ؟! (٢) .. ورأوا، كذلك، أن نجاح هذه الهجمة في دمار بغداد إنما ساعدت عليه « خيانة - باطنية » من داخل بغداد ذاتها؟!..

وهنا، ومنذ هذا « الحدث - الزلزال »، زادت « النبرة الدفاعية » في كتابات المجتهدين المسلمين، وكثرت العناية بسمات التمايز الحضارى الإسلامي، وتقدمت أسباب « المفاصلة » و « المخالفة » علي أسباب «الاشتراك » بين الحضارات .. فالعصر عصر تراجع حضارى، والمقاومة في « الذات الحضارية » قد ضعفت، والخطر « الغنوصي - الباطنى » أصبح « ثغرة » في البناء الداخلي لحضارتنا يمهد السبل لذوبانها في « الآخر »، منتهزًا فرصة ضعف مناعتها بتراجع التجديد والابداع والاجتهاد. ! ..

في هذا المناخ، وفي ظل هذه المخاطر، قام التحالف بين «الفقهاء» المدافعين عن « الحضارة »، وبين « الأمراء والسلاطين » المدافعين عن «الوجود والأرض »، ضد « الغنوصية - الباطنية »، التي تميع فواصل الحضارات وحدودها، وضد الغزاة، تترًا كانوا أم صليبيين.

وفي ظل هذه الحقيقة نفهم كيف كان ابن تيميه (٦٦١ - ٧٢٨ هـ - ١٢٦٣

ـ ١٣٢٨ م) ـ صاحب المنهج الذي يرى أن : (اقتضاء الصراط المستقيم هو مخالفة أهل الجحيم) ، والباحث عن كل مميزات الحضارة الإسلامية ، ليبرزها ، ويؤكدها ، ويشدد عليها .. كيف كان ابن تيميه هو النموذج الرائع للاجتهاد والتجديد في ذلك العصر .. كما كان نموذج « المجتهد ـ المجاهد » أيضًا ، فهو المقاتل بالقلم وبالسيف دون « الحضارة » و « الوجود والوطن» جميعًا ! ..

كما نفهم ، أيضًا ، كيف كان ابن عربى (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ ـ ١١٦٥ ـ ١٢٤٠ م) الذى جعلت « الغنوصية ـ الباطنية » من مذهبه في « الحب » سبيلاً إلي خلط « الأوراق الحضارية » ، وتمييع المواقف الفكرية ، وإزالة الفروق المذهبية ـ وهي أمور إن صلحت في فترات « الصحة الحضارية » ، فإنها الكارثة فى حقب « الضعف الحضارى » ؟! ..نفهم كيف كان ابن عربى ـ بصرف النظر عن الصواب المجرد والخطأ المجرد فى فكره ـ ثغرة فى جدار المقاومة الإسلامية المدافعة عن « الذات الحضارية » المهددة فى « ثقافتها » ، بل وفى « وجودها » ! ..

فبقدر ما دافع ابن تيميه عن نقاء عقيدة التوحيد الإسلامية ، وتميزها عن تصورات الآخرين لها .. كان تمييع ابن عربى لهذا التمايز فى هذه القضية الجوهرية والمحورية .. فعنده :

عقد الخلائق فى الإله عقائدا   وأنا اعتقدت جميع ما عقدوه ؟!

وبقدر ما كان ابن تيميه المنافح عن التمايز الحضارى الإسلامى فى مواجهة « الآخر » المهدد للهوية الحضارية الإسلامية .. ينبه على ارتباط

منطق أرسطو باللغة اليونانية وبالالهيات الوثنية اليونانية ، ويدعو لمنطق إسلامى ، مرتبط بالتوحيد الإسلامى ، وبالعربية ، لسان الإسلام .. ويجتهد للموازنة بين العقل والنقل ، نافيا الخصام بين صريح المعقول وصحيح المنقول ، فى مواجهة الغنوصية الباطنية ، والعقلانية اليونانية معًا.. بقدر ما كان ابن تيمية فارس الإسلام فى هذا الميدان ، كان ابن عربى داعية « خلط الأوراق » فى هذاه القضايا .. فابن تيمية يرى أن (اقتضاء الصراط المستقيم : مخالفة أهل الجحيم) ـ وهذا هو عنوان كتاب من كتبه ـ أما ابن عربى ، فإنه يلخص مذهبه فى هذا الميدان عندما يقول :

قد كنت قبل اليوم أنكر صاحبى ... إذا لم يكن دينى إلى دينه دانى
وقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائف ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنَّى توجهت ... ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى !

ومن هنا .. وفى ظل هذه الملابسات الحضارية ، وعندما نستحضر مكونات ذلك المشهد من مشاهد الصراع الحضارى ، الذى خاضته أمتنا فى ذلك التاريخ ، نستطيع أن نفهم تكفير ابن تيمية لابن عربى .. وعداء ابن تيمية لكل ما له علاقة «بالغنوصية الباطنية » . ونستطيع أن نفهم تحريمه للبدع التى أضافها الباطنيون إلى « الدين » و « شعائره » و « عباداته » التى يجب فيها « الاتباع » ، ولا يجوز فيها « الابتداع » .. ومن هذه البدع «السماع الصوفى » ، الذى جعلوه « عبادة » يتقربون بها إلى الله ـ ولم يقفوا به عند حدود « الغناء » كفن من الفنون ـ بل وقدموه على العبادات والشعائر المفروضة والمسنونة ، بل وفضلوه على القرآن الكريم ! ..

هنا .. نجد أنفسنا أمام تحريم لون من « السماع » ، لا لأنه فن من الفنون ، وإنما لأن أصحابه ـ من « الباطنية الغنوصية » ـ قد « ابتدعوا » في الدين عندما انتقلوا به من ميدان « الفن » إلى ميدان « العبادة الدينية » ، التي يتقربون بها إلى الله ، بل والتي يحلونها محل « العبادات والشعائر » التي جاء بتحديدها . القرآن الكريم وسنة الرسول ، عليه الصلاة والسلام ! ..

ونحن عندما نطالع نصوص ابن تيمية في قضية « السماع » ، سنجد تحريمه خاصاً بهذا اللون من « سماع الصوفية ـ الباطنية » ، وبالتحديد ذلك الذي جعلوه « عبادة » و « شعيرة » من شعائر الدين » ، وليس كفن من الفنون التي يتخذ منها الإنسان سبيلاً للترويح عن النفس ، وعوناً على تجديد نشاط الجسم وحيوية القلب ، وأداة لتهذيب العواطف والارتقاء بالمشاعر والملكات ..

لكن المقلدين ، من أبناء عصرنا ، قد صنعوا ـ ويصنعون ـ مع نصوص ابن تيمية ما يصنعه التقليد مع النصوص ـ كل النصوص ـ .. عندما يقطع الأسباب التي تربطها بملابساتها ، ثم يصرفها عن خصوص ما قيلت فيه ، فيخلط ـ بهذا التعميم ـ بين التراث ، الذي هو فكر بشري ، قام ليعالج مشكلات بعينها ، وقد يكون منها « المتغيرات » التي يتجاوزها الزمان ، وبين كليات نصوص الوحي والسنة التشريعية التي يكون الأمر فيها والعبرة منها بعموم اللفظ لا بخصوص أسباب النزول ..

من هنا .. أتى ويأتي اللون الثاني من ألوان الخلاف والاختلاف في الموقف من جماليات السماع ..

تلك هي حقيقة موقف الاجتهاد والمجتهدين ، في تاريخنا الحضاري ، من

قضية جماليات السماع ـ فليس هناك فقيه مجتهد ، من فقهاء الإسلام ، قد حرم الغناء كفن من الفنون الجميلة ، وإنما كان التحريم أو الكراهة للغناء الذى انحط عن مرتبة الفن الجميل إلى درك الفسق والعهر والمجون .. أو لذلك اللون من السماع الذى لم يقدمه أصحابه أو يمارسوه على أنه من «المباحات» ، وإنما جعلوه منه « عبادة » من العبادات الدينية ، و « شعيرة » من الشعائر الإسلامية ، و « قربة » يتقربون بها إلى الله ، بل وقدموه ـ لهذه الصفة ـ على العبادات المفروضة والمسنونة بنصوص البلاغ القرآنى والبيان النبوى ـ والتى لا يجوز فيها الابتداع ـ .. فهذا اللون من « سماع الصوفية ـ الباطنية » هو الذى حرمه عدد من الفقهاء ، لا لأنه غناء ، وإنما كبدعة فى الدين .. وشددوا عليه وعلى المبتدعين له النكير عندما كانت « الغنوصية ـ الباطنية » والبدع التى ابتدعتها فى الدين ، الخطر المحدق بهويتنا الحضارية الإسلامية ، طوال عصر التراجع الحضارى ، الذى بدأ بعسكرة الدولة والمجتمع ، والذى اشتدت مخاطره بعد الزلزال الذى أصاب عقل الأمة ووجدانها وكيانها وهدد وجودها بالاجتياح التترى الذى جاء ثمرة لتحالف الصليبية الكاثوليكية الأوروبية مع البربرية التترية ، والذى أعانت على نجاحه مؤامرات النساطرة فى البلاط التترى ، وخيانات « الباطنية » فى بغداد !..

تلك هى ملابسات القضية .. أما الشواهد على صدقها ، من مواقف الفقهاء ونصوصهم .. فإنها كثيرة ـ لا يستوعبها هذا المقام ـ .. ولذلك ، فإننا نسوق منها عددًا يمثل معالم طريق هؤلاء الفقهاء المجتهدين ، عبر تاريخ الاجتهاد الإسلامى فى هذا الموضوع ..

● لقد سبقت إشارتنا ـ ونحن نتحدث عن منهج الإسلام وموقفه من جماليات السماع ـ إلى مأثورات عهد النبوة وتطبيقاته فى هذا الميدان .. وإلى طرف من مأثورات العهد الراشد وتطبيقاته أيضًا .. تلك المأثورات والتطبيقات التى قررت أن الغناء ـ كفن ـ : حسنهُ حسن ، مباح ومقبول ، وقبيحهُ قبيح ، مستنكر ومرفوض .. تقرر ذلك ، وتعلمه المسلمون الأوائل فى مدرسة النبوة ، على يدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ..

وها هو الخليفة الراشد عمر بن الخطاب ، يطبق هذا النهج فى خلافته ، عندما يميز بين « غناء المجون » فيحاربه ، وبين « الغناء الحسن » فيبيحه ، بل ويدعو إليه .. ونحن نقرأ فى كتاب (الاعتصام) للإمام الشاطبى (٧٩٠ هـ ـ ١٣٨٨ م) « عن الحسن ، أن قومًا أتوا عمر بن الخطاب ، رضى الله عنه ، فقالوا :

ـ يا أمير المؤمنين ! .. إن لنا إمامًا إذا فرغ من صلاته تَغَنَّى ؟!..

ـ فقال عمر : من هو ؟!..

ـ فذُكر رجل ..

ـ فقال عمر : قوموا بنا إليه ، فإنا إن وجهنا إليه يظن أنا تجسسنا عليه أمره!..

ـ قال : فقام عمر ، مع جماعة من أصحاب النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أتوا الرجل ، وهو فى المسجد ، فلما أن نظر إلى عمر قام فاستقبله ، فقال :

ـ يا أمير المؤمنين ، ما حاجتك؟ وما جاء بك ؟ إن كانت الحاجة لنا كنا أحق بذلك منك أن نأتيك ، وإن كانت الحاجة لك فأحق من عظّمناه خليفة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ..

ـ قال عمر : ويحك ! بلغني عنك أمر ساءني ..

ـ قال : وما هو ، يا أمير المؤمنين ؟! ..

ـ قال : أتتَمَجَّن في عبادتك ؟ ! ..

ـ قال : لا ، يا أمير المؤمنين ، لكنها عظة أعظ بها نفسي ! ..

ـ قال عمر : قلها ، فإن كان كلامك حسنًا قلته معك ، وإن كان قبيحًا نهيتك عنه .

ـ فقال الرجل :

وفــــؤاد كـلمـا عـاتبتــــه	في مدى الهجران يبغي تعبي
لا أراه الدهر إلا لاهيا	في تماديه ، فقد برح بي
يا قرين السوء ما هذا الصبا	فتى العمرُ كذا في اللعب
وشباب بان عني فمَضَى	قبل أن أقضيَ منه أربي
ما أُرجِّي بعده إلا الفنا	ضَيَّقَ الشيبُ علىَّ مَطْلَبي
وَيْحَ نفسي ! لا أراها أبدًا	في جميل ولا في أدب
نفسُ لا كُنْتِ ولا كان الهوى	راقبي المولى وخافي وارهبي !

ـ قال : فقال عمر ، رضي الله تعالى عنه :

نفسُ لا كُنْتِ ولا كان الهوى	راقبي المولى وخافي وارهبي

ثم قال عمر : « على هذا فَلْيُغَنِّ من غَنَّى .. » ؟ (٢) .

هنا نقرأ نص عبارة عمر بن الخطاب ـ المعبرة عن منهج الإسلام في الغناء ـ والتي يقول فيها لهذا الإمام الذي يغني عقب الفراغ من أداء فرائض ربه : «إن كان كلامًا حسنا قلتُه معك ، وإن كان قبيحًا نهيتُك عنه».. فلما سمع الكلام والغناء ردد بعضه ، وأباح للناس مثله ، قائلاً « على هذا فَلْيُغَنِّ من غَنَّى » ! ..

بل إننا نطالع فى نهج عمر وتطبيقاته ما نتعلم منه أن « الجمال » إذا وُظّف فى غير إطاره خرج عن الغاية منه ، ومن ثم عن حكمه الأصلى ـ وهو الإباحة والاستحباب ـ ولقد مرت بنا أطراف من الأقوال والممارسات الشاهدة على دعوة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الجمال والتجمل .. لكننا نجد ـ على عهد عمر بن الخطاب ـ بعضًا من شباب المدينة يجعلون من الجمال الذى حباهم به الله ، سبحانه وتعالى ، شراكًا للفحش الذى حاولوا ممارسته مع بعض من نساء المجاهدين الذين باعدت الحروب بينهم وبين الزوجات ؟ ! .. وهنا ينهض سلطان الإسلام ، ممثلاً فى عمر بن الخطاب ، بالتصدى لهذا الجمال ، الموظف فى المجون والفسوق .. حتى ليحكم بنفى هؤلاء الشباب من المدينة ، وتغريبهم عنها ! ..

لقد شكا بعض المجاهدين إلى عمر مما تتعرض له نساؤهم .. فحقق الأمر .. وحكم بتغريب هذا النفر من الشباب .. ونحن نقرأ فيما يرويه إسماعيل بن إبراهيم الأسدى ، عن ابن عون ، عن محمد : « أن بريدا قدم على عمر ، فنثر كنانته ، فبدرت صحيفة فأخذها فقرأها ، فإذا فيها :

ألا أَبْلِغْ أبا حفص رسولا ... فِدًى لك من أخى ثقة إزارى
فلائصنا هداك الله ، إنّا ... شُغلنا عنكمُ زمنَ الحصار
فما قُلُصٌ وُجِدْنَ مُعَقَّلاَتٍ ... قَفَا سَلْعٍ بمختلف البحار
قلائصُ منْ بنى سعد بن بكرٍ ... وأسْلَمَ أو جُهينة أو غفار
يُعَقِّلُهنّ جعدةُ من سُلَيْمٍ ... مُعِيدًا يَبْتَغِى سَقَطَ العَذَارَ !

ففى هذا الشعر شكوى مجاهد ـ بعث بها من الثغر الذى ذهب إليه ـ مقاتلاً ـ إلى عمر بن الخطاب ، شكوى من « جعدة » ـ وهو شاب وسيم ،

فائق الجمال ، من بنى سليم ـ ذلك الذى يوقع بجماله ـ القلائص ـ العقائل ـ من نساء المجاهدين ؟! .. يحاول ، بجماله أن « يُعَقِّلَهُنَّ » فى الحرام ؟! .. فما كان من عمر ، رضى الله عنه ، إلا أن قال : « أدعوا لى جعدة ـ من سليم ـ فلما جاءوه به ، أمر بجلده مائة جلدة ، وهو «معقول » ؟! » ونهاه أن يدخل على امرأة مُغَيَّبَة » ـ غاب عنها زوجها ـ ! ..(٤)

وعندما يكتشف عمر أن بعض الغناء إنما يشف عن الخنا والمجون والفحش ، يمسك بخيطه ، ليصل إلى الأحكام والمواقف التى تستهدف تنقية المجتمع المسلم من هذه الانحرافات .. ففيما يرويه عبد الله بن بريدة الأسلمي ، قال : « بينما عمر بن الخطاب يَعُسّ ذات ليلة ، فإذا بامرأة تقول :

هل من سبيل إلى خمر فأشربها   أم هل سبيل إلى نصر بن حجاج؟ !

فلما أصبح سأل عنه ، فإذا هو من بنى سليم ، فأرسل إليه ، فأتاه ، فإذا هو من أحسن الناس شَعْرًا ، وأصبحهم وجهًا ، فأمره عمر أن يطم شعره ، ففعل ، فخرجت جبهته ، فازداد حسنًا ! فأمر عمر أن يَعْتَمَّ ، ففعل ، فازداد حسنًا ! ، فقال عمر : لا ، والذى نفسى بيده ! لا تجامعنى بأرض أنا بها ! .. فأمر له بما يصلحه ، وسَيَّرَه إلى البصرة .. »(٥) ؟!.

وتتكرر واقعة مشابهة ـ على عهد عمر ـ من أحد بنى عمومة نصر بن حجاج السلمى هذا ـ .. عندما يسمع عمر ـ وهو يَعُسّ ذات ليلة ـ نسوة يتحدثن ، متسائلات :

ـ أى أهل المدينة أصبح ؟! ..

ـ فقالت إحداهن : أبو ذئب ! ..

فلما أصبح عمر ، سأل عن هذا الذى هو أصبح أهل المدينة .. والذى هو

ذئب هؤلاء النسوة .. فإذا هو من بنى سليم ، فلما جئ به « نظر إليه عمر فإذا هو من أجمل الناس ، فقال له عمر : أنت ـ والله ذئبهن ! ـ مرتين أو ثلاثا ـ والذى نفسى بيده ! لا تجامعنى بأرض أنا بها . فقال له الفتى : إن كنت مُسَيِّرِى فسيرنى حيث سَيَّرْت ابن عمى ـ (يعنى نصر بن حجاج) ـ فأمر له بما يصلحه ، وسيره إلى البصرة .. »(٦) ! .

فنحن هنا بإزاء ولى الأمر ، المسئول عن الحفاظ على الصحة الخُلُقية للمجتمع المسلم ، ليحفظ على الناس ، ويحتفظ لهم باستقامتهم الدينية والدنيوية .. ولتسلم لهم وفيهم شروط ومؤهلات إقامة العمران ، وتحقيق رسالة الإنسان فى الاستخلاف عن الله ، سبحانه وتعالى ، فى هذا الوجود .. يسلك إلى ذلك كل السبل .. تزكية الجمال وفنونه ، عندما تنهض بدورها فى تحقيق هذه الغاية .. ومنع المُبَاح .. وتقييد المطلق ... وسن التعازير .. وإقامة الحدود ، إذا تحول الجمال وتحولت فنونه عن مقاصدها بالسلوك الماجن ، والقول الفاحش لدى بعض من الرجال أو النساء ! ..

ذلك هو منهاج الإسلام .. وهذا واحد من شواهده فى عهد عمر بن الخطاب .

● وإذا كان مجتمع الخلافة الراشدة ـ حتى على عهد نموذجها المميز : عمر بن الخطاب ـ قد عرف « المجون .. والتَّمَجُّن » ، وميز بينه وبين الغناء ، كفن حسن وجميل ـ وتلك هى طبائع الأمور فى كل المجتمعات ـ فلقد سارت الأمور على هذه السُّنَّة ، فيما تلا هذا العهد الراشد ، وعلى امتداد الحكم الأموى ودولة بنى العباس .. مع ملاحظة التأثيرات السلبية التى ذخرت بها الحياة الاجتماعية بعد اتساع دائرة الدولة بامتداد الفتوحات ..

لقد فتح المسلمون فى ثمانين عامًا أكثر مما فتح الرومان فى ثمانية قرون.. ولقد أدى اتساع الدولة الإسلامية فى هذا الزمن الوجيز إلى أن أصبح المسلمون أقلية فى رعية هذه الدولة لعدة قرون ، الأمر الذى جعل لمواريث الأمم التى فتحت بلادها ، فى الفنون والآداب ، شيوعًا وسيطرة نهض الإسلام لمغالبة الماجن والفاسد منها ، لكن دون أن ينجح أهله فى اقتلاع هذا الشيوع وهذه السيطرة من كثير من حواضر هذه البلاد .. بل إن الكثيرين من حكام بنى أمية قد رأوا فى شيوع هذه الألوان من وسائل اللهو، وفى إغراق بعض الحواضر الإسلامية فى ملذاتها ما يصرف الشباب الطامح إلى المشاركة فى إدارة الدولة وسياسة المجتمع عن سبيل المعارضة لاستئثارهم بشئون البلاد والعباد ؟!.. حتى لقد رأيناهم يغرقون حواضر الحجاز ـ وهى موطن المعارضة لدولتهم ، التى انتقلوا بعاصمتها إلى الشام ـ رأيناهم يغرقون حواضر الحجاز بلهو الغناء الذى اتخذ أربابه مادته وكلماته من شعر الغزل ـ حتى فى الغلمان ، ومن شعر الخمريات ، وكذلك وصلوا إلى إغراق « رصيد المعارضة » فى « مستنقع المجون » ، هو الذى تكونت لحرفته طبقة من المغنين والشعراء والقيان ! ..

وفى ظل هذا الواقع الجديد ، والأمر المستحدث ، الذى غدت فيه الدولة هى راعية الغناء الماجن ، واللهو الفاسق ـ أو على الأقل تغض الطرف عنه ـ وجدنا الموقف الكاره أو المُحَرِّم لهذا اللهو من طبقة الأعلام الذين تبلورت من حول اجتهاداتهم المذاهب الكبرى فى فقه الإسلام .. أبو حنيفة (٨٠ ـ ٥٠ هـ ـ ٦٩٩ ـ ٧٦٧ م) ومالك (٩٣ ـ ١٧٩ هـ ـ ٧١٢ ـ ٧٩٥ م) والشافعى (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ ـ ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م) وأحمد بن حنبل (١٦٤ ـ

٢٤١ هـ ـ ٧٨٠ ـ ٥٥ م) .. وهى الآراء ـ الكارهة أو المُحَرِّمة ـ التى ظلت تتردد فى فتاوى الفقهاء ، المنكرة لهذا اللون من اللهو ـ لهو الفسق والمجون ـ فى مختلف المذاهب ، وعلى امتداد تاريخ دولة بني أمية ودولة بني العباس ..

لكن الأمر الذي ننبه عليه ، ونلفت إليه الأنظار ، هو أن هؤلاء الفقهاء الأعلام قد رويت عنهم ـ وعن فقهاء معاصرين لهم ـ فى الغناء آراء أخرى تبيح الغناء وتراه حلالاً ... الأمر الذى يؤكد على أن أحكام الكراهة أو التحريم إنما كانت للون من الغناء ، وليس لمطلق الغناء .. وهذا هو التفسير الطبيعى والمنطقى لاختلافهم فى الحكم ، بل ولاختلاف الروايات المروية عن الواحد منهم .. لقد أفتوا بأحكام متفاوتة ، لا لاختلافهم فى فهم الدليل أو النص ـ فالنصوص التى تبيح الغناء حاسمة ، والتى تحرمه معلولة ـ كما سبق وعرضنا ـ وإنما كان اختلاف الروايات المحفوظة لنا عن هؤلاء الفقهاء المؤسسين لمذاهبنا الكبرى ، نابعًا من اختلاف لون اللهو والغناء الذى سئلوا عن رأيهم فيه ..

فالامام أبو حنيفة يروى عنه « كراهة » الغناء .. بينما العنبرى ، عبيد الله ابن الحسن العنبرى (١٠٥ ـ ١٦٨ هـ ٧٢٣ ـ ٧٨٥ م) لا يرى به بأسًا .

والامام مالك يحرم الغناء .. بينما إبراهيم بن سعد الزهرى ـ قاضى المدينة ومحدثها (١٨٣ هـ ـ ٧٩٩ م) ـ لا يرى به بأسا .. وحتى نفهم معنى تحريم مالك للغناء .. وكيف أنه لم يكن تحريماً لمطلق الغناء ، ولا لكل غناء وإنما كان تحريماً لهذا اللون الماجن الذى شاع بالمدينة، على عهده ، ليغرق به أرباب الدولة شباب حاضرة الإسلام ومهد دولته عن التطلع للمشاركة فى السلطة والسلطان ، وعن المعارضة للملك العضود الذى حل محل شورى

الإسلام .. حتى نفهم حقيقة موقف الامام مالك ، علينا أن نتأمل نص السؤال الذى وُجِّه إليه ، ونص الجواب الذى روى عنه فى الغناء .. ففيما يرويه الله عنه ، عن الغناء الذى يستعمله أهل المدينة ؟؟ .. فقال : إنما يفعله عندنا الفساق ! .. ».

فالسؤال لم يكن عن مطلق الغناء .. وإنما كان عن « الغناء الذى يستعمله أهل المدينة » فى ذلك التاريخ ، والذى شاع فيها يومئذ .. والجواب كان إدانة لغناء الفُسّاق ، ولم يكن تحريماً لمطلق الغناء ! ..

وكذلك الحال نجده فى موقف الشافعى .. فالمروى عنه أنه « يراه مكروهًا يشبه الباطل » .. لكن .. لابد من البحث هنا ، أيضًا ، عن هذا اللون من الغناء الذى رآه الشافعى « مكروهًا يشبه الباطل » .. ولحسن الحظ فإن ابن تيمية يروى لنا ملابسات حكم الشافعى هذا ، عندما يقول : إن الشافعى ـ بعد أن غادر بغداد إلى مصر ـ تحدث عن لون من الغناء ، أحدثته الزنادقة فى بغداد ، اسمه «التغبير» ، أحدثوه ليصدوا به الناس عن القرآن الكريم .. ونص عبارة ابن تيمية : « قال الشافعى ، ـ رضى الله عنه ـ : خَلَّفْتُ ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة ، يسمونه « التغبير » يصدون به الناس عن القرآن .. » !.

أما الإمام أحمد ، فلقد رُوى عنه فى الغناء ثلاث روايات : الحرمة ، والكراهة ، والحلّ .. وأحسب أن اختلاف الروايات عنه فى الموضوع الواحد هنا لا علاقة له بالاختلاف فى فهم الدليل .. وإنما المرجع والسبب هو اختلاف لون الغناء الذى سئل عنه الإمام .. ويشهد لذلك حكمه بالكراهة على « التغبير » المُحْدَث .. فلقد سئل عنه ـ كما يقول ابن تيمية ـ فقال : « أكرهه . هو محدَث » (٧).

فاختلاف هذه الروايات ، المروية عن الأئمة المؤسسين لكبرى المذاهب الفقهية في الإسلام ، إنما ينهض شاهدا على صدق الحقيقة التي تقول : إن الغناء ، كفن من الفنون الحسنة الجميلة ، قد ظل الموقف منه على أصل الإباحة له .. بينما اختلفت المواقف من ألوان الغناء التي هبطت بهذا الفن إلى درك المجون باختلاف حظ هذا الغناء من ذلك المجون .. فكان منه المكروه .. وكان منه الحرام .. ولم يحدث أن عمم الفقهاء ، أو أطلقوا الأحكام حتى عندما شاع لهو المجون وغناء الفسق ، بعد اتساع الفتوحات ، وسيادة الترف ، على عهد بني أمية وبني العباس ..

* * *

● ولقد استمرت هذه « السُنّة الفقهية » مرعية إزاء ما يحدث في هذا الميدان .. فالحكم على الغناء ، والموقف منه يدور بين الإباحة .. والكراهة .. والحُرمة ، تبعا لطبيعته ووظيفته ، وعلى قدر اقترابه أو ابتعاده عن مستوى وطبيعة ووظيفة الفن الحسن الجميل الذي يمثل ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية ، وأداة من أدوات الارتقاء بمشاعر وملكات وغرائز الإنسان ..

بل إن التطور في طبيعة الغناء ووظيفته ، قد صحبه تطور في الأسماء والمصطلحات التي عرف بها الجديد في ألوانه .. ففي العهد النبوي والخلافة الراشدة كانت الأسماء التي تطلق على هذا الفن هي « الغناء » و « اللهو » ـ على نحو ما رأينا في مصطلحات القرآن والسنة ـ .. ولقد ظلت هذه المصطلحات هي الغالبة لعدة قرون .. فكانت هي التي استخدامها الإمام ابن حزم (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ ـ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م) وهو يناقش هذه القضية

ويقيّم ما ورد حولها من مأثورات ..

ولقد رأينا كيف ظهر لون جديد ومحدث من الغناء ـ على عهد الإمام الشافعي (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ ـ ٧٦٧ ـ ٨٢٠ م) ببغداد ـ اسمه « التغبير » ـ وهو لون من الغناء أحدثه الزنادقة ليصدوا به عن القرآن الكريم ! .. وهو ، من حيث الوظيفة والتأثيرات ، مختلف عن الغناء واللهو المباح .

وعندما شاع التصوف وكثرت جماهيره ـ بعد شيوع تأثيرات المواريث الإشراقية الفارسية في ثقافة المسلمين ـ عرف هذا الفن لونا متميزا من الغناء ، وهو الذي سمي بـ : « السماع » .. وهو الذي عنون به الإمام الغزالي (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م) : لما كتب في هذا الموضوع .. ثم شاع مصطلحه ـ « السماع » ـ في الكتابات التي مثلت أدبيات الصراع بين المتصوفة والفقهاء بهذا الميدان منذ ذلك التاريخ .

فنحن لسنا ، إذن ، أمام مصطلحات متعددة للون واحد من الغناء .. وإنما نحن بإزاء ألوان من الغناء ، تميزت في المقاصد وفي الوظائف وفي طرائق الأداء وفي مضامين النصوص وفي هيئات مجالسها ، كما تميزت في الأسماء والمصطلحات .. ومن ثم فلابد وأن تتميز ـ كما رأينا في فتاوى الفقهاء المؤسسين ـ في الأحكام الشرعية التي تطلق عليها .. فالغناء واللهو ، الذي رخص فيه الإسلام ـ لأنه دين فسيح ـ على حد التعبير النبوي الشريف ـ .. رخص فيه ترويحا عن النفس ، وتجديدا لنشاطها ، وطلبا للسعادة والسرور والفرح في مناسباتها وعلى مقاديرها .. هو مختلف في الحكم الشرعي عن « التغبير » الذي ابتدعه الزنادقة ليصدوا به عن القرآن الكريم .. وتلك بديهة لا يمكن أن تكون موضوعا للخلاف أو الاختلاف ..

و « السماع » الصوفى ، الذى ابتدعه المتصوفة ، قد ظل مقبولا من جيل أئمة التصوف الذين حكموا تجاربهم الصوفية ومجاهداتهم الذاتية ورياضاتهم الروحية بإطار الشريعة وأحكامها .. فلقد كان « السماع الصوفى » يومئذ « فنا » يستعين به الصوفية على « الحضور » .. وعن هذا الطور وهذا اللون من « السماع » - كفن من فنون الغناء - كتب الإمام الغزالى ما كتب فى (إحياء علوم الدين) ..

لكن طورا آخر من أطوار الفكر الصوفى ، تصاعدت فيه نسبة وتأثيرات الفكر « الغنوصى - الباطنى » ، تحول فى ظله هذا « السماع » من « فن » يعين على « الحضور » إلى حيث جعلوه « عبادة دينية » و « شعيرة إسلامية» و « قربة » يتقربون به إلى الله سبحانه وتعالى .. بل لقد بلغوا به الحد الذى قدموه فيه على القرآن الكريم ، كما فعل الزنادقة الذين أحدثوا «التغبير » فى بغداد ! .. أو هكذا فعل نفر منهم ..

وهنا ، وبإزاء هذه « البدعة » فى الدين وعباداته وشعائره ، كان إجماع الفقهاء المجتهدين على تحريم هذا اللون من « السماع » .. فلم يكونوا بإزاء «فن » يتفاوت حظه من حسن المقاصد والوظائف ، وإنما كانوا بإزاء «بدعة» فى الدين وعباداته وشعائره ، وهو الميدان الذى يجب فيه « الاتباع » ويحرم فيه « الابتداع » باتفاق فقهاء الإسلام المجتهدين ..

وهذه الحقيقة هى التى تعيننا على فهم وتفسير الخلاف الذى قد يبدو أحيانا بين بعض الفقهاء حيال هذا « السماع » .. فالذين أباحوه ، هم الذين نفوا عنه صفة « العبادة » و « الشعيرة الدينية » ، فأدخلوه فى إطار الفنون المباحة ، التى تعين على العبادات .. والذين حرّموه ، أو كرهوه ، فعلوا ذلك

نفيا للبدعة والابتداع فى مجال الدين .. وزاد من دواعى موقفهم هذا ـ موقف التحريم ـ ما طرأ على التصوف والصوفية ـ وخاصة فى هذا السماع ـ من بدع وخرافات وتجاوزات لا يرضى عنها الإسلام ..

ولعل القراءة المتأملة فى نصوص الإمام الغزالى .. ثم فى نصوص الإمام ابن تيمية ـ وبينهما قرون حدث فيها هذا التطور فى هذا « السماع » ـ ما يؤكد صدق هذا الذى نقول ..

لقد أبرز هذا التطور ـ الذى جعل « السماع » « عبادة دينية » ـ .. أبرز الطابع « الغنوصى ـ الباطنى » للتصوف الذى انتشر يومئذ فى عالم الإسلام.. تصوف « وحدة الوجود » ، واحتقار العمل والأسباب .. وتهميش الإنسان ، باعتباره « الحقير » الذى لا سبيل لخلاصه إلا «بالفناء»!..

وزادت المخاطر المحدقة بالإسلام ، من هذا التصوف « الغنوصى الباطنى » عندما خلط أعلامه « الأوراق الحضارية » ، فى حقبة كان دفاع الإسلام عن ذاته العقدية وهويته الحضارية وحدود وطنه ، أمام جحافل الغزو التترى والصليبى قضية : وجود ؟ .. أو لا وجود ؟!..

لقد كان تصدى الإسلام ـ بالقلم وبالسيف ـ لباطنية ذلك العصر إغلاقا لثغرة مفتوحة فى جدار المقاومة الإسلامية لجحافل الغزاة .. وفى حقب الخطر المحدق ، المهدد للهوية والوجود ، يكون « تميز الهوية الحضارية » طوق النجاة من السحق والمسخ والتشويه .. بينما يكون « التميع الحضارى » سبيلا إلى التبعية والذوبان فى النمط الحضارى للغزاة ؟!..

فتشدد ابن تيمية ـ وهو فارس ذلك العصر ـ الذى كان يتلمس سمات

وقسمات (اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أهل الجحيم) ـ وهذا عنوان أحد كتبه ـ كان ـ فى حقبة الخطر التترى ـ الصليبى ـ هو السبيل لإبراز مفكر « الاستقلال الحضارى للأمة » .. بينما كان ابن عربى ، الذى خلط الأوراق ، باسم « دين الحب » الذى جعل من قلبه مكانا لكل الكتب ولكل المعبودات ، حتى الاحجار منها والحيوانات !.. وكذلك السهروردى ـ المقتول ـ (٥٤٩ ـ ٥٨٧ هـ ـ ١١٥٤ ـ ١١٩١ م) الذى سلك ، مع نبى الإسلام ، حكماء « وأنبياء » الفرس واليونان فى سلسلة واحدة ومتصلة ، أدخل فيها زرادشت وأفلاطون ! .. وسلك ، مع القرآن « محاورات أفلاطون» و « الكتب المستورة » ؟ ! .. و « الوحى الكلدانى » ؟ ! .. فى سلسلة واحدة أيضا (٨).

كان ابن عربى والسهروردى ـ وامثالهما ـ فى حقبة هذا الخطر : نموذج المفكر الذى يفتح منافذ عقل الأمة لتهب عليه العواصف الوافدة ، مهددة هويته ـ وهى فى لحظات الضعف ـ بالاقتلاع ! ..

تلك هى زاوية الرؤية « التاريخية ـ والحضارية » لتركيز الغزالى الهجوم على الباطنية ـ فى كتابه (فضائح الباطنية) ـ ولتركيز ابن تيمية هجومه على رموز الباطنية وبدعها ، ومنها « سماع الصوفية » الذى جعلوه دينا وعبادة وشعيرة قدموها على القرآن الكريم .. مع تمييزه بين هذا «السماع ـ البدعة » وبين « الغناء واللهو » ، كفن حسن وجميل مباح ..

لقد رآه الغزالى « فنا » من الفنون المباحة ، تعرض عليه الأحكام التى تعرض على المباح .. وتحدّث عنه كأداة تعين الإنسان على أداء التكاليف والواجبات ، دنيوية كانت أو دينية .. ولم ير فيه « عبادة » من العبادات ..

أما ابن تيمية فلقد هاجم منه ذلك اللون الذى جعلته « الباطنية ـ الصوفية » « عبادة » أضافتها ـ بالابتداع ـ إلى شرع الله .. فلا خلاف ، فى الحقيقة ، حول جوهر القضية بين جميع الفقهاء المجتهدين فى هذا المقام .. فلقد ميزوا جميعا بين « الفن » ، المباح والمرخص به وفيه ، وبين « الابتداع الباطنى » فى الشعائر والعبادات .

وإن قراءة فى نصوص حجة الإسلام الغزالى .. ثم فى نصوص شيخ الإسلام ابن تيمية ، لتؤكد هذه الحقيقة التى نقدمها .. حقيقة مغايرة ما حرّمه ابن تيمية لما أباحه الغزالى .. ومن ثم تؤكد على ضرورة إنهاء ذلك الخلط الحادث الآن بين « الفن الجميل » ، الذى يهذب النفس ويرتقى بملكاتها ، ويعين الإنسان على القيام برسالة الاستخلاف عن الله سبحانه فى بناء العمران .. وبين المنكر من « السماع » فسقا ومجونا وانحلالا خلقيا كان هذا المنكر ، أو ابتداعا فى شعائر الدين والعبادات ..

كذلك ، يجب أن نعى ونحن نطالع نصوص الغزالى ونصوص ابن تيمية، تلك الفوارق التى أحدثها التطور وملابساته فى عقول الفقهاء .. فوارق مجتمع ابن تيمية المحارب ، دفاعا عن الهوية والوجود ، التى ميزته عن مجتمع الغزالى ـ الذى أبدع ما أبدع قبل حقبة « الشدّة الصليبية ـ التترية » وبعيدا ـ من حيث المكان ـ عن بداياتها ..

وأن نبصر ، كذلك ، الفوارق التى طبعت وميزت فكر العلماء والأعلام فى كل من الحقبتين .. ففى عصر الغزالى ، لم يكن التصوف قد انفصل عن الفقه ـ وإن كان قد تميز ـ فكانت قلوب الصوفية ومواجيدهم مضبوطة بمنطق الفقهاء وعقولهم ، ومن ثم فلم يكن الصراع قد شب بينهما .. أما فى عصر

ابن تيمية ، فلقد كان الخصام قائما بين نفر من الصوفية الذين لا عقل لقلوبهم ، وبين عدد من الفقهاء الذين لا قلب لعقولهم ؟!.. وذلك فضلا عن الريبة التي زرعتها في قلوب الفقهاء خيانة الباطنية للأمة والدولة ، عندما أعانت التتر على اجتياح بغداد ، فوقفت معهم ، ومع الصليبيين في الخندق المعادى لحضارة الإسلام ! .. وهي الريبة التي ألقت الظلال السلبية على مجمل ممارسات الصوفية في ذلك التاريخ .

* * *

وإذا كنا قد آثرنا أن نقدم لقارئ هذا الكتاب ما هو أكثر من الدراسة التي اجتهدت لتحسم هذه القضية ، وذلك بواسطة « الملحق » الذى ذيلنا به هذا الكتاب ، والذى قدمنا فيه النصوص المحققة التي كتبها :

١ ـ الإمام ابن حزم (٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ ـ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م) ـ والتي حقق فيها « رواية » المأثورات التي رويت في اللهو والغناء ـ ونقدها نقد الخبير الفذ بالرواية والرواة .

٢ ـ وحجة الإسلام الغزالى (٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١ م) ـ والتي أبدع فيها تحليل موقف الإسلام من ألوان « السماع » ـ إبداع العربي والفقيه وعالم النفس والفنان والفيلسوف المتصوف .

٣ ـ وشيخ الإسلام ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ ـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م) ـ والتي ميز فيها بين ألوان « السماع » .. ما هو فن « منها مباح ، وما هو «ابتداع في الدين » ..

إذا كنا قد أفردنا « الملحق » لكامل نصوص هؤلاء الأئمة المجتهدين الذين يمثلون معالم الفكر والاجتهاد الإسلامي ، في هذه القضية ، على امتداد ستة

قرون ـ من القرن الهجرى الرابع حتى التاسع ـ .. فإننا نؤثر أن نسوق هنا طرفا مما كتب الغزالى .. وابن تيمية ، كنموذج معبر عن اجتهاد كل منهما فى هذا الميدان ...

● لقد عرض الغزالى لهذه القضية فى كتابه (إحياء علوم الدين) .. وعقد لها (كتاب آداب السماع) .. الذى تناول فيه أهم جوانب هذا المبحث بالتحليل ، ثم اجتهد لتنزيل الحكم الشرعى على كل لون من ألوان «السماع»..

(أ) فعنده ـ فى نظرية الفن الإنسانى ـ ما يمكن أن يندرج تحت نظرية « المحاكاة » .. فالأصوات الجميلة ـ من حنجرة الإنسان ، أو من الآلات التى يصنعها لتعزف الأصوات الجميلة ـ إنما هى محاكاة الصنعة الإنسانية للخلقة الإلهية ، التى أودعها فى الأصوات الجميلة للطيور وما شابهها .. «فالأصل فى الأصوات حناجر الحيوانات ، وإنما وُضعت المزامير على أصوات الحناجر ، وهو تشبيه للصنعة بالخِلْقة التى استأثر الله تعالى باختراعها ، فمنه تعلم الصناع ، وبه قصدوا الاقتداء .. فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة أو موزونة ، فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب ، وسائر الطيور ، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغى أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمى ، كالذى يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدف وغيره .. » (٩)

ذلك هو الأصل فى الأصوات الجميلة .. إنها تُشبِّه الصنعة الإنسانية بالخلقة الإلهية ، فهى تقليد واتباع واقتداء ومحاكاة ! ..

(ب) ثم يعرض الغزالى لأنواع السماع ، التى كانت معروفة فى العصر الذى عاش فيه .. وفى أثناء هذا العرض يتحدث حديثا دقيقا ورقيقا ورائعا عن نوعين من أنواعه هما اللذان دار ــ ولا يزال دائرا ــ حولهما الجدل والغلط والخلاف .. سماع العشاق ــ وهو الذى يمثل قسما كبيرا من الغناء الآن .. وسماع الصوفية ، العاشقين لذات الله ، سبحانه وتعالى ..

١ ــ فأما عن سماع العشاق الغناء والألحان التى تحرك أشواقهم لمن يعشقون .. فإن الغزالى يراه حلالا مباحا إذا كان المعشوق ، الموصوفة محاسنه ، والذى يُنَزِّلُ عليه السامع المعانى والأوصاف ، هو مما يحل أن ينظر إليه وإلى محاسنه ويتمتع بها هذا السامع فى الحلال .. » .. فسماع العشاق ، تحريكا للشوق ، وتهييجا للعشق ، وتسلية للنفس ، إن كان فى مشاهدة المعشوق ، فالغرض : تأكيد اللذة ، وإن كان مع المفارقة ، فالغرض تهييج الشوق ، فالشوق ، وإن كان أَلَمًا ، ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال ، فإن الرجاء لذيذ ، واليأس مؤلم ، وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق ، والحب للشىء المرجو ، ففى هذا السماع تهييج العشق ، وتحريك الشوق ، وتحصيل لذة الرجاء المقدر فى الوصال ، مع الإطناب فى وصف حسن المحبوب . وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله ، كمن يعشق زوجته ، فيصغى إلى غنائها لتضاعف لذته فى لقائها ، فيحظى بالمشاهدة البصر ، وبالسماع الأذن ، ويفهم لطائف معانى الوصال والفراق القلب ، فتترادف أسباب اللذة . فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها ، وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وهذا منه .. (ولكن) لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقه بالوصال واللقاء .

وأما من يتمثل فى نفسه صورة صبى أو امرأة لا يحل له النظر إليها ، وكان يُنَـزِّل ما يسمع على ما تَمَثَّلَ فى نفسه ، فهذا حرام ، لأنه محرك للفكر فى الأفعال المحظورة ، ومهيج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه . وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب فى وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضمار شىء من ذلك ، وذلك ممنوع فى حقهم ، لما فيه من الداء الدفين ، لا لأمر يرجع إلى نفس السماع ، ولذلك سئل حكيم عن العشق ، فقال : دخان يصعد إلى دماغ الإنسان ، يزيله الجماع ، ويهيجه السماع ! .. »(١٠)

هكذا - فى الحديث عن سماع العشاق - يتجلى الغزالى فيلسوفا موسوعيا .. فهو خبير بأحوال النفس ، وغرائز الجسد ، وحالات العواطف، وأطوار الاجتماع الإنسانى .. وهو فى القمة من الدقة فى استخدام ميزان الشرع - على ضوء المصلحة المعتبرة - فى تحديد الحلال والحرام من هذا السماع .. الحلال والحرام فى حق السامع ، وليس فى ذات السماع .

٢ - أما سماع الصوفية - أى الوَجْد - ذلك الذى دار من حوله معظم الجدل فى قضية « السماع » ، فإن الغزالى - الذى سبق عصر ابن تيمية - ولم يشهد تفشى البدع التى بلغت بالباطنية حد جعلهم هذا السماع « عبادة دينية » بديلة عن العبادات التى شرعها الله - .. إن الغزالى يرى فى هذا السماع حلالا لأهله ، الذين يوظفونه كمحرك يسوقهم نحو المزيد من حبهم لله .. فهو « أداة » من الأدوات ، وليس « عبادة » من العبادات .. «فسماع من أحب الله وعشقه ، واشتاق إلى لقائه ، فلا ينظر إلى شىء إلا رآه فيه سبحانه، ولا يقرع سمعه قارع إلا سمعه منه أو فيه . فالسماع فى حقه مبهج لشوقه ، ومؤكد لعشقه وحبه ، ومُورِ زناد قلبه ، ومستخرج منه

أحوالا من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها ، يعرفها من ذاقها ، وينكرها من كلَّ حسّه عن ذوقها ، وتسمى تلك الأحوال ـ بلسان الصوفية ـ وَجْداً ـ مأخوذ من الوجود والمصادفة ، أي صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع ـ ..

ولعلك تقول : كيف يتصور العشق في حق الله تعالى ، حتى يكون السماع محركا له ؟ .

فاعلم ، أن من عرف الله أحبه لا محالة ، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته ، والمحبة إذا تأكدت سميت عشقا ، فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة ، ولذلك قالت العرب : إن محمدا قد عشق ربه ، لما رأوه يتخلى لعبادته في جبل حراء .. وكم من الغلاة في حب أرباب المذاهب ، كالشافعي ومالك وأبي حنيفة ، رضي الله عنهم ، حتى يبذلوا أموالهم وأرواحهم في نصرتهم وموالاتهم ، ويزيدوا على كل عاشق في الغلو والمبالغة ، ومن العجب أن يُعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته ، أجميل هو أم قبيح ؟ وهو الآن ميت ، ولكن لجمال صورته الباطنة ، وسيرته المرضية ، والخيرات الحاصلة من عمله لأهل الدين ، وغير ذلك من الخصال، ثم لا يُعقل عشق من ترى الخيرات منه ، بل ، على التحقيق ، من لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسناته ، وأثر من آثار كرمه، وغَرفه من بحر جوده ، بل كل حسن وجمال في العالم أُدرك بالعقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس ، من مبتدأ العالم إلى منقرضه ، ومن ذروة الثريا إلى منتهى الثرى ، فهو ذرة من خزائن قدرته ، ولمعة من أنوار حضرَته .. إذ ليس في الوجود ، تحقيقا ، إلا الله وأفعاله ، ومن عرف الأفعال ،

من حيث إنها أفعال ، لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره .. فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله وفعله ، وبديع أفعاله . فمن عرفها من حيث هى صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما يرى من حسن التصنيف فضل المصنِّف وجلالة قدره ، كانت معرفته ومحبته مقصورة على الله تعالى ، غير مجاوزة إلى سواه .

ومن حد هذا العشق أنه لا يقبل الشركة ، وكل ما سوى هذا العشق فهو قابل للشركة ، إذ كل محبوب سواه يُتصور له نظير ، إما فى الوجود ، وإما فى الإمكان ، فأما هذا الجمال فلا يُتصور له ثان ، لا فى الإمكان ولا فى الوجود ، فكان اسم العشق على حب غيره مجازا محضا لا حقيقة .

نعم ، الناقص ، القريب فى نقصانه من البهيمة ، قد لا يدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال ، الذى هو عبارة عن تماس ظواهر الأجسام ، وقضاء شهوة الوقاع ، فمثل هذا الحمار ينبغى أن لا يُستعمل معه لفظة العشق ، والشوق ، والوصال ، والأنس ، بل يجنب هذه الالفاظ والمعانى ، كما تجنب البهيمة النرجس والريحان ، وتخصص بالقت والحشيش وأوراق القضْبان ، فإن الألفاظ إنما يجوز إطلاقها فى حق الله تعالى ، إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه ، والأوهام تختلف باختلاف الأفهام ، فلينتبه لهذه الدقيقة فى أمثال هذه الألفاظ .. » (١١)

هنا يضبط الغزالى « سماع الوجد » الصوفى ، الذى رآه حلالا مباحا ، بضوابط الشرع ، فهو مبرأ عن التشبيه والتجسيد .. وهو مباح لأهله ، من الخاصة ، ذوى التجربة الذاتية ، والرياضة الروحية ، والمجاهدة التى تبلغ بأصحابها فوق ما يبلغ العوام .. وهذا اللون من التصوف ، مضبوط

بضوابط الشرع .. فأصحابه يرون أن الوجود الحقيقي متحقق لله ولأفعاله، ومن ثم فإنهم لا ينفون الوجود الحقيقي عن ما سوى الله ، كما هو حال صوفية و حدة الوجود ، ذوى الأصول « الغنوصية ـ الباطنية » ، أولئك الذين علا نجمهم في ديار الإسلام عندما دخلت الحضارة الإسلامية طور التراجع .. وهم الذين ناصبهم ابن تيمية ، وناصب سماعهم العداء الشديد!..

(جـ) وبعد أن تحدث الغزالي عن أنواع السماع ، عرض لحكم الشرع فيه .. فرأى أن منه الحرام .. والمباح .. والمكروه .. والمستحب .. فهو حرام في حق الأغرار الذين « غلبت عليهم شهوة الدنيا ، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة .. » .. وهو مكروه لمن يسرف فيه ، فيتخذه عادة يصرف إليها « أكثر الأوقات ، على سبيل اللهو » .. وهو مباح لمن يتخذه سبيلا إلى « التلذذ بالصوت الحسن » .. وهو مستحب في حق الذين يحبون الله ، ويتخذون منه أداة تحرك منهم « الصفات المحمودة » دون غيرها (١٢).

وإذا كان السماع حلالا مباحا في ذاته ، فإن حرمته إنما تعرض لعارض خارج عن ذاته .. قد يكون في مصدره ـ المُسْمِع ـ ، أو في آلته ـ آلة الإسماع ـ أو في نظم الصوت ، أو في متلقيه ـ في نفس المستمع ، أو في مواظبته عليه ـ أو في طبيعة المتلقي ، ومستواه ـ كأن يكون من عوام الخلق ـ الذين يصرفون معاني ألفاظ الوجد إلى ما لا يليق بذات الله ...

تحدث الغزالي عن هذه العوارض الخمسة التي تعرض للسماع ـ المباح في ذاته ـ فتجعله حراما ، فقال : « إنه يحرم بخمسة عوارض : عارض في

المُسْمِع ، وعارض فى آلة الإسماع ، وعارض فى نظم الصوت ، وعارض فى نفس المستمع أو فى مواظبته ، وعارض فى كون الشخص من عوام الخلق ، لأن أركان السماع هى : المُسْمِع ، والمستمع ، وآلة السماع ..

العارض الأول :

أن يكون المُسْمِع امرأة لا يحل النظر إليها وتخُشَى الفتنة من سماعها ، وفى معناها الصبى الأمرد ، الذى تخُشَى فتنته ، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة ، وليس ذلك لأجل الغناء ، بل لو كانت المرأة بحيث يفتتن بصوتها فى المحاورة من غير ألحان فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ، ولا سماع صوتها فى القرآن أيضا ، وكذلك الصبى الذى تخاف فتنته .

العارض الثانى :

فى الآلة ، بأن تكون من شعار أهل الشرُّب ، أو المخنثين ... وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة .

العارض الثالث :

فى نظم الصوت ، وهو الشعر ، فإن كان فيه شيء من الخنا والفحش والهجو .. فسماع ذلك حرام ، بألحان وغير ألحان ، والمستمع شريك للقائل، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها ، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدى الرجال .. وأما النسيب ، وهو التشبيه بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء ، فهذا فيه نظر .. والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاءه بلحن وغير لحن ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة ، فإن أنزله فلينزله على من يحل له ، من زوجته وجاريته ، فإن أنزله

على أجنبية فهو العاصي بالتنزيل ، وإجالة الفكر فيه ، ومن هذا وصفه فينبغي أن يجتنب السماع رأسا ..

العارض الرابع :

فى المستمع ، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه ، وكان فى غمرة الشباب ، وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسماع حرام عليه ، سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب ، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ والخد ، والفراق والوصال ، إلا ويحرك ذلك شهوته ، وينزله على صورة معينة ، ينفخ الشيطان بها فى قلبه ، فتشتعل فيه نار الشهوة ، وتحتد بواعث الشر ، وذلك هو النصرة لحزب الشيطان ! والتخذيل للعقل المانع منه، الذى هو حزب الله ! ..

العارض الخامس :

أن يكون الشخص من عوام الخلق ، ولم يغلب عليه حب الله تعالى ، فيكون السماع فى حقه محبوبا ، ولا غلبت عليه الشهوة ، فيكون فى حقه محظورا ، ولكنه أبيح فى حقه كسائر أنواع اللذات المباحة ، إلا أنه إذا اتخذه ديدنة وهجيراه ، وقصر عليه أكثر أوقاته ، فهذا هو السفيه الذى تُرد شهادته ، فإن المواظبة على اللهو جناية . وكما أن الصغيرة بالاصرار والمداومة تصير كبيرة .

فكذلك بعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة .. ومن هذا القبيل : اللعب بالشطرنج ، فإنه مباح ، ولكن المواظبة عليه مكروهة ، كراهة شديدة ، ومهما كان الغرض من اللعب والتلذذ باللهو ، فذلك إنما يباح لما فيه من

ترويح القلب ، إذ راحة القلب معالجة له في بعض الأوقات ، لتنبعث دواعيه فتشتغل في سائر الأوقات بالجد في الدنيا ، كالكسب والتجارة ، أو في الدين ، كالصلاة والقراءة ، واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الخال على الخد ، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوهته .. فيعود الحسن قبحا بسبب الكثرة ، فما كان حسن يحسن كثيره ، ولا كل مباح يباح كثيره ، بل الخبز مباح والاستكثار منه حرام .. فالسماع من جملة المباحات ، من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم ، وإنما تحريمه لعارض خارج عن حقيقة ذاته .. »(١٣).

فما لم تغلب الفتنة ، أو الفسق والخنا والمجون ، أو استغراق اللهو لحياة الإنسان ، بسبب السماع ، فإنه يبقى على الأصل فيه .. فهو « من جملة المباحات ، من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم ، وإنما تحريمه لعارض خارج عن حقيقة ذاته .. » .

(د) بل إن الإمام الغزالي يؤكد لنا هذه الحقيقة ، عندما ينبه على أن السماع قد يحرم حتى وإن كان تشجيعا على الجهاد في سبيل الله ، إذا كان السامع غير مأذون له في هذا الجهاد ! .. وإذا كانت أصواته ونغماته من الرقة والحزن بحيث ترقق قلوب وعواطف من نريد أن نبعث فيهم بأس وشدة المجاهدين ! .. كما يحرم كذلك ، إذا كان تشويقا إلى حج بيت الله الحرام ، مع من أدى الفريضة ، ولم يأذن له ـ مثلا ـ أبواه في السفر إلى الحج ! .. فإباحته مشروطة بأن يكون في المكان والزمان الذي يؤدي فيه المقاصد الطيبة الحسنة المبتغاة من ورائه .. وحِلّه ، وحرمته ، واستحبابه ، وكراهته ، إنما تدور مع المقاصد التي يحققها للإنسان .. وكما لا يحسن

تهييج الناس للحرب فى أوقات السلم ، كذلك لا يحسن تعريض أسماع الجند، فى معسكرات الحرب ، للأنغام الهادئة المهدئة للنفوس ، والمرققة للعواطف ، والمثبطة للعزائم ، والمحزنة القابضة للقلوب .. فوضع الندى فى موضع السيف ، أو العكس ، حماقة ينهى عنها العقل والدين !..

يحدثنا الإمام الغزالى عن هذه الحقيقة عندما يقول عن أنواع الأوزان والألحان والأصوات ، ومناسباتها : « ... وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوقة ، وهذا مباح فى وقت يباح فيه الغزو ، ومندوب إليه فى وقت يستحب فيه الغزو ، ولكن فى حقّ من يجوز له الخروج إلى الغزو .. وينبغى أن يمنع من الضرب بالشاهين (١٤) فى معسكر الغزاة ، فإن صوته مرقق محزن ، يحلل عقدة الشجاعة ، ويضعف صرامة النفس ، ويشوق إلى الأهل والوطن، ويورث الفتور فى القتال ، وكذلك سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب ، فالألحان المرققة المحزنة تباين الألحان المحركة المشجعة ، فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عاص ، ومن فعله على قصد التفتير عن القتال المحظور فهو بذلك مطيع ! .. » (١٥).

وكما هو الحال مع الحرب والسلم ، يكون الأمر مع الحج إلى بيت الله الحرام .. « فإذا قصد بالسماع تشويق من لا يجوز له الخروج إلى الحج ، كالذى أسقط الفرض عن نفسه ، ولم يأذن له أبواه فى الخروج ، فهذا يحرم عليه الخروج ، فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع ، وبكل كلام يشوق إلى الخروج ، فإن التشويق إلى الحرام حرام ، وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة، وكان الهلاك غالبا لم يجز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق ..

وهكذا .. متى كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلب ، لم يجز أن

يحكم فيه مطلقا بإباحة ، ولا تحريم ، بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص، واختلاف طرق النغمات ، فحكمه حكم ما في القلب ! » (١٦)

فنحن ، مع هذا الفن الجميل ، بإزاء « سلاح » من أمضى « أسلحة » الأمة ، في الحرب والسلم على حد سواء ؟ ! ..

(هـ) ثم ينتهي الغزالي إلى تأسيس حكم الشرع في الغناء ـ كفن ـ على وظيفة هذا الفن في الحياة السوية للإنسان السوي .. فهو ضرورة لانتظام هذه الحياة على النحو الذي يجعلها مثمرة الثمرات المرجوة منها ، سواء أكان ذلك في ميادين الدنيا أم في ميادين الدين .. « فاللهو مروح للقلب ، ومخفف عنه أعباء الفكر ، والقلوب إذا أكرهت عميت ، وترويحها إعانة لها على الجد . فالمواظب على التفقه ، مثلا ، ينبغي أن يتعطل يوم الجمعة ، لأن عطلة يوم تبعث النشاط في سائر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوات في سائر الأوقات ، ينبغي أن يتعطل في بعض الأوقات ، ولأجله كرهت الصلاة في بعض الأوقات . فالعطلة معونة على العمل ، واللهو معين على الجد ، ولا يصبر على الجد المحض والحق المر إلا نفوس الأنبياء ، عليهم السلام . فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال ، فينبغي أن يكون مباحا ، ولكن لا ينبغي أن يستكثر منه ، كما لا يستكثر من الدواء ! .. » (١٧)

فهو ضرورة عمل وإنتاج ، في شئون الدنيا وفي شعائر الدين .. وهو ضرورة للارتقاء بعواطف الإنسان ومشاعره وملكاته ، لتتحقق فيه حقيقة إنسانية الإنسان .. ولذلك ، قيل ـ كما يروي الإمام الغزالي ـ : « من لم يحركه الربيع وأزهاره ، والعود وأوتاره ، فهو فاسد المزاج ، ليس له علاج .. » .

« .. إن تأثير السماع فى القلب محسوس ، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية ، زائد فى غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور ، بل على جميع البهائم ، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة ، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود ـ عليه السلام ـ لاستماع صوته ! » (١٨)

هكذا عرض الغزالى القضية ، على هذا النحو الواضح والمحدد والحاسم والدقيق ، من مختلف جوانبها ، فى كتابه (إحياء علوم الدين) .. وهو الكتاب الذى استهدف به تحقيق غاية جليلة هى : إنهاء الفصام والتناقض بين « الفكر » و « العمل » فى النسق الفكرى لحضارة الإسلام !..

* * *

● أما شيخ الإسلام ابن تيمية ـ والذى واجه واقعا فكريا متميزا .. وملابسات واقعية وسياسية متميزة ـ : تراجعا حضاريا ، جعل الإسلام الحق فى موقف الدفاع .. واستشراء للفكر الغنوصى الباطنى ، أضاف الكثير من البدع إلى عقائد وشعائر الدين .. وخيانة الباطنية لأمن الوطن .. على النحو الذى سهّل وأعان على اجتياح التتار لمشرق ديار الإسلام ، وتدمير عاصمة الخلافة ببغداد .. أما ابن تيمية ، الذى واجه هذا الواقع الجديد .. فإنه، فى الوقت الذى ميز ـ فى الغناء والسماع ـ بين :

(أ) سماع الدين .. أى سماع القرآن والسنة ، وعلومهما التى ينتفع بهما فى الدين ..

(ب) والسماع ، الذى هو فن جميل ومباح ، قد رخص فيه الدين للناس، رفعا للحرج من حياتهم ..

(جـ) والسماع ، « كعبادة من العبادات ذلك الذى أحدثه وابتدعه باطنية المتصوفة وجعلوا منه شعيرة دينية قدموها على الشعائر والعبادات التى شرعها الله وحددها رسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الوقت الذى ميز فيه ابن تيمية بين أنواع السماع هذه ، رأيناه يصب جام غضبه ، ويوجه أقصى نقده ، ويصوب أغلب سهامه إلى الخطر الرئيسى ، والبدعة المنكرة .. إلى السماع ، « كعبادة مُبتدَعة » ومضافة إلى ما لا يجوز فيه الإضافة والابتداع..

وإذا كنا قد أثبتنا نصوص فتاوى ابن تيمية فى هذا الموضوع ، « بملحق» هذا الكتاب .. فإننا نورد هنا نماذج شاهدة على تمييزه هذا بين أنواع السماع هذه ، وعلى الحجج التى استند إليها فى تحريم هذا السماع المُحْدَث ، وكيف أن هذه الحجج لا تتعلق بالسماع فى ذاته ، وإنما بجعلهم إياه عبادة دينية ، أى بما عرض له من جعله دينا ، وتوظيفه فى الصد عن العبادات والشعائر التى فرضها وسنها الدين ، وأيضا بما عرض له من حيل شيطانية وخرافات ضارة ، ارتبطت به عند الذين مارسوه .

١ ـ فهو يدعو سائله عن حكم « السماع » إلى أن « يفرق بين السماع الذى ينتفع به فى الدين » .. وهو السماع الخاص بالمتقربين إلى الله ، بالقرآن الكريم .. على النحو الذى كان يفعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وصحابته ، ومن اقتدى بهم من التابعين وتابعى التابعين ..

يدعو سائله إلى أن يفرق بين هذا اللون من السماع ـ المطلوب دينيا ـ وبين :

٢ ـ السماع المباح ، الذى رخص فيه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للأمة ، رفعا للحرج من حياتها ..

« .. فلقد رخص النبي في أنواع من اللهو في العرس ونحوه ، كما رخص للنساء أن يضربن بالدف في الأعراس والأفراح .. رفعا للحرج .. ومن هذا الباب ـ باب الرخصة ـ : حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ لما دخل عليها أبوها ـ رضي الله عنه ـ في أيام العيد ، وعندها جاريتان من الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بُعاث ، فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه :

ـ « أبمزمار الشيطان في بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ » ؟!..

ـ وكان رسول الله مُعْرِضًا بوجهه عنهما ، مُقْبِلاً بوجهه الكريم إلى الحائط، فقال :

ـ « دعهما ، يا أبا بكر ! .. فإن لكل قوم عيدا ، وهذا عيدنا أهل الإسلام»!.

٣ ـ أما ذلك النوع الثالث من السماع ، وهو « السماع ـ العبادة ـ المبتدعة» ، فإن ابن تيمية يقطع بتحريمه ، كما قطع القرآن الكريم بتحريم نظيره الجاهلي ـ « المُكَاء والتصدية » اللذين جعلهما المشركون ، في الجاهلية ، عبادة يتقربون بها إلى الأصنام ! ..

وعن هذا النوع من السماع يفيض في الحديث ، فيقول : « وأما سماع المُكَاء والتصدية ـ وهو التصفيق بالأيدي ، والمُكَاء مثل الصفير ونحوه ـ فهذا هو سماع المشركين ، الذي ذكره الله تعالى في قوله : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مُكاء وتصدية) (١٩) فأخبر عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد والتصويت بالفم قُرْبَةً ودينا .. ولقد عُرِف بالاضطرار من دين الإسلام : أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لم يشرع لصالحي أمته وعُبّادهم وزُهّادهم أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحنة ، مع ضرب بالكف أو ضرب بالقضيب أو الدف ، كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعته، واتباع ما جاء به من الكتاب والحكمة ، لا في باطن الأمر ولا في ظاهره ، ولا لعامي ولا لخاصي .... » .

فالحرمة هنا لأنهم قد جعلوه « قربة ودينا .. وشرعوا ما لم يشرع النبي « عليه الصلاة والسلام ... » وليس المقصود منهم بهذا السماع مجرد رفع الحرج ، بل مقصودهم بذلك أن يُتَّخَذَ طريقا إلى الله يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب ، والتشويق إلى المحبوب .. فتستنزل به الرحمة ، وتستجلب به النعمة .. حتى يقول بعضهم : إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه ، حتى يجعلونه قوتا للقلوب ، وغذاء للأرواح ، وحاديا للنفوس يحدوهما إلى السير إلى الله ، ويحثهما على الإقبال عليه ، ولهذا يوجد من اعتاده واغتذى به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح به ، ولا يجد في سماع الآيات كما يجد في سماع الابيات ، بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية ، والسن لاغية ، وإذا سمعوا سماع المُكَاء والتصدية خشعت الأصوات ، وسكنت الحركات ، وأصغت القلوب ، وتعاطت المشروب ؟؟!.. » (٢٠)

هذا هو السماع البدعة .. وهؤلاء هم أهله المبتدعون في الدين .. وهو سماع لا علاقة له بالغناء ، كفن جميل ، مباح ومرخص به في الدين .. ولا علاقة بين وظائف هذا ووظائف ذاك .. ولا بين أهل هذا وأهل ذاك !..

وفي موطن آخر من فتاوى ابن تيمية ، وإجابة عن سؤال حول ذات القضية ـ قضية حكم « السماع » ، الذي جعله بعض الصوفية عبادة من العبادات وقُربة من القُربات ـ يقول ابن تيمية : « .. وقول السائل ، وغيره : هل هو ـ (السماع) ـ حلال ؟ أو حرام ؟ لفظ مجمل ، فيه تلبيس ، يشتبه الحكم فيه ، حتى لا يحسن كثير من المفتين تحرير الجواب فيه ، وذلك أن الكلام في السماع وغيره من الأفعال على ضربين :

أحدهما : أنه هل هو محرم ؟ أو غير محرم ؟ بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس ، وإن كان فيها نوع من اللهو واللعب ، كسماع الأعراس وغيرها ، مما يفعله الناس لقصد اللذة واللهو ، لا لقصد العبادة والتقرب إلى الله ؟؟ ..

والنوع الثاني : أن يفعل على وجه الديانة والعبادة وصلاح القلوب ، وتجريد حب العباد لربهم ، وتزكية نفوسهم ، وتطهير قلوبهم ، وأن تحرك من القلوب الخشية والإنابة والحب ، ورقة القلوب ، وغير ذلك مما هو من جنس العبادات والطاعات ، لا من جنس اللعب والملهيات .

فيجب الفرق بين : سماع المتقربين ، وسماع المتلعبين ، وبين السماع الذي يفعله الناس في الأعراس والأفراح ، ونحو ذلك من العادات ، وبين السماع الذي يُفعل لصلاح القلوب ، والتقرب إلى رب السموات ، فإن هذا يُسْأل عنه : هل هو قُربة وطاعة ؟ وهل هو طريق إلى الله ؟ وهل لهم بُدّ من أن يفعلوه لما فيه من رقة قلوبهم ، وتحريك وجدهم لمحبوبهم ، وتزكية نفوسهم ، وإزالة القسوة عن قلوبهم ، ونحو ذلك من المقاصد التي تُقْصَد بالسماع ؟ .. كما أن النصارى يفعلون مثل هذا السماع في كنائسهم على وجه العبادة والطاعة ، لا على وجه اللهو واللعب .

إذا عرف هذا ، فحقيقة السؤال : هل تُباح أن تُجعل هذه الأمور التي هي: إما محرمة ؟ أو مكروهة ؟ أو مباحة ؟ قربة وعبادة وطاعة ، وطريقة إلى الله؟..

ومن المعلوم أن الدين له أصلان ، فلا دين إلا ما شرع الله ، ولا حرام إلا ما حرمه الله ، والله تعالى عاب على المشركين أنهم حرموا ما لم يحرمه الله ، وشرعوا دينا لم يأذن به الله .

ولو سئل العالم عمن يعدو بين جبلين : هل يباح له ذلك ؟ قال : نعم ، فإذا قيل : إنه على وجه العبادة ، كما يسعى بين الصفا والمروة ؟ قال : إن فعله على هذا الوجه حرام منكر ، يستتاب فاعله ، فإن تاب وإلا قتل ! ..

ولو سئل : عن كشف الرأس ، ولبس الازار والرداء ؟ أفتى بأن هذا جائز ، فإذا قيل : إنه يفعله على وجه الإحرام ، كما يحْرِم الحاج ؟ قال : إن هذا حرام منكر ..

وكذلك لو دخل الرجل إلى بيته من خلف البيت ، لم يحرم عليه ذلك ، ولكن إذا فعل ذلك على أنه عبادة ، كما كانوا يفعلونه في الجاهلية ؟ كان أحدهم إذا أحرم لم يدخل تحت سقف ، فنهوا عن ذلك ، كما قال تعالى : (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها) [٢١] فبيّنَ سبحانه أن هذا ليس ببر ، وإن لم يكن حراما، فمن فعله على وجه البر والتقرب إلى الله كان عاصيا ، مذموما مبتدعا، والبدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن العاصي يعلم أنه عاص فيتوب ، والمبتدع يحسب أن الذى يفعله طاعة ، فلا يتوب .

ولهذا ، من حضر السماع للعب واللهو ، لا يعده من صالح عمله ، ولا يرجو به الثواب ، وأما من فعله على أنه طريق إلى الله تعالى فإنه يتخذه دينا ، وإذا نُـهى عنه كان كمن نُـهى عن دينه ، ورأى أنه قد انقطع عن الله ، وحرم نصيبه من الله تعالى إذا تركه .

فهؤلاء ضلال باتفاق علماء المسلمين . ولا يقول أحد من أئمة المسلمين : إن اتخاذ هذا دينا وطريقا إلى الله تعالى أمر مباح ، بل من جعل هذا دينا وطريقا إلى الله تعالى فهو ضال ، مفتر ، مخالف لإجماع المسلمين ، ومن نظر

إلى ظاهر العمل وتكلم عليه ، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيته كان جاهلا متكلما فى الدين بغير علم ! » (٢٢)

هذا هو رأى شيخ الإسلام ابن تيمية ، الذى يحسبه البعض قمة التشدد فى الفتيا ! .. والذى يستند إلى فتاواه أغلب الذين يطلقون الأحكام بتحريم مطلق الغناء ؟! ..

إنه يحدد فى وضوح وحسم : أن « من حضر السماع ، لا يعده من صالح عمله ، ولا يرجو به الثواب » فعمله هذا مباح فى ذاته ... أما من يرى فى السماع « ديانة ، وعبادة » فذلك هو الابتداع فى الدين ، وهو حرام بإجماع المسلمين!..

والأمر الذى يقطع بأن ما عالجته وحرمته فتاوى ابن تيمية ، فى هذا الأمر ، إنما كان شيئا مغايرا كل المغايرة للغناء ـ كفن من فنون جماليات السماع ـ اقترن هذا السماع المُحْدَث ـ الذى سُئل عنه ـ بكثير من العادات الجاهلية .. فلقد « سئل : عن أقوام يرقصون على الغناء بالدف ، ثم يسجد بعضهم لبعض على وجه التواضع ، هل هذا سنة ؟ أو فعله الشيوخ الصالحون ؟!.. (فأجاب) : لا يجوز السجود لغير الله ، واتخاذ الضرب بالدف والغناء والرقص عبادة هو من البدع التى لم يفعلها سلف الأمة ولا أكابر شيوخنا ..

إن هذا السماع المحدث هو من جنس سماع المشركين ، وهو إليه أقرب منه إلى سماع المسلمين ، وإن قد غلط فيه قوم من صالحى المسلمين ، فإن الله لا يضيع أجرهم وصلاحهم لما وقع من أخطائهم ، فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر واحد » (٢٣)

فمع البدعة فى الدين ، التى جعلوا بها هذا الغناء عبادة وقربة إلى الله ، جاءوا بهذه العادات الجاهلية التى قرنوها به .. والتى أفاض فى وصفها وتعدادها ابن تيمية فى فتاواه ..

لقد كان عصر شيوع البدع الباطنية التى كادت أن تُغَبِّش صفاء العقيدة الإسلامية فى التوحيد .. وكان ابن تيمية أبرز فرسان الدفاع عن نقاء هذا التوحيد ، جوهر العقيدة والشريعة والحضارة فى النسق الفكرى للإسلام والمسلمين.

● وبعد ابن تيمية (٦٦١ ـ ٧٢٨ هـ ـ ١٢٦٣ ـ ١٣٢٨ م) يأتى الشاطبى (٧٩٠ هـ ـ ١٣٨٨ م) ـ وهو من أبرز أئمة الاجتهاد فى المذهب المالكى ، بالمغرب العربى والأندلس ـ ليؤكد ذات الموقف الفكرى من السماع.. فيتحدث عن أن « الغناء والدف قد أُبيح فى العرس ونحوه ، وأُبيح الحداء وغيره .. » (٢٤) .. ثم يعرض لمكونات الغناء ـ كفن من الفنون ـ وكيف أنه يتألف من تحالف وائتلاف النغم الجيد مع المغنى الطيب ، وأنه عندئذ ـ يثمر حكمه القلوب ورقة الطبائع معا .. أما إذا غاب المعنى الطيب ، ولم يبق منه إلا النغم ، فإن ثمرته تقف عند تحريك الطبائع ، الحركات التى لا رقة فيها ولا تواجد .. يعرض الشاطبى لهذه المعانى عندما يقول : « إن الشعر المُغَنَّى به قد اشتمل على أمرين :

أحدهما : ما فيه من الحكمة والموعظة ، وهذا مختص بالقلوب ، ففيها تعمل ، وبها تنفعل . ومن هذه الجهة ينسب السماع إلى الأرواح .

والثانى : ما فيه من النغمات المرتبة على النِّسَب التلحينية ، وهو المؤثر فى الطبائع ، فيهيجها إلى ما يناسبها ، وهى الحركات على اختلافها ، فكل

تأثر فى القلب من جهة السماع تحصل عنه آثار السكون والخضوع ، فهو رقة ـ وهو التواجد ـ وكل تأثر يحصل عنه ضد السكون ، فهو طرب لا رقة فيه ولا تواجد .. » (٢٥)

* * *

تلك هى مذاهب الإسلاميين فى جماليات السماع ، عرضنا فيها الأمر على النحو الذى أحاط بجوانب القضية .. من القرآن الكريم .. إلى السنة النبوية الشريفة .. إلى تجربة دولة النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ والخلافة الراشدة.. إلى عصر ومذاهب الأئمة المؤسسين للمذاهب الفقهية الكبرى .. إلى نماذج من فكر أئمة الاجتهاد الذين أولوا هذا الأمر مزيد عناية واهتمام ، على اختلاف مذاهبهم .. ومواطنهم .. وتعاقب العصور التى عاشوا فيها .. فإذا نحن ، بعد هذه الرحلة الفكرية ، مع موقف الإسلام من جماليات السماع ، بإزاء مذهب واحد ، لا خلاف فيه .. وهو إباحة الغناء فى ذاته ، لا يكره ولا يحرم إلا بعارض يعرض عليه ، يخرجه عن المقاصد الطيبة التى يستهدفها منه الأسوياء من الناس .. إنه كلام ولحن وأداء ، الحَسَن منه حَسَن ، والقبيح منه قبيح .. على هذا أجمع أعلام الأئمة المجتهدون .. كما أجمعوا ، أيضا ، على حرمة كل ابتداع فى عبادات الدين وشعائره ، ومن هنا كان إجماعهم ، كذلك ، على تحريم ذلك السماع المُحْدَث ، الذى جعلته «الغنوصية ـ الباطنية ـ الصوفية » دينا يتدينون به ، وقُربة يتقربون بها إلى الله ! ..

ذلك هو موقف الإسلام وأئمته ، لا اختلاف فيه ، على عكس ما يشيع أولئك الذين يهرفون ، فى هذا الأمر ، بما لا يعرفون ؟ ! ..

* * *

الهوامش

(١) (نهاية الأرب) جـ ٤ ص ـ ١٦٠ ـ وانظر كذلك ص ١٣٢ وما بعدها .

(٢) د. محمد عمارة (معارك العرب ضد الغزاة) ص ١١٦ ـ ١١٨ طبعة دمشق ـ دار قتيبة ـ ١٤٠٨ هـ ـ سنة ١٩٨٨ .

(٣) (الاعتصام) جـ ١ ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ . تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا . طبعة مكتبة أنس بن مالك ـ القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ .

(٤) ابن سعد (الطبقات الكبرى) جـ ٣ ق ١ ص ٢٠٥ . طبعة دار التحرير . القاهرة .

(٥) المصدر السابق : جـ ٣ ق ١ ص ٢٠٤ ، ٢٠٥ .

(٦) المصدر السابق : جـ ٣ ق ١ ص ٢٠٥ .

(٧) انظر في ذلك : الشاطبي (الاعتصام) جـ ١ ص ٢٧٣ . والقرطبي (الجامع لأحكام القرآن) جـ ١٤ ص ٥٥ . وابن تيمية (مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية) جـ ١١ ص ٥٦٩ . طبعة المملكة العربية السعودية . ويؤكد ذلك ما ذكره الغزالي ـ وهو شافعي المذهب ـ عن رأي إمام مذهبه ـ فلقد قال : « وأما الشافعي ، فليس تحريم الغناء من مذهبه أصلاً ، وقد قال في الرجل يتخذه صناعة لا تجوز شهادته، وذلك لأنه من اللهو المكروه الذي يشبه الباطل .. وإن لم يكن محرمًا بَيِّنَ التحريم .. واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان في بيت عائشة ، رضي الله عنها » انظر (إحياء علوم الدين) ص ١١٤٧ ـ والنص بكامله موجود في سياقه بملحق هذا الكتاب .

(٨) انظر : هنري كوربان (السهروردي المقتول ، مؤسس المذهب الاشراقي) ، ص ٩٩ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١١ ، ١٣٢ ـ بحث منشور في كتاب (شخصيات قلقة في الإسلام) للدكتور عبد الرحمن بدوي . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م . وانظر كتابنا (الغزو الفكري .. وهم أم حقيقة ؟) ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨ . طبعة القاهرة سنة ١٩٨٩ م .

(٩) (إحياء علوم الدين) ص ١١٢٦ ـ وانظر : النص فى مكانه بملحق الكتاب ..

(١٠) المصدر السابق : ص ١١٣٨ ، ١١٣٩ ـ وانظر النص فى مكانه من ملحق هذا الكتاب..

(١١) المصدر السابق : ص ١١٣٩ ـ ١١٤٢ ـ وانظر هذا النص فى مكانه من ملحق هذا الكتاب ..

(١٢) المصدر السابق : ص ١١٨٣ ـ وانظر هذا النص فى مكانه من ملحق هذا الكتاب ..

(١٣) المصدر السابق . ص ١١٤٢ ـ ١١٤٧ ـ وانظر هذا النص فى مكانه من ملحق هذا الكتاب..

(١٤) الشاهين آلة موسيقية ـ والكلمة فارسية الأصل ـ ومن معانيها : عمود الميزان . والشاهين : من طيور الصيد الجوارح .

(١٥) المصدر السابق : ص ١١٣٤ ـ وانظر هذا النص فى مكانه من ملحق هذا الكتاب .

(١٦) المصدر السابق : ص ١٣٢ ـ ٣٣ ـ وانظر هذا النص فى مكانه من ملحق هذا الكتاب.

(١٧) المصدر السابق : ص ١١٥٢ ـ ١١٥٣ ـ وانظر هذا النص فى مكانه من ملحق هذا الكتاب .

(١٨) المصدر السابق : ص ١١٣١ ـ ١١٣٢ ـ وانظر هذا النص فى مكانه من ملحق هذا الكتاب .

(١٩) الأنفال : ٣٥ .

(٢٠) (مجموع فتاوى ابن تيمية) جـ ١١ ص ٥٥٧ ـ ٥٦٢ ، ٥٦٥ ـ ٥٦٨ .

(٢١) البقرة : ١٨٩ .

(٢٢) (مجموع فتاوى ابن تيمية) جـ ١١ ص ٣٣٠ ـ ٣٣٣ .

(٢٣) (مجموع فتاوى ابن تيمية) جـ ١١ ص ٦٠٤ ، ٥٩٧ .

(٢٤) (الاعتصام) جـ ٢ ص ٨٩ .

(٢٥) المصدر السابق : جـ ١ ص ٢٨١ .

❋ ❋ ❋

الفصل الرابع
جَمَاليَّات الصُّوَر

أما « خصام » المنهج الإسلامى مع « فنون التشكيل » ـ رسماً ونحتًا وتصويرًا ـ والذى يحسبه الكثيرون خصامًا حقيقيًا .. فإن هذا الحسبان ، هو الآخر ، ليس أكثر من وهم من الأوهام ! .. وسبيلنا إلى إزالة هذا الوهم ، ونفى هذا الخصام ، هو النظر فى المصادر النقية والجوهرية لهذا المنهج ـ القرآن والسنة ـ ثم الاستئناس بآراء واجتهادات بعض الفقهاء ـ القدماء والمحدثين ـ فى هذا الموضوع .. وذلك وصولاً إلى جلاء الموقف الحقيقى للمنهج الإسلامى من فنون الرسم والنحت والتصوير ..

* * *

فى القـرآن الـكريم

وبادئ ذى بدء .. فإن القرآن الكريم لم يتخذ من التصوير للأحياء موقفًا معاديًا بإطلاق وتعميم .. بل لقد أناط الأمر بالمقاصد والغايات والنتائج والثمرات .. فإذا كانت الصور والتماثيل وسائل للشرك بالله ،

وسبلاً ينحرف البعض بتعظيمها عن عقيدة التوحيد ، كان الرفض لها والتحريم لصنعها هو موقف القرآن .. أما إذا كانت لمجرد الزينة والتجمل والجمال ، ولإبراز براعة الإنسان وقدرته ، ولتجميل الحياة ، وتنمية الحس الجمالي عند الإنسان ، وكذلك إذا كانت لتخليد القيم والمعاني والمآثر الطيبة والجميلة .. الخ .. الخ .. فإنها عندئذ تصبح من الطيبات المباحة ، بل والمقصودة المرغوبة ، باعتبارها من نعم الله على الإنسان !.

ولقد عرض القرآن الكريم للحديث عن « التماثيل » ـ صراحة وبالنص ـ في مواطن ثلاث .. وجاء حديثه عنها في أحد هذه المواطن حديث الرافض المحرم .. وفي الثاني حديث العادّ لها من نعم الله على الإنسان . وفي الثالث حديث العادّ لها معجزة لنبي من أنبياء الله !..

ففي سورة « الأنبياء » وبصدد الحديث عن قوم إبراهيم ، عليه السلام ، أولئك الذين اتخذوا التماثيل أصنامًا عبدوها من دون الله ، جاء حديث القرآن معاديًا لهذه التماثيل ، ومن ثم ـ بالتبعية ـ لصناعتها عندما تستهدف هذا الشرك بالله ـ (ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . إذ قال لأبيه وقومه : ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون ؟ . قالوا : وجدنا آباءنا لها عابدين . قال : لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين . قالوا : أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين ؟ . قال : بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن وأنا على ذلكم من الشاهدين) .

ولم يقف الموقف القرآني من هذه « التماثيل » عند حد التسفيه بالقول والحجة والمنطق ، بل لقد أراد الله لنبيه إبراهيم أن يحطم هذه « التماثيل » ويمحو وجود هذه الأصنام .. فاستمر سياق القرآن يتحدث عن قول

إبراهيم ، عليه السلام ، لقومه : (وتالله لأكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين . فجعلهم جذاذًا إلا كبيرًا لهم لعلهم إليه يرجعون)[١].

وما صنعه إبراهيم مع « التماثيل » المعبودة ، هو ما صنعه خاتم المرسلين محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، عندما طهّر شبه الجزيرة العربية من كل أثر لها ، وأذّن فى الناس ، يومئذ ، وهو يحطمها ، قائلاً : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) ![٢].

أما الموطن الثانى الذى عرض فيه القرآن ـ باللفظ ـ للحديث عن التماثيل، فكان فى معرض تعداد نعم الله سبحانه على نبيه سليمان ، عليه السلام ، فلقد ذكر القرآن « التماثيل » ، وصنعها وصانعيها باعتبارها من نعم الله على نبيه سليمان ! .. فهو قد سخّر له الريح .. وأتاح له عينًا تفيض بالنحاس المذاب ـ (القِطْر) ـ .. وسخر له الجنّ تصنع له بعضًا من زينة الحياة الدنيا وجمالها : بيوتًا عالية . (محاريب) وحُفرًا كبيرة ـ (جفان)ـ.. وقدورا راسيات .. وأيضًا : « تماثيل » من زجاج ونحاس ورخام ، تصور الأحياء ، بل وتصور الأنبياء والعلماء ! ـ كما يقول المفسرون ـ[٣] ! .. (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر وأسلنا له عين القطر ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، اعملوا آل داود شكرًا وقليل من عبادى الشكور)[٤]..

« فالتماثيل » ، هنا ـ وعند انتفاء مظنة عبادتها ـ هى من نعم الله على الإنسان ، وعاملها وصانعها إنما يعملها (بإذن ربه) .. وعلى الذين أنعم الله عليهم بهذه النعمة مقابلتها بالشكر لله ـ وأحد مظاهره : اكتشاف ما فيها من جمال ! .

أما الموطن الثالث ، الذى ورد فيه حديث القرآن عن تماثيل الأحياء ، فذلك الذى جاء فيه الحديث عن معجزات نبى الله عيسى بن مريم ، عليهما السلام (ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل . ورسولاً إلى بنى إسرائيل أني قد جئتكم بآية من ربكم ، أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله ..) (٥) ... (إذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتي عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرًا بإذني ..)(٦).

فهى ، هنا ، وحيث لا مظنة للشرك ، ولا خطر على التوحيد : آية من آيات الله ، ونعمة من نعمه على عيسى ، عليه السلام . إذن فموقف القرآن الكريم من التصوير والتماثيل ، للأحياء ، ليس واحدًا ، وليس عامًا ، وليس مطلقًا .. فحيثما تكون سبيلاً للشرك بالله ـ شركًا جليًا أو خفيًا ـ فهى حرام ، والواجب تحطيمها .. أما عندما تنتفى مظنة عبادتها وتعظيمها والشرك بواسطتها ، فهى عندئذ ، من نعم الله ، التى يجب على الإنسان أن يقصد إليها، وأن يتخذ منها سبيلاً لترقية حسه وتجميل حياته ، وتزكية القيم الطيبة وتخليدها .

هذا عن موقف القرآن الكريم من فنون التشكيل ـ والتى يقاس الرسم منها والتصوير على التماثيل ـ .

* * *

بل إننا إذا نظرنا فى البلاغ القرآنى ، وأمعنا النظر فى أساليبه فى التعبير عن المعانى التى يريد الله إبلاغها إلى العالمين ، فستجد فى هذه الأساليب

السبل والوسائل والأدوات التى يعتمدها القرآن لتنمية الحاسة الجمالية لدى الناظر فى هذا القرآن الكريم .

إن بلاغة القرآن هى بعض من إعجازه .. وهذه الحقيقة لا يمكن إدراكها ووعيها ، ومن ثم الإيمان بها ، إلا من قوم قد ارتقت بهم الحاسة الفنية إلى حيث يدركون ما فى هذا الكتاب من أسرار الإعجاز وفنون البيان .. فالإيمان بالإعجاز القرآنى مرهون بازدهار الحاسة الفنية لدى المسلم ، وبتحول هذه الحاسة إلى قسمة ملحوظة فى الحضارة الإسلامية ، ومن ثم فإن البداهة قاضية بأن يكون القرآن داعيًا يزكى تنمية الحاسة الفنية لدى المسلمين .

وإذا انتقلنا ، فى هذه القضية ، من مجال التعميم إلى ميدان الدراسة الواقعية ، رأينا كيف امتلأت صور القرآن الكريم بما نسميه فى الدراسات الأدبية والفنية بـ : « التعبير بالصور » ، أى رسم الصور الحسية كى تعبر بها آياته عن المقولات والمعانى والأفكار .. فنحن ، فى القرآن ، أمام « لوحات » تعبر بالصور المرئية والمحسوسة عن المعانى والأفكار والمعقولات .. أى أمام « التمثيل » و « التصوير » .

● فعندما يتحدث القرآن الكريم عن الذين كفروا ، فأحبط الكفر أعمالهم، وأضاع الثمار المرجوة من مثلها ، نجده « يمثل » هذه « الفكرة » فيعرضها فى « صور » محسوسة ، و « يرسمها » فى لوحات فنية تراها العين عندما ينطق بكلماتها اللسان ! .. فأعمال هؤلاء الكفار : كرماد هبت عليه الريح العاصفة ، فلم تبق منه لأصحابه كثيرًا ولا قليلاً (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف لا يقدرون مما كسبوا على شىء ، ذلك هو الضلال البعيد)(٧) .

ولوحة فنيه أخرى يصور فيها القرآن الكريم هؤلاء الكافرين الذين جعل تنكبهم عن الحق ودعوته وأهله وهديه بمثابة الصم البكم المعطلة ملكاتهم العقلية ، أما ما يهذون به فليس إلا النعيق ! .. (ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمى فهم لا يعقلون)(٨).

أما اليهود الذين حولوا كتابهم ، التوراة ، إلى « شكل » غاب من ساحتهم ما به من « مضمون » ، فإنهم كمثل الحمار ، يحمل الكتب الثقيلة الكثيرة دون أن يدرى من مضمونها شيئًا أو ينتفع بقليل من هذا المضمون !.. (مثل الذين حمّلوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارًا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، والله لا يهدى القوم الظالمين)(٩).

أما ذلك البائس الذى آتاه الله الآيات ، فانسلخ منها بدلاً من أن يلتزمها ويهتدى بها ، فإن الغواية قد أصابته ببؤس جعل منه مثل الكلب اللاهث فى كل الحالات .. (واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون)(١٠).

أما هؤلاء الذين تركوا الاستنصار والاستعانة بالله وأسبابه وطرقه ، وركنوا إلى غيره ، وَهمًا منهم أن لدى هذا الغير نصرًا يستعيضون به عن نصر القادر الحكيم ، فإن ما يعتمدون عليه لا يعدو ، فى قوته : « قوة » بيت العنكبوت ! .. (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا ، وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون)(١١).

● وطلاب الحياة الدنيا .. أولئك الذين يقفون منها عند حدود اللعب واللهو والزينة والتفاخر بما لا يستقر ولا يثبت ولا يدوم .. يرسم القرآن الكريم لهم ولما اختاروه ووقفوا عنده لوحات تجسد لهم الضياع الذى اختاروا والبؤس الذى ينتظرهم انتظار المصير ! ..فهذا النبات الذى جادت به الصحراء بعد أن زارها المطر ، سرعان ما تصيبه الصفرة ، ثم يصبح حطامًا ! .. (اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الأموال والأولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفرًا ثم يكون حطاما وفى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور)[١٢] .. (واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الارض فأصبح هشيما تذروه الرياح ، وكان الله على كل شىء مقتدرا)[١٣] . (إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهارًا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس ، كذلك نفصل الآيات لقوم يتفكرون)[١٤].

نعم .. كذلك يفصل الله الآيات ..وكذلك يصور القرآن الأفكار فيحيل المعقولات إلى صور محسوسة تعرضها آياته الكريمة فى لوحات ! ..

● أما أولئك الذين يفسدون ثمرات إنفاقهم الأموال بالرياء والسمعة والتفاخر ، عندما يجعلونها المقاصد والغايات من وراء الإنفاق ، فإن إنفاقهم هذا تراب وغبار غطى سطح جبل صخرى أملس ، فالناظر إليه يحسبه ترابًا، لكن وابل المطر سرعان ما يعرى الزيف ويكشف الصلد

ويذهب بثمرات الإنفاق الذى لم يقصد به وجه الله ! .. (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدًا لا يقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين) (١٥) .. أما إذا كان الإنفاق فى سبيل الخير ومصالح الامة وابتغاء مرضاة الله ، كما هو الواجب ، وكما هو شأن المؤمنين ، فإن ثمراته تبقى ، بل وتزدهر وتتضاعف ... (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتًا من انفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير) (١٦).

لوحتان تجسدان الأفكار والمعانى والمعقولات بالصور المرئية والمحسوسة ، تعرضهما الآيتان المتتابعتان : فالتراب الذى يعلو الصخر الأملس سرعان ما يذهب به المطر .. بينما يسبب هذا المطر النماء للحديقة التى تعلو الربوة فتؤتى أكلها ضعفين ، فشتان ما بين الربوتين المتقابلتين ، عندما ينزل المطر عليهما ، فتتحول إحداهما إلى صخرة جرداء ، بينما تصبح الثانية جنة غناء ! ..

● والكلمة .. الفكرة .. كثيرًا ما تتحول فى آيات القرآن الكريم ، بالتمثيل ، إلى صورة محسوسة ، ينمى إبداعها الحاسة الفنية للمتدبرين المتفكرين ! .. (ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون) (١٧).

وفى مقابل هذه الشجرة ، ذات الأصل الثابت الراسخ ، والفروع السامقة

فى السماء ، والتى تعطى طيب العطاء فى كل الأحايين .. فى مقابلها ، وعلى الضد منها ، صورة الكلمة الخبيثة ! .. (ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجْتُثَّت من فوق الأرض ما لها من قرار) ؟!(١٨).

هكذا .. وعلى هذا النحو تتناثر فى القرآن الكريم تلك « الصور » التى تجسد الأفكار وترسم المعقولات وتحول المعانى إلى لوحات فنية تُقرأ باللسان ، وتُرى بالبصيرة ، وترتسم فى المخيلة .. وتكاد أن تلمسها الحواس التى تستشعر جمال إعجاز القرآن الكريم ..

وهكذا .. تتحالف هذه السبل من التعبير الجمالى والتربية الجمالية ، مع صريح موقف القرآن من التماثيل ، كنشاط جمالى ، على بيان الموقف الحقيقى للقرآن الكريم من فنون التشكيل الجمالى - رسماً ونحتًا وتصــويراً - .. وهو الموقف الذى يرى فيه نعمة من نعم الله وآية من آياته ، إذا أمن الناس الشرك والتعظيم لغير الله .

❊ ❊ ❊

والســنة النبــوية

أما موقف السنة النبوية .. فهو الذى يحتاج إلى التفصيل والتفسير والمقارنات .. وذلك لأن أغلب « أدلة » الذين اصطنعوا « الخصومة » بين المنهج الإسلامى وبين هذه الفنون ، كانت أحاديث نبوية ، استند إليها الفقهاء الذين قالوا بالتحريم لهذه الفنون ..

فلقد انطلق عدد من العلماء الذين حرموا الرسم والنحت والتصوير من ظاهر نصوص عدد من الأحاديث النبوية الشريفة ، ليقولوا إن السنة النبوية

قد حرمت الصور والتماثيل للأحياء ـ حيوانات كانت أو إنسانًا ـ وأنها بذلك قد نسخت الإباحة التي كانت لها في شريعة النبي سليمان ، عليه السلام ..

وحتى إذا سلمنا بالقول بالنسخ لهذه الإباحة التي كانت في الشرائع السابقة ، فإننا سنجد أن علة حدوث هذا النسخ هي : تحول الصور والتماثيل ـ في الواقع الذي ظهر فيه الإسلام ـ إلى معبودات ، كما كان حالها لدى قوم إبراهيم ، عليه السلام ، وهو ما لم تكنه زمن نبوة سليمان ... وإذا كانت الأحكام تدور مع عللها والحكمة منها وجودًا وعدمًا ، فإن التحريم للتماثيل والصور سيصبح ، بداهة ، مرهونًا ومشروطًا ومعللاً بمظنة اتخاذها أندادًا تشارك الله في الألوهية والربوبية والتعظيم ، فإذا ما انتفى هذا السبب وزالت هذه المظنة انتفى التحريم ، وعادت الإباحة حكماً للصور والتماثيل ، من جديد ! ..

ولحسن الحظ .. فإن « النظرة الشاملة » ، وأيضًا « الاستقرائية » للأحاديث النبوية التي رويت في « الصور والتماثيل » تؤكد هذا الذي نذهب إليه ، ونقطع بأن التحريم مرهون ومشروط ومعلل بكون هذه الصور والتماثيل مظنة العبادة والإشراك بالله ، كما أنها تفصح عن أن هذه الأحاديث التي تنهى عن « الصور والتماثيل » إنما كانت تعالج شئون جماعة بشرية هي قريبة عهد بالشرك والوثنية ، وحديثة عهد بالتوحيد الإسلامي ، وأن توحيدها لله سبحانه قد خرج بها من هذه الحالة خروج الدواء بالمريض من مرحلة العلة إلى بدايات طريق الشفاء .. فهي قد خرجت من الوثنية وعبادة الصور والتماثيل ، لكنها كانت لا تزال في « دور

الثقافة»، الأمر الذى استدعى تركيز الأحاديث النبوية على النهى عن اتخاذ الصور والتماثيل ، سدّاً للذرائع ، وتقديماً لدفع المضرة على جلب المصلحة ـ وهى قواعد تشريعية إسلامية ـ وذلك كيلا تعود هذه الجماعة إلى مرض الوثنية والشرك من جديد ! ..

وإذا كان ضبط المصطلحات هو مما يعين على دقة الفهم وجلاء القضية ، فإن من الواجب أن ننبه على أن « الصور » فى الأحاديث النبوية التى عرضت لهذه القضية إنما يراد بها « الصنم والوثن المعبود » من قِبَل المشركين .. فلم يكن بمكة أو المدينة ، أو البوادى من حولهما ، يومئذ ، «حركة فنية » ، تصور بالالوان ، أو بآلات التصوير .. كانت الصورة هى « الصنم والوثن»، ينحت نحتًا ، أو يرسم بالنسج على النسيج ، أو بالرسم أو بالحفر على الجدران والأثاث .. ومن هنا ، فإن النهى عن « الصور » وذم « المصورين » هو حديث عن « الأصنام والأوثان » وعن الذين يحترفون صناعة هذه « الاصنام والاوثان » ،وليس حديثًا عن « الصور » و « المصورين » ، بالمعنى الذى يراد اليوم عند الحديث عن فنون التشكيل وفنانيها ، يشهد لهذه الحقيقة الهامة المقارنة بين حديثين شريفين ورد فيهما مصطلح « الصورة » ويفسر ثانيهما الأول على النحو الذى يضبط معنى هذا المصطلح ضبطًا لا سبيل معه إلى التجاوز أو الايهام ..

ففى الحديث الذى يرويه عبد الله بن عمر ، يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « الذين يصنعون هذه الصور يعذبون ، ويقال لهم : « أحيوا ما خلقتم »(١٩) .. أما الضبط لمعنى « الصورة » ، على النحو الذى أشرنا إليه ، فإننا واجدوه فى الحديث الذى يرويه أبو هريرة ، والذى يقول فيه الرسول

ـ صلى الله عليه وسلم ـ ،متحدثًا عن حشر الناس يوم القيامة : « يجمع الناس يوم القيامة فى صعيد واحد ، ثم يطلع عليهم رب العالمين ، ثم يقال : ألا تتبع كل أمة ما كانوا يعبدون ؟ .. فيتمثل لصاحب الصليب صليبه ، ولصاحب الصور صوره ، ولصاحب النار ناره ، فيتبعون ما كانوا يعبدون ، ويبقى المسلمون .. »([٢٠]). فالأمم التى انحرفت عن التوحيد فى الألوهية والربوبية، قد تمثلت لها معبوداتها .. الصليب للنصارى .. والصور ـ أى الأصنام ـ للوثنيين .. والنار للمجوس .. فالصورة ، إذن ، هى « الصنم والوثن » المعبود ـ للمشركين ـ من دون الله .. وليست تلك التى نتعارف عليها اليوم عندما نتحدث عن «الصور » و عن « المصورين » ! ..

وثانية الحقائق التى يجب التنبيه عليها ونحن مقدمون على استعراض المأثورات والأحاديث النبوية التى رويت فى هذا الموضوع ، هى وجوب الاستحضار والتدبر للمناخ والبيئة والإطار الذى قيلت فيه هذه الأحاديث ، وذلك حتى ندرك فيها ومنها المقاصد والعلل والحكم والغايات .. فهى قد قيلت للمؤمنين بالله الواحد ، كانوا حتى الأمس القريب يعبدون الصور والتماثيل .. وهؤلاء المؤمنون كانوا مخالطين بعبدة الصور والتماثيل الذين لم يؤمنوا بعد .. وصناع النسيج والأثاث والأدوات ـ وهم فى الأساس من غير العرب ـ كانوا يزينون مصنوعاتهم ومنسوجاتهم بصور الآلهة ـ (الأصنام) ـ ترويجًا لها فى البيئة الوثنية .. ومن هنا كان النهى عن هذه «الصور » نهيًا عن الوثنية ، ودعوة إلى تنقية المنازل والأندية من صور الأصنام المعبودة فى الجاهلية ، وسعيًا لاجتثاث جذور المرض الوثنى ، وذلك حتى تبرأ هذه الجماعة البشرية تمامًا من الشرك والتعددية ، فتخلص

العبودية لله وحده ، وترسخ في قلوبها عقيدة التوحيد .. ولذلك جاء النهى عن « الصور » التى تمثل الأحياء ـ وهى التى كانت تعبد ـ ولم يحدث نهى عن صور الشجر ، أو تلك التى تحاكي الطبيعة ، إذ لم تكن من المعبودات .. فالمستهدف ليس « الفن » ولا « الجَمال » ، وإنما الوثنية والمسارب التى يمكن أن تؤدي إلى عودة الإشراك بالله مرة أخرى إلى عقائد الناس ! ..

فى إطار هذه الحقائق نقرأ ونفهم قول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من صور صورة عذب يوم القيامة حتى ينفخ فيها ، وليس بنافخ » (٢١) .. أى حتى ينفخ فيها الروح فيحييها ..وأنَّـى له أن يصنع ذلك ! ..

ولقد جاء رجل من أهل العراق ، كان يحترف التصوير ، جاء إلى عبد الله ابن عباس ، فقال له : « يا بن عباس ، إنى رجل أصور هذه الصور ، وأصنع هذه الصور ، فافتنى فيها ؟ » .. فقال له ابن عباس : « أنبئك بما سمعت من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ سمعت رسول الله يقول : كل مصوّر فى النار ، يجعل له بكل صورة صورها نفس تعذبه فى جهنم » ! .. ثم استطرد ابن عباس فأشار على الرجل أن يصور ما لا حياة فيه ، فيمارس «الفن الجميل» ، فى غير ما هو مظنة الوثنية ، مما جاء فيه النهى والتحريم .. فقال للرجل : «.. فإن كنت لابد فاعلا ، فاجعل الشجر وما لانفس فيه..»(٢٢)

ولقد وضع الرسول –صلى الله عليه وسلم – هذا الحكم وهذا الموقف موضع التطبيق ، فقاد المسلمون حملة إزالة وتحطيم لصور المعبودات الوثنية وتماثيلها .. صنعوا ذلك بالمدينة – قبل فتح مكة وتطهير الكعبة ـ .. ففى الحديث الذى يرويه على بن أبى طالب ، يقول : « كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم – فى جنازة ، فقال : أيكم ينطلق إلى المدينة فلا يدع بها وثنا إلا

كسره ولا قبرا سواه ولا صورة إلا لطخها ؟ . فقال (سبعة) : أنا ، يا رسول الله ، فانطلق ثم رجع ، فقال : يا رسول الله ، لم أدع بها وثنا إلا كسرته ، ولا قبرا إلا سويته ، ولا صورة إلا لطختها . ثم قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : من عاد لصنعة شيء من هذا فقد كفر بما أُنزل على محمد .. » (٢٣).

فالإزالة والتحطيم ، هنا ، كانت لرموز وثنية ، بما فيها القبور المعظمة وشواهدها ! .. ويوم فتح مكة .. أمر النبى - صلى الله عليه وسلم - عمر بن الخطاب أن يتقدمه إلى الكعبة فيزيل من داخلها الصور والتماثيل المعبودة والمعظمة ، والتى كانت تمثل إبراهيم وإسماعيل ومريم ، عليهم السلام ..

فعن ابن جريج : « .. أن النبي - صلى الله عليه وسلم - نهى عن الصور فى البيت ، ونهى الرجل أن يصنع ذلك . وأنه أمر عمر بن الخطاب ، زمن الفتح ، وهو بالبطحاء ، أن يأتى الكعبة فيمحو كل صورة فيها ، ولم يدخل البيت حتى مُحيت كل صورة فيه ... » (٢٤).

ويروى ابن عباس أن النبي - صلى الله عليه وسلم - « لما رأى الصور فى البيت - (يعنى الكعبة) - لم يدخل ، وأمر بها فمحيت . ورأى - (صور) - إبراهيم وإسماعيل ، عليهما السلام بأيديهما الأزلام (٢٥) ، فقال : قاتلهم الله! والله ما استقسما بالأزلام قط » (٢٦).

وفى البخارى أن عمر بن الخطاب كان يمتنع عن دخول الكنائس من أجل ما فيها من التماثيل والصور المعبودة « وكان ابن عباس يصلى فى البيعة إلا بيعة فيها تماثيل » .

فالنهى والتحريم ، فى النظرية والتطبيق ، يستهدف مظان الشرك ، وشراك الوثنية ، والروافد التى تحفظ الحياة لنقيض عقيدة التوحيد ، أو

تغيش نقاء هذا التوحيد !.. وليس التصوير أو النحت أو الرسم ، كفن من فنون الجَمال .. فالأول ـ مصادر الشرك ورموزه ومظانه ـ بينه وبين التوحيد الاسلامي العداء الدائم والتناقض القائم والصراع الذى لايزول .. أما الفن التشكيلي ـ رسما ونحتا وتصويرا ـ فإنه لون من ألوان النشاط الجَمالي للانسان ، يدور الحكم فيه والموقف منه مع علته وحكمته وغايته ومنفعته وجودا وعدما ، إن في الإباحة أو الاستحباب ، أو المنع ، كراهة أو تحريما..

فإذا ما جئنا إلى التجربة العملية ـ وأيضا الذاتية ـ لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع الصور ، وفي داخل بيته ، ومع أهله ، رأينا ألاحاديث التى تحكي هذه التجربة شاهدة على هذا الذي نقول .. فعندما تكون الصور مظنة شبهة الإيحاء بتعظيمها ، أو تمثل شاغلا يعرف المصلى عن الحضور المستغرق في صلاته ومثوله بين يدي مولاه ، أو مظنة شبهة الإيحاء بأن التوجه في الصلاة إنما هو إليها !.. عندما يكون ألامر ذلك ، أو نحوا منه ، أو موهما لشيء مما يحتويه ، يكون نهي الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنها ، ودعوته لإزالتها .. فإذا ما تحولت هذه الصور عن أماكنها هذه ، فزالت عنها تلك المظنة والشبهة ، غدت مقبولة في بيت النبوة ، بل وأصبحت مما يستخدمه الرسول عليه الصلاة والسلام !..

فعائشة ، أم المؤمنين ، تروى الحديث فتقول : « قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من سفر ، وقد اشتريت نمطا ـ (ثوبا من صوف ـ أو : بساطا) ـ فيه صورة ، فسترته على سهوة بيتي (السهوة : الرف ، أو الطاق، أو الكُوّة) ـ فلما دخل ـ صلى الله عليه وسلم ـ كره ما صنعت ، وقال:

تسترين الجُدُر يا عائشة ؟ .. فطرحته ، فقطعته مرفقين ـ (وسادتين) ، فقد رأيته متكئا على إحداهما وفيها صورة »[٢٧].

فكراهة الرسول ، هنا للصورة قد ارتبطت بكونها ترفا يستهدف مجرد ستر الجُدُر ! وبكونها ، بهذا الوضع فى مثل هذا الموقع مما يستقبله المصلى ، فتشغله ، أو توهم بمظنه استقبالها فى الصلاة ! .. فلما انتقلت الصورة إلى الوسادة ، لم يكرهها رسول الله ، ولم ينه عنها ، بل استخدم الوسادة «وفيها الصورة » ، كما تقول عائشة فى الحديث ! .

ويؤكد هذا التفسير ـ هذا إذا كان محتاجا إلى تأكيد ؟! ـ حديث الصاحبى أنس بن مالك ـ وهو خادم الرَّسول ، العارف بشئون منزله ـ الذى يقول فيه : «كان قرام ـ (ستر) ـ لعائشة قد سترت به جانب بيتها ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أميطى عنا قرامك هذا ، فإنه لا تزال تصاويره تعرض لى فى صلاتى »[٢٨]!.. فالنهى خاص ومعلل بمكان وضعه ، والسبب فى إزالته هو أن تصاويره تعرض أمام الرسول إذا قام للصلاة .. أى أن العلة هى قصد الابتعاد عن ما يشغل المصلى عن الصلاة ، وإزالة كل ما من شأنه إيجاد شبهة مظنة التعظيم لغير الله !..

ولذلك .. فعندما تزول هذه الشبهات وهذه المظان وهذه المحاذير عن الصور والتماثيل ، فإن الحكم فيها والموقف منها يتغير بالتأكيد .. فليس القصد هو تحريم الصور والتماثيل ، إذا كانت فنا جميلا يرتقى بالحاسة الفنية والمشاعر الجمالية للانسان ، لمجرد أنها فن ، وبعلة أنها صور وتماثيل !..

وإذا كان القرآن الكريم ـ كما سبقت إشارتنا ـ قد حكى لنا نبأ التماثيل

فى عهد النبى سليمان ، عليه السلام ، باعتبارها نعما إلهية ، يصنعها صانعوها بإذن الله ، فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحدثنا عن سوق فى الجنة كل بضاعتها الصور ، صور النساء والرجال ! .. ففى الحديث الذى يرويه على بن أبى طالب ، يقول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن فى الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من النساء والرجال ، فإذا اشتهى الرجل صورة دخل فيها ..» (٢٩) .. فهى ، هناك لن تقود إلى شرك أو وثنية .. ومن ثم فهى حلال .. بل ونعمة من نعم الله ، سبحانه وتعالى ، على الصالحين من عباده فى جنات النعيم .

بل ان مجتمع المدينة ذاته ، ذلك الذى شهد التحريم للصور ـ نظريا وعمليا ـ عندما كانت مظنة الشرك بالله والتعظيم لسواه ـ إن هذا المجتمع ذاته قد تغيرت نظرته للصور والتماثيل عندما أخذ يبرأ من مرض الوثنية والتعدد فى المعبود .. فعندما دخل المسور بن مخرمة على عبد الله بن عباس «يعوده فى مرض مرضه ، فرأى عليه ثوب أستبرق وبين يديه كانون عليه تماثيل ، فقال له : يا ابن عباس ! ما هذا الثوب الذى عليك ؟! قال : وما هو ؟!. قال: استبرق ! . قال : والله ما علمت به ، وما أظن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عنه إلا للتجبر والتكبر ، ولسنا بحمد الله كذلك . قال : فما هو الكانون الذى عليه الصور ؟! .. قال ابن عباس : ألا ترى كيف أحرقناها بالنار » ؟! (٣٠).

فابن عباس ، هنا يجتهد فيرى أن علة تحريم لبس الاستبرق هى التجبر والتكبر ، فإذا زالت العلة زال التحريم .. ويجتهد ، كذلك ، فيرى أن علة تحريم التماثيل هى التعظيم لها ، أو شبهة التعظيم والعبادة لها من دون الله

فأما وقد وضعت حيث لا تعظيم لها ، وأما وقد أمن الناس من مظنة عبادتها وغدت مجرد حلية يتزين بها الكانون ، فإنه لاتحريم !..

وعندما ينزع الصحابي أبو طلحة الأنصاري نمطا - (ثوبا من صوف - سترا) من على فراشه ، فيسأله الصحابي - سهل بن حنيف : « لم تنزعه ؟!» فيقول : لأن فيه تصاوير ، وقد قال فيها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ما قد علمت ! » يرد عليه سهل بن حنيف قائلا : « أو لم يقل الرسول : إلا ما كان رَقْماً فى ثوب ؟! (٢١) .. فنعلم من ذلك أن النهي ليس مطلقا ، وأن ما كان مقصودا به منفعة الزينة والجمال - من الصور - وبعيدا عن شبهات مظان الوثنية والشرك والعبادة - كالصور إذا كانت « رَقْماً فى ثوب » أى نقشا يزينه ويجمله - فلا نهي عنه ، فى هذا الحال ، ولا تحريم له !..

إذن ... فالسنة النبوية ، مثلها فى ذلك مثل القرآن الكريم ، لا تحرم الصور والتماثيل على التعميم والاطلاق .. وإنما التحريم فيها ، كالتحريم فى القرآن الكريم ، خاص ورهن ومشروط بالمواطن التى تصبح فيها الصور والتماثيل شراكا للشرك وحبالا للوثنية وسبلا لتعظيم غير الله .. أما إذا كانت للمنفعة ، وتجميل الحياة وزينتها المشروعة ، وتخليد القيم الفاضلة وتزكيتها ، وتنمية مشاعر الجمال الانسانية .. فإن موقف السنة النبوية يصبح معها ، لا ضدها ، لأنها ، بذلك ، تنتقل من الأمور الضارة إلى حيث تصبح واحدة من نعم الله على الإنسان !..

* * *

صحيح أن « مزاج الروح الإسلامية » لم يتح - عبر تاريخ الحضارة الإسلامية - لفن النحت للتماثيل الإنسانية أن يزدهر ، بل أن يكون مقبولا

ولا مألوفا .. فغابت التماثيل المنحوتة للإنسان من حياة الحضارة الإسلامية ، منذ أن طوى الإسلام صفحتها الجاهلية ـ والتى كانت هى الأخرى مجلوبة من خارج شبه الجزيرة العربية ، من مواطن تأثير الوثنيات الهندية واليونانية والرومانية (٣٢) ، .. غابت التماثيل المنحوتة من حياة حضارتنا الإسلامية ، منذ طي هذه الصفحة الجاهلية ، وحتى صفحة الاتصال الحديث والمعاصر بالطور الغربى الحديث للوثنية اليونانية القديمة؟!.. ذلك الاتصال الذى تم فى ظل هيمنة الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لعالم الإسلام .. حتى لقد رأينا اللجنة التى تكونت ، بمصر ، لتخليد ذكرى على باشا مبارك (١٢٣٩ ـ ١٣١١هـ ـ ١٨٢٣ ـ ١٨٩٣م) عقب وفاته ، تعدل عن إقامة تمثال له ، بعد أن اجتمع لها المال الذى جمع لذلك ، وتختار أن تقيم به بدلا من التمثال ـ مدارس لتعليم الأيتام أبناء الفقراء .. معللة ذلك ـ على لسان رئيسها الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣هـ ـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥م) ـ « بأن معظم الأمة المصرية يعد التماثيل إهانة لا تكريما ، ويسمون التمثال : « الصورة الممسوخة »(٣٣).

صحيح أن هذا هو « مزاج الروح الإسلامية » تجاه نحت التماثيل للآدميين ، كما تجلى فى تاريخنا الحضارى ، وصحيح ، كذلك ، أن المناخ الفارسى ، الذى ازدهر فيه التصوير الدينى ـ وخاصة فى الدولة الايلخانية المغولية (٦٥٤ ـ ٧٥٤ هـ ـ ١٢٥٦ ـ ١٢٥٣ م) ، تلك التى حكم فيها خلفاء جنكيز خان (٥٦٢ ـ ٦٢٤ هـ ـ ١١٦٧ ـ ١٢٢٧ م) ـ وفى الدولة التيمورية (٧٧١ ـ ٩٠٥ هـ ـ ١٣٦٩ ـ ١٥٠٠م) التى أسسها تيمورلنك (٧٣٦ ـ ٨٠٧ هـ ـ ١٣٣٦ ـ ١٤٠٥م) ـ والتى خلّفت لنا ـ فى التصوير ـ لوحات

«معراج نامة» وغيرها من المصورات الدينية اللاإسلامية (٣٤) ... صحيح أن التأثيرات البوذية والمسيحية، في هذه الصور، تقيم بينها «مزاج الروح الإسلامية» في التصوير حجابا غير رقيق؟!..

لكن.. ومع صحة كل ذلك، فلقد ازدهر فن الرسم الإسلام، تصويرا وحفرا، ذلك الذي انطبع بالطابع الإسلامي الخاص.. ازدهر في المنمنمات، والتوريق والتلوين، والزخرفة، والتكعيب الهندسي، وفي استخدام جماليات الخط العربي.. إلخ.. إلخ فعبر عن تميز الروح الإسلامية في أساليب التعبير عن جمالياتها - وهذا أمر طبيعي في تمايز الأمم في وسائل وأشكال التعبير عن مذاهبها في الجمال...

كذلك، فإن هذا التميز الإسلامي، لم يمنع من ازدهار فن الحفر والتصوير لأشخاص الأحياء، ذلك الذي حفل به تراث الإسلام وإبداعه الحضاري.. فازدانت القصور والخانات والأسواق والمكتبات والمدارس والمناظر والحمامات والمقابر والأسبلة والسقف والأبواب والنوافذ والسيوف والعصي والبسط والستائر والاثاثات والآنية والادوات وأغلفة المخطوطات وصفحاتها.. إلخ.. إلخ.. ازدانت بصور الأحياء، محفورة ومصورة، وعلى نحو رائع وبديع..

كذلك فإن النقود الإسلامية، قد مثلت معرضا دائما للتصوير الإسلامي، على امتداد التاريخ.. فلم يتحرج كثير من الخلفاء والسلاطين والولاة عن تصوير صور الأحياء - إنسانا وحيوانا - على النقود والفلوس.. وتعامل بها العلماء والجمهور.

ويذكر الذين أرخوا لنشأة النقود الإسلامية، وأوزانها، وأشكالها، في

هذا المقام حقائق ووقائع ، منها :

● أن عمر بن الخطاب (٤٠ ق . هـ ـ ٢٣ هـ ـ ٥٨٤ ـ ٦٤٤ م) ـ كما يقول الدميرى ـ سك « نقوداً على الطريقة الفارسية ، عليها صورة الملك الفارسي » .

● وأن معاوية بن أبي سفيان ـ كما يقول المقريزي ـ سك « دنانير عليها تمثال رجل متقلدا سيفا » .

● وأن عبد الملك بن مروان (٢٦ ـ ٨٦ هـ ـ ٦٤٦ ـ ٧٠٥ م) سك دراهم ودنانير ، فى سنة ٧٦هـ ـ سنة ٦٩٥م عليها صورة الخليفة ، قائما قابضا بيده على قبضة سيفه .. « وكان الإمام الفقيه سعيد بن المسيب (١٣ ـ ٩٤هـ ـ ٦٣٤ ـ ٧١٢ م) يبيع بها ويشترى ، ولا يعيب من أمرها شيئا .. »ـ وهو أحد الفقهاء السبعة المقدمين فى المدينة المنورة ـ .

● وفى المغرب ، أثناء حكم واليها الأول : موسى الناصر ، وجد فلس مضروب على عهده ـ فى طنجة ـ عليه صورة إنسان ملتفت إلى اليمين ، وشعار : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله .

● وبعد أربعة قرون اختفت فيها الصور من النقود ، عادت إليها مرة أخرى ، فوجدت نقود مضروبة أوائل القرن السادس الهجرى ، من عهد ملوك السلاجقة ، عليها صورة خيال ..

● أما الملك الظاهر ركن الدين بيبرس (٦٢٥ ـ ٦٧٦ هـ ـ ١٢٢٨ ـ ١٢٧٧ م) فلقد سك الدراهم الظاهرية سنة ٦٥٨هـ ـ ١٢٦٠ م ، وعليها صورة سبع.. وظلت متداولة ، بمصر والشام ، إلى أن فسدت سنة ٧٨١ هـ ـ سنة ١٣٧٩م..

● وفى جنوب شبه الجزيرة العربية ، سكت نقود عليها صورة آدمى مقطوعة .. وتارة يكون الرسم نسرا برأسين .. أو سبعا .

● وفى الهند ، على عهد الخليفة المقتدر بالله العباسى (٢٨٢ ـ ٣٢٠ هـ ـ ٨٩٥ ـ ٩٣٢ م) سكت نقود عليها صورة الثور المقدس ، وصورة فارس ، واسم الخليفة العباسى باللغة العربية .

● وسك الغزنويون ـ ملوك الدولة الغزنوية (٣٥١ ـ ٥٨٢ هـ ـ ٩٦٢ ـ ١١٨٦ م) ـ عملة على أحد وجهيها صورة فارس ..

● أما سلاطين المماليك ، وشاهات العجم ، فلقد رسموا على نقودهم صورة سبع فوقه صورة شمس (٣٥).

هكذا كانت النقود الإسلامية ، على امتداد قرون متطاولة ، وفى مختلف بلاد الإسلام ، وتداولها .. كانت شاهدا على استخدام الرسم والتصوير .. فكانت أوسع « المعارض » انتشارا وتداولا وتعاملا مع هذا الفن الجميل !..

وموقف الفقهاء

وإذا كان لنا أن نشير إلى موقف الفقهاء من هذه القضية .. قضية «الفنون الجمالية » ، و « فنون التشكيل » على وجه الخصوص .. فمن المهم أن ننبه على أن كثيرين من الفقهاء المقلدين فى فكرنا الإسلامى قد انحازوا إلى صف التحريم لهذه الفنون ، وأن هؤلاء الفقهاء « المقلدين » ، الذين اختاروا موقف « المنع .. أو الكراهة .. أو التحريم ».. قد وقفوا، ووقف بهم «التقليد»، عند حرفية وظواهر المأثورات التى منعت أو حرمت هذه الفنون ، دونما

تأويل أو تعليل لها ، ولم ينحازوا إلى المأثورات التى أباحها .. وذلك فضلا عن أنهم لم يقدموا التفسير الذى يربط المأثور بملابسات قوله ، وبالعلة والحكمة التى يجب أن يدور معها حكمه وجودا وعدما .. إن هؤلاء الفقهاء قد وقفوا هذا الموقف ، لا غفلة منهم ولا تقصيرا ـ كما قد يحسب الذين يسيئون الفهم والتفهم ـ وإنما كان ذلك لأسباب .. فى مقدمتها :

(أ) أن هذه الفنون ، فى تاريخنا الحضارى ـ وخاصة الغنائية والموسيقية منها ـ سرعان ما غلبت عليها علل المجون والتخنث وانحرافات الفساق ، حتى غدت معاول للهدم وشراكا للترف الذى أصاب قوى الأمة وقدراتها بالتفك والانحلال .. حدث ذلك فى دوائر الأمراء .. والسراة .. والعامة على حد سواء .. بل لقد استخدم بعض الأمراء فنون الانحلال سلاحا يشل قدرات الأمة عن المعارضة والتطلع إلى السلطة والسلطان !..

(ب) أن التصوف الفلسفى ـ ذا المنطلقات والجذور « الغنوصية ـ الباطنية » ـ قد ذهب به الغلو فى استخدام « السماع » و « الوجد » ، وذهبت به تصورات « الحلول » و « الفناء » و « وحدة الوجود » ، إلى الحد الذى جعل هؤلاء الفقهاء ـ وهم الأعداء الألداء لهذا التصوف يرون فى هذه الفنون شراكا تغبش عقائد الأمة وتعطل طاقات الابداع لدى أبنائها .. لقد عادت هذه الفنون ـ بنظر هؤلاء الفقهاء ـ مرة أخرى إلى دائرة المنع والتحريم عندما دارت علل الأحكام فيها إلى دائرة الضرر ، المحقق أو المحتمل ، على العقائد والشرائع ، كما كان الحال عندما ظهر الإسلام ..

(جـ) أن فنون التشكيل قد غدت قسمة من قسمات « الترف » الذى

غرقت في بحارة « القلة الفاسقة » ، والتي أوردت به حضارتنا موارد التراجع والجمود والانحطاط !.

تلك هي ـ في تقديرنا ـ أسباب انحياز كثير من فقهاء تلك العصور ، التي غلبت على فنونها هذه التحولات ، انحيازهم إلى القول « بالتحريم » .. وهي أسباب تؤكد على صدق المنهج الذي نعالج به موقف الإسلام من هذه الفنون.

ومع ذلك .. فإن التاريخ الفكري للفقه والفقهاء ، في حضارتنا ، لم يخل من مواقف فكرية ـ بل وممارسات عملية ـ إيجابية لعدد من أعلام الفقه والأصول إزاء هذه الفنون .. لا الغنائية فقط ، كما أسلفنا الاشارة إلى نماذجهم ـ كابن حزم والغزالي مثلا وإنما إزاء فنون التشكيل !..

إن قطاعا هاما من المفسرين للقرآن ، ومن الفقهاء ـ وخاصة فقهاء المذهب المالكي ـ قد أباحوا التصوير والنحت ، إذا كانت لهما ضرورة اجتماعية أو تربوية .. وعلى سبيل المثال :

● فالمفسر : النحاس ، أحمد بن محمد بن إسماعيل المرادي (٣٣٨هـ ـ ٩٥٠م) يحدثنا عن أن قوما من المفسرين والفقهاء قد قالوا : « إن عمل الصور جائز » ، وأنهم استدلوا بالآية التي جعلت من صنع التماثيل لنبي الله سليمان نعمة من نعم الله (يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل) .. واستدلوا كذلك بصنع المسيح عيسى بن مريم ، عليه السلام ، بأمر الله ، لتماثيل الطير (.. أني قد جئتكم بآية من ربكم ، أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله) [٣٦].. فعيسى قد صنع تماثيل

للطير من الطين ، وجاز ذلك عندما لم تكن شبهة وثنية تلحق بالعقائد بسبب هذه التماثيل .

● ويحدثنا المفسر الاندلسي : مكى بن حموش (٣٥٥ ـ ٤٣٧هـ ـ ٩٦٦ ـ ١٠٤٥م) فى كتابه (الهداية إلى بلوغ النهاية) ـ وهو سبعون جزءا فى معانى القرآن وتفسيره ـ يحدثنا عن « أن فرقة تجوز التصوير » ، مستدلة ، بهذه الأدلة ذاتها[٣٧].

● والقرطبى ، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى (٦٧١ هـ ـ ١٢٧٤م) يشير إلى اجتهاد فقهاء المذهب المالكى بجواز التماثيل عندما تقتضيها ضرورات التربية ، وذلك مثل تربية البنات ، التى تستدعى تعويدهم على اللعب بالدمى ـ من « عرائس » وغيرها ـ فيقول : « .. وقد استثنى من هذا الباب ـ (باب الخلاف فى التحريم .. أى أن هذا المستثنى متفق على حله) ـ لعب البنات ، لما ثبت عن عائشة أم المؤمنين أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ تزوجها وهى بنت تسع سنين ، وزفت إليه وهى بنت تسع ، ولعبها معها .. قالت : كنت ألعب بالبنات ـ (أى اللعب ـ الدمى ـ العرائس) عند النبى ، وكان لى صواحب يلعبن معى ، فكان رسول الله إذا دخل ينقمعن ـ (أى يتغيبن مختفيات وراء الستر) ـ منه ، فيسربهن ـ (يبعثهن) ـ إلىّ فيلعبن معى » ؟!..[٣٧].

فعائشة ، أم المؤمنين ، تلعب بعرائسها ـ وهى دمى وتماثيل لأحياء آدمية ـ مع صواحبها .. ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يرى ، بل ويبعث لها بصواحبها يلاعبنها إذا هن اختبأن منه !..

وفى (طبقات ابن سعد) ما يفيد تنوع هذه الدمى .. فلقد كانت فيها دمى

للخيل أيضا ـ وهي الأخرى صور أحياء ـ فعن عائشة ، قالت : « دخل عليّ ، رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوما وأنا ألعب بالبنات ، فقال : ما هذا يا عائشة ؟ فقلت : خيل سليمان . فضحك » (٣٩).

ثم يعقب القرطبي على هذه القضية ، فيحكي أن العلماء قد أباحوا الدُّمَى واللعب بها ، للدور الذي تقوم به في التربية ، وخاصة تربية البنات « حيث يتدربن على تربية أولادهن » منذ الصغر بالألفة التي تنشأ بينهن وبين دُمَى العرائس والأطفال (٤٠) فعندما تكون المنفعة ـ مادية أو جمالية أو هما معا ـ فإن الاجتهاد الإسلامي يزكي إباحة فنون التشكيل .

● بل إننا واجدون لدى مجتهد آخر من مجتهدي المذهب المالكي ما هو أكثر من إباحة الصور والتماثيل ، التي تتطلبها مصالح الأمة العملية وتنمية معارفها العملية وتربية حاستها الفنية وتهذيب طباعها وسلوكها .. واجدون لدى الفقيه الأصولي الإمام القرافي ، أبو العباس أحمد بن إدريس (٦٨٤ هـ ـ ١٢٨٥م) الاشتغال بفن النحت والتصوير ، وليس مجرد الافتاء بإباحته فقط ! .. فلقد تحدث عن ممارسته لفن صناعة الدُّمَى والتماثيل ، فقال في كتابه (شرح المحصول) : « .. بلغني أن الملك الكامل (٥٧٦ ـ ٦٣٥ هـ ـ ١١٨٠ ـ ١٢٣٨م) وضع له شمعدان ـ وهو عمود طويل من نحاس له مراكز يُوضع عليها الشمع للانارة ـ كلما مضى من الليل ساعة انفتح باب منه وخرج منه شخص يقف في خدمة الملك ، فإذا انقضت عشر ساعات ـ (أي حان وقت الفجر) ـ طلع الشخص على أعلى الشمعدان ، وأصبعه في أذنه ، وقال : صبح الله السلطان بالسعادة . فيعلم أن الفجر قد طلع » ؟!..

يحكي الإمام القرافي عن هذا الشمعدان الذي استخدمت فيه التماثيل ـ تماثيل الإنسان ـ آلة يقاس بها الزمن، وفيها الحركة والصوت معا ! .. ثم يعقب فيتحدث عن تجربته هو في صنع شمعدان مماثل، به إلى جانب تمثال الإنسان، تمثال أسد، فيقول : « .. وعملت أنا هذا الشمعدان، وزدت فيه : أن الشمعة يتغير لونها في كل ساعة، وفيه أسد تتغير عيناه من السواد الشديد إلى البياض الشديد إلى الحمرة الشديدة، وفي كل ساعة لها لون، فإن طلع شخص على أعلى الشمعدان، وأصبعه في أذنه، يشير إلى الأذان ـ غير أني عجزت عن صنعة الكلام » ؟ (٤١).

فهنا .. فقيه مجتهد، وأصولي بارز، يمارس صناعة الفن التشكيلي، فكان مَثّالا، يصنع تماثيل الإنسان والحيوان، وفي صنعته هذه تتتابع وتتعدد الألوان .. جمالا ينفع الإنسان، المنفعة المادية والجمالية كليهما ! ..

وهكذا .. فإلى جانب الذين منعوا التصوير والنحت، في تراثنا الفقهي، كان هناك الذين أباحوا هذا الفن، بعد أن أمنت الأمة خطر الشرك وعبادة هذه التماثيل والصور. بل وكان هناك الفقهاء المجتهدون الذين مارسوا هذه الصناعة، فكانوا « فقهاء ـ مجتهدين ـ فنانين ! » .

* * *

وفى العصر الحديث

عندما شرعت مدرسة التجديد والإحياء الدينى تزيل عن الفكر الإسلامي غبار عصور الجمود والتراجع الحضارى - المملوكية العثمانية - وجدنا من أبرز مهندسى ذلك التجديد، وهو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ - ١٨٤٩ - ١٩٠٥م) يطرق هذا الباب، باجتهاده وتجديده، فيعلن مباركة الإسلام للفنون الجميلة، منبها على دور فنون التشكيل - رسما ونحتا وتصويرا - دورها النافع والضرورى فى تسجيل معالم الحياة وحفظها، وفى ترقية الأذواق والحواس والاقتراب بالإنسان من صفات الكمال!..

ولقد عرض الأستاذ الإمام لهذه القضية - قضية دور «الفنون التشكيلية» فى حياة الأمة - أثناء سياحته فى جزيرة «صقلية» سنة ١٩٠٣م.. ففى «صقلية» زار المتاحف والمقابر ومواطن الآثار التى تحفظ وتحكى، بالصور والتماثيل، آثار الغابرين، وكأنها من سجلات التاريخ.. وكان يرسل إلى مجلة (المنار) فصولا يحكى فيها مشاهداته فى رحلته، وفى هذه الفصول كتب عن هذه الفنون، وعرض لرأى الإسلام فى الصور والتصوير والرسم وصناعة التماثيل.

والذين يتأملون الصفحات التى كتبها الأستاذ الإمام حول هذه القضية، يطالعهم الشيخ ذواقة للفن، عاشقا للابداع الفنى، مبصرا الخيوط التى تربطه بفنون العرب المألوفة لعامة الناس، الأمر الذى يضيف إلى تجديده فى الدين والأدب واللغة وأساليب الانشاء قسمة أخرى تجعل له فضلا لا ينكر

فى السعى لتجديد حياة الأمة بمختلف سبل الشعر ـ الذى هو ديوان الأمة العربية منذ القدم ـ غير « أن الرسم : شعر ساكت ، يُرى ولا يُسمع ، كما أن الشعر : رسم يُسمع ولا يُرى ؟!.. (٤٢).

ثم يعرض للحديث عن منافع هذه الفنون ودورها فى حفظ تراث الأمة على مر الأزمنة ، وما يعنيه ذلك من حفظ للعلم والحقيقة والتاريخ ، كى تظل شاهدة فاعلة لمن يأتى من أجيال .. « فحفظ الآثار ـ بالرسوم والتماثيل ـ هو حفظ للعلم والحقيقة ، وشكر لصاحب الصنعة على الابداع فيها ! (٤٣)..

ثم يأتى الأستاذ الإمام إلى القضية الشائكة والخلافية .. قضية موقف الإسلام من هذه الفنون وأصحابها، فيدلى بالقول الفصل فى فائدتها ـ ومن ثم حلِّها ـ وذلك لتغير الملابسات والمقاصد التى دعت إلى نفور المسلمين منها فى عصر البعثة النبوية ، يوم كانت الرسوم والصور والتماثيل إنما تتخذ كى تعبد من دون الله ، أو على الاقل كانت مظنة شبهة ، لتعظيمها دينيًا ، فكان أن نهى عنها الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ .. أما الآن وبعد زوال هذا الخطر بالكلية ، وبعد أن لم تعد الرسوم والتماثيل مظنة شبهة العبادة أو التعظيم الدينى ، وبعد أن وضحت وتأكدت منافعها فى ترقية أذواق الأمة ، وحفظ حقائق تاريخها وعلومها ، فإن رضاء الإسلام ومباركته لها ، أمر لا شك فيه !..

والأستاذ الإمام عندما صاغ اجتهاده هذا وسطر لنا تجديده فى هذا الميدان كان يوجه حديثه إلى الناس عبر الشيخ محمد رشيد رضا (١٢٨٢ ـ ١٣٥٤ هـ ـ ١٨٦٥ ـ ١٩٣٥ م) صاحب مجلة (المنار) .. وكانت (المنار) تنشر هذه الفصول التى يصف فيها مشاهد سياحته دون توقيع .. وكان

يتولى يومئذ منصب « مفتي الديار المصرية » ، ويتربع على عرش الإمامة والاجتهاد في طول بلاد العالم الإسلامي وعرضها !..

وفي هذه الفصول ، أخذ الشيخ محمد عبده يتحدث إلى الشيخ رشيد رضا ، عن هذه القضية ، فقال ، بعد وصفه لما شاهد من الرسوم والتماثيل في متاحف « صقلية » وأديرتها وكنائسها ومقابرها وميادين مدنها ، وبعد حديثه عن دور هذه الرسوم والصور والتماثيل في « حفظ العلم ، وتخليده » قال :

« وربما تعرض لك مسألة عند قراءة هذا الكلام ، وهي : ما حكم هذه الصور في الشريعة الإسلامية : إذا كان القصد منها ما ذكر ، من تصوير هيئات البشر في انفعالاتهم النفسية ، وأوضاعهم الجسمانية ؟ هل هذا حرام؟ أو جائز ؟ أو مكروه ؟ أو مندوب ؟ أو واجب؟ .. فأقول لك ..

إن الراسم قد رسم ، والفائدة محققة لا نزاع فيها ، ومعنى العبادة وتعظيم التمثال أو الصورة قد محي من الأذهان ، فإما أن تفهم الحكم من نفسك ، بعد ظهور الواقعة ، وإما أن ترفع سؤالا إلى « المفتي » ، وهو يجيبك مشافهة - (لاحظ أن المفتي هو المتكلم .. وهذا جوابه ؟ !) - .. فإذا أوردت عليه حديث « إن أشد الناس عذابا يوم القيامة المصورون » ، أو ما في معناه مما ورد في الصحيح فالذي يغلب على ظني أنه سيقول لك :

إن الحديث جاء في أيام الوثنية ، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : الأول : اللهو . والثاني : التبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين . والأول مما يبغضه الدين ، والثاني مما جاء الإسلام لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله ، أو ممهد للإشراك به ، فإذا زال هذان

العارضان ، وقصدت الفائدة ، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر فى المصنوعات ، وقد صنع ذلك فى حواشى المصاحف ، وأوائل السور ، ولم يمنعه أحد من العلماء ، مع أن الفائدة فى نقش المصاحف موضوع النزاع ، أما فائدة الصور فمما لا نزاع فيه ، على الوجه الذى ذكره.

أما إذا أردت أن ترتكب بعض السيئات فى محل فيه الصور ، طمعا فى أن الملكين الكاتبين ، أو كاتب السيئات على الأقل لا يدخلا محلا فيه صور (٤٤) كما ورد ، فإياك أن تظن أن ذلك ينجيك من إحصاء ما تفعل ؟!.. فإن الله رقيب عليك وناظر إليك حتى فى البيت الذى فيه صور ، ولا أظن أن الملك يتأخر عن مرافقتك إذا تعمدت دخول البيت الذى فيه صورا ؟!..

ولا يمكنك أن تجيب المفتى : بأن الصورة على كل حال ، مظنة العبادة . فإنى أظن أنه يقول لك : إن لسانك ، أيضا ، مظنة الكذب ، فهل يجب ربطه؟!، مع أنه يجوز أن يصدق ، كما يجوز أن يكذب ؟!..

وبالجملة ، فإنه يغلب على ظنى أن الشريعة الإسلامية أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم ، بعد تحقيق أنه لا خطر فيه على الدين ، لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل .. وليس هناك ما يمنع المسلمين من الجمع بين عقيدة التوحيد ورسم صورة الإنسان والحيوان لتحقيق المعانى العلمية وتمثيل الصور الذهنية . » (٤٥).

هكذا صاغ الأستاذ الإمام ، فى الفنون التشكيلية ما يشبه الفتوى الشرعية ، فقرر أنها أداة لحفظ الحقيقة العملية والتاريخية ، بل « وسيلة من أفضل وسائل العلم » ، وأنها فنون راقية ، ترتقى بذوق الإنسان ، كما

يرتقى به فن الشعر ، وغيره من الفنون التى ليس على الإبداع فيها كلام ولا ملام فى الإسلام !..

وهو بذلك قد كتب صفحة فى كتاب التجديد الإسلامى .. تجديد حياة الأمة بتجديد الفكر الذى يحكم هذه الحياة !..

* * *

الهوامش

(١) الأنبياء : ٥١ ـ ٥٨ . (٢) الاسراء : ٨١ .

(٣) القرطبى (الجامع لأحكام القرآن) جـ ٤ ص ٢٧١ ، طبعة دار الكتب المصرية . القاهرة.

(٤) سبأ ١٢ ، ١٣ . (٥) آل عمران ٤٨ ، ٤٩ .

(٦) المائدة . ١١٠ . (٧) إبراهيم : ١٨ .

(٨) البقرة : ١٧٢ . (٩) الجمعة : ٥ .

(١٠) الأعراف : ١٧٥ ـ ١٧٦ . (١١) العنكبوت : ٤١ .

(١٢) الحديد : ٢٠ . (١٣) الكهف : ٤٥ .

(١٤) يونس : ٢٤ . (١٥) البقرة : ٢٦٤ .

(١٦) البقرة : ٢٦٥ . (١٧) إبراهيم : ٢٤ ـ ٢٥ .

(١٨) إبراهيم : ٢٦ . (١٩) رواه الامام أحمد .

(٢٠) رواه البخارى ومسلم والنسائى والامام أحمد .

(٢١) رواه البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى والإمام أحمد .

(٢٢) رواه الإمام أحمد .

(٢٣) رواه مسلم والنسائى والإمام أحمد .

(٢٤) رواه أبو داود والإمام أحمد .

(٢٥) الازلام ـ مفردها : زلم ـ السهام التى كان يستقسم بها المشركون فى الجاهلية . كانوا يكتبون على أحدها : أمر ، وعلى آخر : نهى ، وعلى واحد منها : افعل ، وعلى الثانى : لا تفعل . ويستقسمون بها عند إرادة السفر أو القيام بعمل ما .

(٢٦) رواه الإمام أحمد .　　　(٢٧) رواه الإمام أحمد .
(٢٨) رواه الإمام أحمد .　　　(٢٩) رواه الامام أحمد .
(٣٠) رواه الإمام أحمد .
(٣١) رواه الإمام أحمد - (ومثله مروى عند البخارى ومسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجة) ..
(٣٢) انظر (كتاب الاصنام) لابن - الكلبى - طبعة القاهرة . الدار القومية .
(٣٣) (الاعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ٢ ص ١٦٢ . دراسة وتحقيق د . محمد عمارة . طبعة بيروت . سنة ١٩٧٢م .
(٣٤) انظر فى هذا المقام . للدكتور ثروت عكاشة · (معراج نامة) - فى جزئين - طبعة القاهرة - دار المستقبل العربى سنة ١٩٨٧م . و(التصوير الإسلامى) طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م .
(٣٥) انظر فى ذلك : المقريزى (كتاب النقود القديمة الإسلامية) ص ٣٣ ، ٦١ - طبعة الاب أنستاس مارى الكرملى - ضمن كتاب (النقود العربية وعلم النميات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٩م - وانظر كذلك ص ٩١ من هذا الكتاب .
وانظر : على مبارك باشا (الخطط التوفيقية) جـ ص ٦ - ١٠ طبعة بولاق سنة ١٣٠٦هـ . و (الاعمال الكاملة لعلى مبارك) جـ ٢ ص ٢٤ . دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة طبعة بيروت سنة ١٩٨٠م .
(٣٦) آل عمران : ٤٩ .
(٣٧) (الجامع لاحكام القرآن) جـ ص ٢٧٢ .
(٣٨) رواه مسلم والبخارى وابن ماجة .
(٣٩) (طبقات ابن سعد) جـ ٨ ص ٤٢ . طبعة دار التحرير . القاهرة .
(٤٠) (الجامع لاحكام القرآن) ، جـ ١٤ ، ص ٢٧٤ ، ٢٧٥ - (بل ان للمرء أن يتساءل : هل كانت هذه « التماثيل - اللعب » . تقوم فى حياة أم المؤمنين عائشة ، رضى الله عنها - وهى التى لم تنجب - بدور الاشباع ؟! .. فيكون لحلها سبب آخر -

الضرورة والحاجة - يضاف إلى ما لحلّها من أسباب ؟! .. إنه تساؤل وارد .. وللتأمل في جوابه مكان !) .

(٤١) مقدمة تحقيق (الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والإمام ص ١٥ . طبعة حلب سنة ١٩٦٧ م.

(٤٢) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ٢ ص ٢٠٤ . طبعة بيروت ١٩٧٢ .

(٤٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٢٠٥ .

(٤٤) يشير الأستاذ الإمام إلى حديث : « لا تدخل الملائكة بيتا فيه جنب ولا صورة ولا كلب » - رواه أبو داود والنسائي والدرامي والإمام أحمد .

(٤٥) (الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده) جـ ٢ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

* * *

وأخـــيرا ..

وبعد ...

فهل هناك شك ، الآن ، وبعد هذا الذى سقناه عن موقف المنهج الإسلامى من آيات الجمال فى الإبداع الإلـهى ، ومن ثم من الفنون الجميلة ، التى ترتقى بالذوق والحس الإنسانى ليدرك آيات الجمال هذه ، فيرتقى على سلم الشكر لصانع هذا الجمال ! .. هل هناك شك ، بعد هذا الذى قدمناه ، فى أن موقف المنهج الإسلامى من هذه الفنون الجميلة ـ من تذوقها ، وممارستها ـ هو موقف الود والتعاطف ، والتزكية والمباركة ؟ .. وذلك على الرغم من شيوع مواقف ومقولات المخاصمة المفتعلة بين الإسلام وبين هذه الفنون ؟!..

إن الإسلام لا يخاصم الجمال، ولا يعادي فنونه ... والمسلم الأمثل لا يمكن أن يكون ذلك المتهجم ، الذى ينزع عن جماليات الحياة « مباركة الإسلام » ! .. فقط هناك المعايير الإسلامية ـ الاعتقادية والأخلاقية ـ التى يجب أن تحكم موقف المسلم تجاه هذه الفنون ، حتى تظل مصدرا حقيقيا للخير والجمال فى حياة الإنسان ..

● فالاقتصاد والاعتدال فى الاشتغال بهذه الفنون ، وفى ترويجها .. مطلب إسلامى ، وذلك حتى لا يختل توازن اهتمامات الأمة بمختلف

نواحي وميادين النشاط اللازم لتكامل وتنمية طاقات وملكات وحياة الإنسان.

إن الاقتصاد والاعتدال ـ الذى ينفى وينكر طرفى الغلو ـ هو ميزان الاسلام ومعيارة فى كل ميادين النشاط الإنساني .. فالقرآن يأمرنا به (يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إن الله لا يحب المسرفين)(١) (.. وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا)(٢) .. ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يؤكد هذا البلاغ القرآني فى بيانه النبوى ، فيقول : « كلوا واشربوا وتصدقوا والبسوا ، ما لم يخالطه إسراف أو مخْيَلَة » (٣) .. ويتحدث إلى من غالى فى العبادة والنسك ، فصام النهار وقام الليل ، مهملا زوجه ودنياه ، فيقول : « .. إنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأنام ، وأمَسّ النساء . فمن رغب عن سنتى فليس منى»(٤).. وإن لزوجك عليك حقا ، وإن لزورك ـ (أى زائريك) ـ عليك حقا ، ولجسدك عليك حقا (٥) .. »

● إن انفعال النفس الإنسانية بجماليات الحياة هو فطرة فطر الله النفس الإنسانية السوية عليها .. والإسلام يريد لكل الفنون ، حتى تكون بحق جزءا من جماليات هذه الحياة ، أن لا تعاند الفطرة الإنسانية ، بل أن تكون عونا على ترقيتها وتهذيبها .. يريدها سبلا لتهذيب النفس والارتقاء بملكات وطاقات وغرائز الإنسان .. ولا يريدها عوامل تحلل وانحلال ومعاول هدم وإثارة لغرائز العنف والغضب والشهوة واللذة المادية فى الإنسان .. يريدها فنونا جميلة ومتجملة بأخلاقيات الإسلام !..

● وإذا كان لكل شعب من الشعوب فنونه الموروثة ، والتي غدت وتغدو

سمة من سمات تميزه القومي عن الشعوب الأخرى .. فإننا نريد للفنون الموروثة لشعوب الأمة الإسلامية وقومياتها أن تخضع لما خضعت له المواريث الفكرية لهذه الشعوب عندما دخلت دين الإسلام واندمجت فى أمة الإسلام .. نريد لهذه الفنون أن « تحيا » وأن «تتطور » وفقا لمعايير الإسلام فى الاعتقاد .. وفى الذوق الجمالى .. وفى الأخلاقيات .. ولا نريدها أن تكون «تقليدا أعمى » لفنون حضارات أخرى ، لا تتخلق بأخلاق حضارة الإسلام.. ولا أن تكون « مسخا مشوها » لفنون تلك الحضارات !..

● وإذا كانت المهمة الأولى للفنون الجميلة فى حياة الإنسان ، هى الارتقاء بروحه على درب الادراك والاستمتاع بآيات الجمال الإلّـهى فى هذا الكون .. فإن الإسلام يتقدم على هذا الدرب خطوات أبعد ، ليجعل من هذه الفنون سبيلا من السبل التى تصوغ « الإنسان ـ الربانى » ، الذى يدرك معنى أن الله « جميل » ، وأن « ربانية » الإنسان رهن بتشوقه وتعلقه وسعيه على درب التخلق بالأخلاقيات الجميلة .. درب الوعى بالجمال الإلّـهى المبثوث فى هذا الوجود .. وأيضا الاستمتاع بلذات هذا الجمال !..

ومع هذه المهمة الإسلامية للتربية الجمالية ، وللفنون الجميلة فى حياة الإنسان المسلم ، فإن للمنهج الإسلامى رسالة يطلب من هذه الفنون أن تنهض بدورها فى أدائها . رسالة الاسهام فى حفظ الفكر ونشر الدعوة بواسطة هذه الفنون..

إنها سلاح فعال فى البلاغ إلى الناس ..ومن الممكن ـ بل والواجب ـ أن تكون ـ كفنون القول ـ أداة للبلاغ المبين برسالة الإسلام !..

وإذا كان الإمام محمد عبده ، قد زكى فنون الرسم والتصوير ،

باعتبارها أداة لتخليد العلم وأحداث التاريخ .. أفلا يحق لنا أن نسائل أولئك الذين يمارون اليوم في حلّها ، فنقول لهم : ألم يأتكم نبأ أن هذه الفنون قد غدت أداة رئيسية من أدوات البحث العلمي في مختلف علوم الطبيعة والتجريب ؟!.. وهل هناك من يجهل اليوم دورها في جمع المعلومات وحفظها ، وهو ميدان تخوض الأمم والحضارات فيه حربا ضروسا ؟!

فهل تريدون نزع سلاح الأمة في العلم وفي الصراع الدولي .. بعد أن أردتم نزع سلاح الإنسان المسلم في السعي إلى الارتقاء بذوقه وحسه وغرائزه ، بواسطة هذه الفنون ؟!..

ذلك هو خطر القضية.. وتلك هي مكانتها .. فلم تعد الفنون ترفا إنسانيا، ولا امتيازا لشريحة من المترفين المتعطلين ـ كما كانت لدى البعض في بعض فترات التاريخ ـ وإنما ، هي اليوم مكون رئيسي من مكونات الذات الإنسانية السوية .. وأداة فاعلة في تحصيل العلم ، وحفظ المعلومات... وسلاح من أمضى أسلحة الصراع بين الأمم والحضارات .. إنها واحدة من ضرورات الوجود والارتقاء بالنسبة للإنسان .

تلك هي رؤيتنا لموقف الإسلام من الجمال وفنونه ، سماعا كانت هذه الفنون أو تشكيلا ، بالرسم والنحت والتصوير !.

* * *

الهوامش

(١) الاعراف : ٣١.

(٢) القصص : ٧٧ .

(٣) رواه البخاري وابن ماجة .

(٤) رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والدرامي والإمام أحمد ـ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص .

(٥) رواه البخاري ومسلم .

* * *

(ملحق)

(أ) ما كتبه الإمام ابن حزم الأندلسى فى حكم الغناء ..

(ب) ما كتبه الإمام الغزالى فى أداب السماع وحكمه ..

(جـ) ما كتبه الإمام ابن تيمية فى مسألة السماع ..

(أ)

ابن حزم الأندلسى

أبو محمد على بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسى

(٣٨٤ ـ ٤٥٦ هـ ـ ٩٩٤ ـ ١٠٦٤ م)

ـ ١ ـ

رسالة فى الغناء المُلهِى

أمباح هو ؟ ... أم محظور ؟؟ (*)

(*) أخذنا نص هذه الرسالة عن تحقيق الأستاذ الدكتور احسان عباس لها .. كما استفادنا بجهوده فى التعليق عليها ـ انظر (رسائل ابن حزم) جـ ١ ص ٤٣٠ ـ ٤٣٩ طبعة بيروت سنة ١٤٠١ هـ ١٩٨٠ م ـ ثم أضفنا إليها ما رأيناه ضروريا من التعليقات.

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

رسالة في الغناء المُلْهِي أمباح هو أم محظور ؟؟

قال أبو محمد : الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، ولا عدوان إلا على الظالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين :

أما بعد ، أيدك الله وإياي بتوفيقه ، وأعاننا بلطفه على أداء حقوقه ، فإنك رغبت أن أقدم لك في الغناء الملهي ، أمباح هو ؟ أم من المحظور ؟ .. فقد وردت أحاديث بالمنع منه ، وأحاديث بإباحته . وأنا أذكر الأحاديث المانعة ، وأنبه على عللها ، وأذكر الأحاديث المبيحة له ، وأنبه على صحتها ، إن شاء الله ، والله الموفق للصواب .

فالأحاديث المانعة :

١ ـ ما روى سعيد بن أبي رزين ، عن أخيه ، عن ليث بن أبي سليم (١) ، عن عبد الرحمن بن سابط (٢) ، عن عائشة أم المؤمنين ، عن النبي ، عليه

السلام ، أنه قال : إن الله حرّم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع[٣] إليها [٤].

٢ ـ وروى لاحق بن حسين بن عمر أن أبي الورد المقدسي[٥] قال : ثنا[٦] أبو المرجى ضرار بن على بن عمير القاضى الجيلانى[٧] ، ثنا أحمد بن سعيد، عن محمد بن كثير الحمصى[٨] ، ثنا فرج (بن) فضالة ، عن يحيى بن سعيد[٩] ، عن محمد بن الحنفية ، عن على بن أبى طالب قال : قال رسول الله إذا عملت أمتى خمس عشرة خصلة حل بها البلاء : إذا كان المال دولا ، والأمانة مغنما ، والزكاة مغرما ، وأطاع الرجل زوجته ، وعقّ أمه ، وجفاه أباه ، وارتفعت الأصوات فى المساجد ، وكان زعيم القوم أذلهم ، وأكرم الرجل مخافة شره ، ولبست الحرير ، واتخذت القينات ، والمعازف ، ولعن آخر هذه الأمة أولها ، فليتوقعوا عند ذلك ريحا حمراء ومسخا وخسفا [١٠].

٣ ـ وروى أبو عبيدة بن فضيل بن عياض [١١]، ثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم ـ هو عبد الرحمن بن عبد الله ـ ثنا عبد الرحمن بن العلاء ، عن محمد ابن المهاجر [١٢] ، عن كيسان مولى معاوية ، ثنا معاوية أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ نهى عن تسع ، وأنا أنهاكم عنهن : ألا إن منهن الغناء والنوح والتصاوير والشعر والذهب وجلود السباع والخز والحرير .

٤ ـ وروى سلام بن مسكين عن شيخ شهد ابن مسعود يقول : الغناء ينبت النفاق فى القلب[١٣]

٥ ـ وروى عبد الملك بن حبيب [١٤] ، ثنا عبد العزيز الأويسى ، عن إسماعيل بن عياش ، عن على بن زيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامة قال[١٥] : سمعت رسول الله يقول : لا يحل تعليم المغنيات ولا شراؤهن ولا بيعهن ولا

اتخاذهن ، وثمنهن حرام ، وقد أنزل الله ذلك في كتابه (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم)(١٦) ، والذي نفسي بيده ما رفع رجل عقيرته إلا ارتدفه شيطانان يضربان بأرجلهما صدره وظهره حتى يسكت .

٦ ـ وبه إلى عبد الملك بن حبيب ، عن الأويسي (١٧) ، عن عبد الله بن عمر ابن حفص بن عاصم ، أن رسول الله قال : إن المغني أذنه بيد شيطان يرعشه حتى يسكت .

٧ ـ وبه إلى عبد الملك بن حبيب ، ثني ابن معين ، عن موسى بن أعين (١٨) ، عن القاسم ، عن أبي أمامة أن رسول الله قال : إن الله حرّم تعليم المغنيات وشراءهن وأكل أثمانهن (١٩) .

٨ ـ وذكر البخاري قال : قال هشام بن عمار (٢٠) ، ثنا صدقة بن خالد(٢١) ، ثنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر (٢٢) ، ثنا عطية بن قيس الكلابي(٢٣) ، ثنا عبد الرحمن بن غنيم الأشعري ، ثني أبو عامر أو أبو مالك الأشعري (أنه) سمع النبي عليه السلام يقول : ليكونن من أمتي قوم يستحلون الحِرّ والحرير والخمر والمعازف (٢٤) .

٩ ـ وروى ابن شعبان ، ثني إبراهيم بن عثمان بن سعيد ، ثني أحمد الغمر بن أبي حماد بحمص ، ويزيد بن عبد الصمد ، قالا : ثنا عبيد بن هاشم الحلبي ، هو أبو نعيم ، ثنا عبد الله بن المبارك ، عن مالك ، عن محمد ابن المنكدر ، عن أنس قال : قال رسول الله . من جلس إلى قينة صب في أذنيه الآنُك(٢٥) يوم القيامة .

١٠ ـ وبه إلى ابن شعبان ، ثني عمي ، ثنا أبو عبد الله الدوري ، ثنا عبد الله

القواريرى ، ثنا عمران بن عبيد ، عن عطاء بن السائب ، عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قول الله عز وجل : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) . قال : الغناء .

١١ ـ وروى ابن أبى شيبة أبو بكر ، ثنا زيد بن الحباب (٢٦)، ثنا معاوية ابن صالح (٢٧)، عن حاتم بن حريث (٢٨) ، عن ابن أبى مريم (٢٩)، قال : دخل علينا عبد الرحمن بن غنم فقال : أنبأنا أبو مالك الأشعرى أنه سمع النبى عليه السلام يقول : يشرب ناس من أمتى الخمر يسمونها بغير اسمها ، تضرب على رءوسهم المعازف والقينات يخسف الله بهم الأرض (٣٠).

١٢ ـ وحديث فيه : أن الله (تعالى) نهى عن صوتين ملعونين ، صوت نائحة ، وصوت مغنية .

وكل هذا لا يصح منه شيء ، وهي موضوعة :

١ ـ أما حديث عائشة رضى الله عنها ، ففيه سعيد بن أبى رزين ، عن أخيه (٣١)، وكلاهما لا يدرى أحد من هما (٣٢).

٢ ـ وأما حديث على رضى الله عنه ، فجميع من فيه إلى يحيى بن سعيد لا يُدرى من هم ، ويحيى بن سعيد لم يرو عن محمد بن الحنفية كلمة ولا أدركه (٣٣).

٣ ـ وأما حديث معاوية ، فإن فيه كيسان ، ولا يُدرى من هو ، ومحمد ابن مهاجر ، وهو ضعيف ، وفيه النهى عن الشعر ، وهم يبيحونه .

٤ ـ وأما حديث ابن مسعود ، رضى الله عنه ، ففيه شيخ لم يُسَمّ ولا يعرفه أحد (٣٤).

٥ ـ فأما حديث أبي أمامة ، ففيه إسماعيل بن عياش ، وهو ضعيف ، والقاسم ، وهو مثله (٣٥).

٥ ـ ٦ ، ٧ ـ وأما أحاديث عبد الملك بن حبيب ، فكلها هالكة (٣٦).

٨ ـ وأما حديث البخاري ، فلم يورده البخاري مسندا وإنما قال فيه : قال هشام بن عمار ، ثم هو إلى أبي عامر أو إلى أبي مالك ولا يُدرى أبو عامر هذا (٣٧).

٩ ـ وأما حديث أنس فبلية لأنه عن مجهولين ، ولم يروه أحد قط عن مالك من ثقات أصحابه ، والثاني عن مكحول ، عن عائشة ، ولم يلقها قط ، ولا أدركها ، وفيه أيضا من لا يُعرف ، وهو هاشم بن ناصح ، وعمر بن موسى ، وهو أيضا منقطع ، والثالث عن أبي عبد الله الدوري ، ولا يُدرى من هو (٣٨).

١٠ ـ وأما أحاديث ابن شعبان ، فهالكة .

١١ ـ وأما حديث ابن أبي شيبة ، ففيه معاوية بن صالح ، وهو ضعيف ، ومالك بن أبي مريم ، ولا يُدرى من هو (٣٩).

١٢ ـ وأما النهي عن صوتين ، فلا يُدرى من رواه (٤٠). فسقط كل ما في هذا الباب جملة .

١٣ ـ وأما تفسير قول الله تعالى : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) بأنه (٤١) : الغناء ، فليس عن رسول الله ، ولا ثبت عن أحد من أصحابه ، وإنما هو قول بعض المفسرين ممن لا يقوم بقوله حجة ، وما كان هكذا فلا يجوز القول به . ثم لو صح لما كان فيه متعلق ، لأن الله تعالى يقول : (ليضل عن سبيل الله) وكل شيء يقتني (٤٢) ليضل به عن سبيل الله فهو إثم

وحرام ، ولو أنه شراء مصحف أو تعليم قرآن ، وبالله التوفيق .

فإذاً لم يصح فى هذا شىء أصلا ، فقد قال تعالى : (وقد فصّل لكم ما حرم عليكم) [٤٣] . وقال تعالى : (وهو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا)[٤٤] . وقال رسول الله من طريق سعد بن أبى وقاص ، وطريقه ثابتة: « إن من أعظم الناس جرما فى الإسلام (من سأل عن شىء) لم يحُرَّمَ فَحُرِّمَ من أجل مسألته » [٤٥] ، فصح أن كل شىء حرمه تعالى علينا قد فصّله لنا وما لم يفصل لنا تحريمه فهو حلال .

(والأحاديث المبيحة) :

١ ـ وخرج مسلم بن الحجاج [٤٦] ، قال ثنى هارون بن سعيد الأيلى [٤٧]، ثنا عبد الله بن وهب ، ثنى عمرو ـ وهو (ابن) الحارث ـ أن ابن شهاب حدثه، عن عروة بن الزبير ، عن عائشة أم المؤمنين ، أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان تغنيان فى أيام منى وتضربان ، ورسول الله مسجى بثوبه ، فنهرهما أبو بكر ، فكشف رسول الله عنه فقال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد .

٢ ـ وبه [٤٨] إلى عمرو بن الحارث ، أن محمد بن عبد الرحمن حدثه ، عن عروة عن عائشة قالت : دخل رسول الله وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث، فاضطجع على الفراش وحوّل وجهه ، فدخل أبو بكر فانتهرنى وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ! فأقبل عليه فقال : دعهما .

فإن قيل إن أبا أسامة روى هذا الحديث عن هشام بن عروة عن أبيه فقال فيه : وليستا بمغنيتين ، قيل له : قد قالت عائشة : تغنيان ، فاثبتت

الغناء لهما فقولها وليستا بمغنيتين : أى ليستا بمحسنتين ، وقد سمع رسول الله قول أبي بكر : مزمار الشيطان ، فأنكر عليه ولم ينكر على الجاريتين غناءهما . وهذا هو الحجة التي لا يسع أحد خلافها ولا يزال التسليم لها .

٣ ـ وروى أبو داود السجستاني (٤٩) ، ثنا أحمد بن عبيد الغداني ، ثنا الوليد بن مسلم ، ثنا سعيد بن عبد العزيز ، ثنا سليمان بن موسى ، عن نافع قال : سمع ابن عمر مزمارا فوضع أصبعيه في (٥٠) أذنيه ونأى عن الطريق ، وقال : يا نافع تسمع شيئا ؟ قال : لا ، فرفع أصبعيه وقال : كنت مع رسول الله فسمع مثل هذا ، فصنع (٥١) مثل هذا . فلو كان حراما ما أباح رسول الله لابن عمر سماعه ، ولا أباح ابن عمر لنافع سماعه ، ولكنه عليه السلام ، كره لنفسه كل شيء ليس التقرب إلى الله ، كما كره الأكل متكئا والتنشف بعد الغسل في ثوب يعد لذلك (٥٢) ، والستر الموشى على سدة (٥٣) عائشة وعلى باب فاطمة رضوان الله عليهما ، وكما كره أشد الكراهية عليه السلام أن يبيت عنده دينار أو درهم . وإنما بعث عليه السلام منكرا للمنكر وآمرا بالمعروف ، فلو كان ذلك حراما لما اقتصر عليه السلام أن يسد أذنيه عنه ، دون أن يأمر بتركه وينهى عنه . فلم يفعل عليه السلام شيئا من ذلك ، بل أقره وتنزه عنه ، فصح أنه مباح وأن تركه (٥٤)أفضل ، كسائر فضول الدنيا المباحة ، ولا فرق .

٤ ـ وروى مسلم بن الحجاج (٥٥) ، قال : ثنا زهير بن حرب ، ثنا جرير ابن هشام بن عروة ، عن أبيه ، عن عائشة قالت : جاء حبشٌ يزفنون في المسجد في يوم عيد ، فدعاني رسول الله ، فوضعت رأسي على منكبه (٥٦)

فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى كنت أنا التي انصرفت عن النظر به إليهم (٥٧).

٥ ـ وروى سفيان الثورى وشعبه كلاهما ، عن أبى إسحاق السبيعى ، عن عامر بن سعد البجلى (٥٨) ، أن أبا مسعود البدرى ، وقرظة بن كعب ، وثابت بن زيد كانوا فى العريش وعندهم غناء ، فقلت : هذا وأنتم أصحاب رسول الله ؟! فقالوا : إنه رُخّص لنا فى الغناء فى العرس ، والبكاء على الميت فى غير نوح ، إلا أن شعبة قال : ثابت بن وديعة مكان ثابت بن زيد ولم يذكر أبا مسعود .

٦ ـ وروى هشام بن زيد ، ثنا حسان ، عن محمد بن سيرين . قال : إن رجلا قدم المدينة بجوار ، فنزل على ابن عمر وفيهم جارية تضرب ، فجاء رجل فساومه فلم يهو منهن شيئا ، قال : انطلق إلى رجل هو أمثل لك بيعا من هذا . فأتى إلى عبد الله بن جعفر فعرضهن عليه ، فأمر جارية فقال : خذى فأخذت حتى ظن ابن عمر أنه قد نظر إلى ذلك ، فقال ابن عمر : حسبك سائر اليوم من مزمور الشيطان ، فبايعه ثم جاء الرجل إلى ابن عمر فقال ياأبا عبد الرحمن إنى غبنت بتسعمائة درهم ، فأتى ابن عمر مع الرجل إلى المشترى فقال له إنه غبن فى تسعمائة درهم ، فإما أن تعطيها إياه وإما أن ترد عليه بيعه . فقال : بل نعطيها إياه . فهذا عبد الله بن جعفر وعبد الله بن عمر رضى الله عنهما قد سمعا الغناء بالعود ، وإن كان ابن عمر كره ما ليس من الجد فلم ينه عنه ، وقد سفر فى بيع (٥٩) مغنية كما ترى ، ولو كان حراما ما استجاز ذلك أصلا .

فإن(٦٠) قال قائل : قال الله تعالى (فماذا بعد الحق إلا الضلال) (٦١)ففى أى ذلك (٦٢) يقع الغناء ؟ قيل له : حيث يقع التَّروّح فى البساتين وصباغ

ألوان الثياب وكل ما هو من اللهو (٦٣)، قال رسول الله : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئٍ ما نوى » فإذا نوى المرء بذلك ترويح نفسه وإجمامها (٦٤) لتقوى على طاعة الله عز وجل فما أتى ضلالا ، وقد قال أبو حنيفة : من سرق مزمارا أو عودا قطعت يده ، ومن كسرهما ضمنهما . فلا يحل تحريم شيء ولا إباحته إلا بنص من الله تعالى أو من رسوله عليه السلام ، لأنه إخبار عن الله تعالى ، ولا يجوز أن يخبر عنه تعالى إلا بالنص(٦٥) الذي لاشك فيه ، وقد قال رسول الله : « من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » (٦٦).

* * *

« قال أبو بكر عبد الباقي بن بريال الحجازي (٦٧) رضي الله عنه : ولقد اخبرني بعض كبار أهل زمانه (٦٨) أنه قال : أخذت النسخة التي فيها الاحاديث الواردة في ذم الغناء والمنع من بيع المغنيات ، وما ذكره فيها أبو محمد رضي الله عنه ونهضت بها إلى الامام الفقيه أبي عمر بن عبد البر (٦٩) ووقفته عليها أياما ورغّبته في أن يتاملها ، فأقامت النسخة عنده أياما ثم نهضت إليه فقلت ما صنعت في النسخة ؟ . فقال : وجدتها فلم أجد ما أزيد فيها وما أنقص ».

[تمت رسالة الغناء بحمد الله وعونه] (٧٠).

* * *

الهوامش

(١) راجع ما جاء عنه في التهذيب ٨ : ٤٦٧ .

(٢) عبد الرحمن بن سابط تابعي ، أرسل عن النبي وكان ثقة وتوفي سنة (١١٨ هـ) انظر : ترجمته في التهذيب (٦ : ١٨٠ رقم ٣٦١) .

(٣) ص . الاسماع .

(٤) الحديث في سنن الترمذي (تفسير سورة : ٣١) وتلبيس إبليس : ٢٣٣ .

(٥) ابن أبي الورد اسمه عمران بن عبد الله ، انظر لسان الميزان : ١٧٣٠ .

(٦) « ثنا » : من اختصارات الاسناد ، معناها : حدثنا ، وكذلك « ثني » ومعناها : حدثني .

(٧) أبو المرجي ضرار بن علي (لسان الميزان : ٩١٣) ، وحكى النباتي عن ابن حزم أنه قال : لا يدرى من هو . قال النباتي : وهو كما قال .

(٨) انظر ترجمة محمد بن كثير في لسان الميزان : ٥٧٣ .

(٩) يحيى بن سعيد في لسان الميزان : ٩٠٩ .

(١٠) الحديث في سنن الترمذي (فتن : ٣٨) وتلبيس إبليس : ٢٢٤ ، وذم الملاهي (٤٢) .

(١١) في الأصل فضل : (انظر لسان الميزان ٧٧٣) ، وضعّفه ابن الجوزي ووثقه الدارقطني ، وابن حبان .

(١٢) محمد بن المهاجر في لسان الميزان : ١٢٨٧ (٣٩٦٠٥) .

(١٣) هذا الحديث في سنن أبي داود : ٤٧٥٦ (٥٧٩٠٢) والسماع : ٨٧ ، ونهاية الأرب ٤: ١٥٨.

(١٤) انظر لسان الميزان ١٧٤ والتهذيب : ٧٣٦ قال ابن حجر : وقد أفحش ابن حزم القول فيه ونسبه إلى الكذب وتعقبه جماعة بأنه لم يسبقه أحد إلى رميه بالكذب (توفي سنة ٢٣٨ هـ) .

(١٥) انظر السماع : ٨٧ ونهاية الأرب ٤ : ١٤٧ .

(١٦) لقمان :٦ .

(١٧) الأويسي هو عبد العزيز بن عبد الله بن يحيى القرشي المدني الفقيه روى عن عبد الله بن عمر العمري (التهذيب : ٦٦٣) .

(١٨) انظر ترجمة موسى بن أعين في التهذيب : ٥٨٥ (توفى ١٧٧هـ) .

(١٩) في نهي الرسول عن بيع المغنيات انظر ابن ماجة (تجارات : ١١) وقد ورد : لا تبيعوا المغنيات ولا تشتروهن في الترمذي (بيوع : ٥١) .

(٢٠) هشام بن عمار في التهذيب : ١١ : ٥١ .

(٢١) ص : مجالد ، وترجمته في التهذيب ٤ : ٤١٤ .

(٢٢) انظر ترجمة عبد الرحمن في التهذيب ٦ : ٢٩٧ .

(٢٣) راجع التهذيب ٧: ٢٢٨ (وتوفى عطية سنة ١٢١هـ) .

(٢٤) ورد الحديث عند البخاري في الأشربة ، انظر : ارشاد السلوى ٨ : ٣١٨ ـ والحِرَ ـ بكسر الحاء ـ فرج المرأة .

(٢٥) ص : الايك ، ولآنك : الرصاص ، انظر الترمذي (لباس :١٩) والبخاري (رؤيا : ٤٥) والسماع . ٨٤ ونهاية الأرب ٤ : ١٥٥ .

(٢٦) انظر : ترجمة زيد في التهذيب ٣ : ٤٠٢ ، والظن أنه سمع معاوية بمكة ، لأن معاوية أندلسي .

(٢٧) توفي معاوية بن صالح عام (١٨٥هـ) وترجمته في التهذيب ١٠ ـ ٢٠٩ وفي توثيقه اختلاف .

(٢٨) في الأصل : جريب ، وترجمته في التهذيب ٢:١٢٩ .

(٢٩) مالك بن أبي مريم : نقل في التهذيب (١٠ : ٢١) قول ابن حزم إنه لا يدري من هو ، وقال الذهبي : لا يعرف .

(٣٠) انظر ابن ماجة (فتن . ٢٢) وقال القسطلاني (٨ :٣١٨) إن الحديث « يشرب ناس...» ورد عند الإمام أحمد وابن أبي شيبة وتاريخ البخاري .

(٣١) فى الأصل - عن أبيه . انظره فى لسان الميزان . ٩٨ ، حيث نقل كلام ابن حزم فيه .

(٣٢) ممن يؤيد ابن حزم فى هذا . الذهبى (ميزان ٢ : ١٢٦) وابن حجر (لسان : ٣ : ٢٩).

(٣٣) من رواة هذا الحديث : أبو المرجى الجيلانى ، وأحمد بن سعيد ـ ولقد أورد ابن حجر فيهما رأى ابن حزم ـ وفرج ابن فضالة ـ وفيه قال الإمام أحمد : حدّث عن يحيى بن سعيد مناكير ، وحدّث عن ثقات مناكير . وقال أبو حاتم : حديثه عن يحيى بن سعيد فيه نكارة . وقال الساجى : روى عن يحيى بن سعيد مناكير . وقال ابن حبان . فرج بن فضالة كان يقلب الأسانيد ويلزق المتون الواهية بالأسانيد الصحيحة ، لا يحل الاحتجاج به ـ (السماع : ٨٥).

(٣٤) فى رواة هذا الحديث عبد الرحمن بن عبد الله العمرى ـ وفيه يقول الإمام أحمد . « لا يسوى حديثه شيئا ، حذفنا حديثه .. أحاديثه مناكير ، وكان كذابا » (السماع : ٨٤).

(٣٥) القاسم بن عبد الرحمن « وهو منكر الحديث ، وكان يروى عن الصحابة المعضلات» (السماع : ٧٩) . وإسماعيل بن عياش (التهذيب : ٥٨) تكلم فيه قوم ووثقه آخرون وسئل عنه يحيى بن معين فقال : ليس به فى أهل الشام بأس ، والعراقيون يكرهون حديثه .

(٣٦) هو عبد الملك بن حبيب (٢٣٨هـ ٨٥٢م) قال فيه ابن الفرضى : لم يكن لابن حبيب علم بالحديث ، وحكى الباجى وابن حزم أن أبا عمر بن عبد البر كان يكذبه .

(٣٧) قال ابن القيم (روضة المحبين . ١٣٠ ـ ١٣١) ـ ناقدا رأى ابن حزم هذا ـ : «وخفى عليه أن البخارى لقى من علقه عنه وسمع منه ، وهو هشام بن عمار ، وخفى عليه أن الحديث قد أسنده غير واحد من أئمة الحديث غير هشام بن عمار » .

(٣٨) من رواه هذا الحديث أبو نعيم ـ عبيد بن محمد ـ وفيه يقول ابن القيسرانى : ضعيف ولم يبلغ عن ابن المبارك ، والحديث عن مالك منكر جدا ، وإنما يروى عن ابن المكندر مرسلا .

(٣٩) ممن يؤيد ابن حزم فى ذلك : الذهبى . وفى معاوية ابن صالح يقول ابن معين : ليس بمرضى .

(٤٠) من رواة هذا الحديث جابر . وفيه يقول ابن حبان : كان ردىء الحفظ كثير الوهم فاحش الخطأ ، يروى الشىء على التوهم ، ويحدث الحسبان ، وكثرت المناكير من حديثه فاستحق الترك ، وتركه أحمد بن حنبل ويحيى بن معين (السماع : ٨٥) . وهو معروف بالكذب والتدليس والغلو فى التشيع . وفى الرواية الثانية لهذا الحديث محمد بن يزيد الطحان اليشكرى ، وهو خبيث وضاع (السماع : ٨٣) .

(٤١) ص : فإنه .

(٤٢) ص : يفتن ، نهاية الأرب ، اقتنى .

(٤٣) الأنعام . ١١٩ .

(٤٤) البقرة : ٢٩ .

(٤٥) كرره الإمام أحمد فى مسنده (١٥٢٠ ، ١٥٤٥) ، ورواه البخارى (٩ : ٩٥) ، ومسلم (٧ : ٩٢) . وتختلف روايته بعض الشىء عما ورد هنا ، وأقرب بها إلى ما رواه ابن حزم : « إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم ، فحرم من أجل مسألته » .

(٤٦) انظر صحيح مسلم ٣ : ٢١ باب صلاة العيدين ، والبخارى باب سنة العيدين لأهل الاسلام ٢ : ١٧ ، وابن ماجة (نكاح : ٢١) وبوراق الالماع : ١٣٢ ، والسماع ٣٧ .

(٤٧) ص : الأيدى .

(٤٨) صحيح مسلم ٣ . ٢٢ ، وانظر البخارى (عيدين : ٢ ، ٣٠) والسماع : ٣٨ .

(٤٩) سنن أبى داود ٧ : ٢٢٨ (٢ : ٥٧٩) وانظر ذم الملاهى : ٥٢ ، والسماع : ٥٩ .

(٥٠) فى مسند السجستانى : على .

(٥١) فى الاصل : وصنع ، وفى مسند أبى داود تعليقا على هذا الحديث . قال أبو على اللؤلؤى : سمعت أبا داود يقول : وهو حديث منكر .

(٥٢) ص : بثوبه بعد الدلك . والتصويب عن نهاية الأرب .

(٥٣) السدة هنا باب الدار أو البيت ، أو شيء كالظلة على الباب ، وفي نهاية الأرب : سهوة.

(٥٤) نهاية الأرب : وإن الترك له .

(٥٥) انظر صحيح مسلم ٣ : ٢٢ .

(٥٦) في الأصل : منكبيه .

(٥٧) في الصحيح : أنصرف عن النظر إليهم .

(٥٨) انظر في التهذيب : ١٠٧ .

(٥٩) ص : بيه .

(٦٠) ص : فقد ، والتصويب عن نهاية الأرب .

(٦١) يونس : ٣٢ .

(٦٢) ص : فقرأ في ذلك ، والتصويب عن نهاية الأرب .

(٦٣) ص : اللغز .

(٦٤) ص : واجماعها .

(٦٥) ص : بنص .

(٦٦) انظر هذا الحديث في باب إثم من كذب على النبي من صحيح البخاري ١ : ٢٩.

(٦٧) ص : أبو بكر بن محمد بن الباقي نوفل الحجازي والاسم محرف تحريفا شديدا . وصوابه أبو بكر عبد الباقي بن محمد بن سعيد بن بريال الحجازي نسبه إلى وادي الحجارة توفي سنة ٥٠٢ (الصلة : ٢٦٦) .

(٦٨) ص : مأته .

(٦٩) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري الفقيه الحافظ المكثر العالم بالقراءات وعلوم الحديث والرجال ، كان كثير الشيوخ ، على أنه لم يخرج عن الأندلس ، لكنه سمع من أكابر أهل الحديث بقرطبة وغيرها ومن الغرباء القادمين إليها ، وله مؤلفات كثيرة قيمة توفي سنة ٤٦٠ هـ . وترجمته في الجذوة : ٣٤٤

والصلة : ٦٤٠ وترتيب المدارك ٤: ٨٠٨ وتذكرة الحفاظ : ١١٢٢٨ والديباج : ٢٥٧ وابن خلكان ٧ : ٧٦ .

(٧٠) وفى (المحلى) - لابن حزم - الذى نثبت فيما يلى ما كتبه فيه عن حكم الغناء تفصيل أكثر من هذا الموضوع .

* * *

ـ ٢ ـ

المحلى

بالآثار فى شرح المجلى بالاختصار

٥٥٣ ـ مسألة [١] ـ والغناء واللعب والزَّفْن[٢] فى أيام العيدين حسن فى المسجد وغيره . حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله ، ثنا إبراهيم بن أحمد ، ثنا الفربرى ، ثنا البخارى ، ثنا أحمد بن صالح ، ثنا ابن وهب ، أنا عمرو ـ وهو ابن الحارث ـ أن محمد بن عبد الرحمن ـ هو يتيم عروة ـ حدثه عن عروة ، عن عائشة قالت « دخل علىّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعندى جاريتان تغنيان بغناء بعاث[٣]، فاضطجع على الفرش وحول وجهه ، فدخل أبو بكر فانتهرنى وقال : مزمارة الشيطان عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟! .. فأقبل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : دعهما[٤]، فلما غفل غمزتهما فخرجتا ، وكان يوم عيد ، يلعب السودان بالدرق والحراب ، فإما سألتُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وإما قال : تشتهين تنظرين ؟ فقلت : نعم ، فأقامنى وراءه ، خدى على خده ، وهو يقول : دونكم يا بنى أرْفدَة[٥] حتى إذا مللت قال : حسبك ؟ قلت : نعم ، قال : فاذهبى » .

حدثنا عبد الله بن يوسف ، ثنا أحمد بن فتح ، ثنا عبد الوهاب بن عيسى ،

ثنا أحمد بن محمد ، ثنا أحمد بن على ، ثنا مسلم بن الحجاج ، حدثنى هرون بن سعيد الأيلى ، حدثنى ابن وهب ، أخبرنى عمرو بن الحارث أن ابن شهاب حدثه عن عروة ، عن عائشة : « أن أبا بكر دخل عليها وعندها جاريتان فى أيام منى تغنيان وتضربان ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مسجى بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عنه وقال : دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد » .

وبه إلى مسلم : ثنا زهير بن حرب ، ثنا جرير ـ هو ابن عبد الحميد ـ عن هشام ـ هو ابن عروة ـ عن أبيه ، عن عائشة قالت : « جاء حبش يزفنون فى يوم عيد فى المسجد ، فدعانى النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فوضعت رأسى على منكبه ، فجعلت انظر إلى لعبهم ، حتى كنت أنا التى انصرفت » .

وبه إلى مسلم : حدثنى محمد بن رافع ، وعبد بن حميد كلاهما عن عبد الرزاق ، أنا معمر ، عن الزهرى ، عن سعيد بن المسيب ، عن أبى هريرة قال : « بينما الحبشة يلعبون عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحرابهم إذ دخل عمر بن الخطاب ، فأهوى إليهم ليحصبهم بالحصباء ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : دعهم يا عمر » .

قال أبو محمد : أين يقع إنكار من أنكر من إنكار سَيِّدَىْ هذه الأمة بعد نبيها ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبى بكر ، وعمر رضى الله عنهما ؟ ! وقد أنكر عليه السلام عليهما إنكارهما ، فرجعا عن رأيهما إلى قوله عليه السلام .

١٥٦٥ ـ مسألة (٦)ـ وبيع الشطرنج ، والمزامير ، والعيدان والمعارف ، والطنابير حلال كله ، ومن كسر شيئا من ذلك ضمنه إلا أن يكون صورة مصورة (٧) فلا ضمان على كاسرها لما ذكرنا قبل ، لأنها مال من مال مالكها ،

وكذلك بيع المغنيات وابتياعهن . قال تعالى : (خلق لكم ما فى الأرض جميعا)(٨) . وقال تعالى : (وأحل الله البيع) (٩) وقال تعالى : (وقد فصّل لكم ما حرم عليكم) (١٠) ولم يأت نص بتحريم بيع شىء من ذلك ، ورأى أبو حنيفة الضمان على من كسر شيئا من ذلك .

واحتج المانعون بآثار لا تصح ، أو يصح بعضها ولا حجة لهم فيها ، وهى ما روينا من طريق أبى داود الطيالسى ، نا هشام ، عن يحيى بن أبى كثير ، عن أبى سلام ، عن عبد الله بن زيد بن الأزرق ، عن عقبة بن عامر الجهنى قال : « قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : كل شىء يلهو به الرجل فباطل إلا رمى الرجل بقوسه ، أو تأديبه فرسه ، أو ملاعبته امرأته ، فإنهن من الحق » .

عبد الله بن زيد بن الأزرق مجهول .

ومن طريق ابن أبى شيبة ، عن عيسى بن يونس ، عن عبد الرحمن بن يزيد ، عن جابر ، نا أبو سلام الدمشقى ، عن خالد بن زيد الجهنى ، قال لى عقبة بن عامر : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « ليس لهو المؤمن إلا ثلاث ، ثم ذكره .

خالد بن زيد مجهول .

ومن طريق أحمد بن شعيب ، أنا سعيد ، نا ابن حفص ناموسى بن أعين ، عن خالد بن أبى يزيد ، حدثنى عبد الرحيم ، عن الزهرى ، عن عطاء بن أبى رباح رأيت جابر بن عبد الله ، وجابر بن عبيد الأنصاريين يرميان ، فقال أحدهما للآخر : « أما سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : كل شىء ليس من ذكر الله فهو لعب لا يكون أربعة : ملاعبة الرجل امرأته ،

وتأديب الرجل فرسه ، ومشى الرجل بين الغرضين ، وتعليم الرجل السباحة » .

هذا حديث مشوش مدلس دلسة سوء ، لأن الزهرى المذكور فيه ليس هو ابن شهاب ، ولكنه رجل زهرى مجهول اسمه عبد الرحيم ، رويناه من طريق أحمد بن شعيب ، أنا محمد بن وهب الحرانى ، عن محمد بن سلمة الحراني ، عن أبى عبد الرحيم ـ هو خالد بن أبى يزيد ـ وهو خال محمد بن سلمة ، عن عبد الرحيم الزهرى ، عن عطاء رأيت جابربن عبد الله ، وجابر بن عبيد الأنصاريين يرميان فقال أحدهما للآخر : سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « كل شىء ليس فيه ذكر الله تعالى فهو سهو ولعب إلا أربعة : ملاعبة الرجل امرأته ، وتأديب الرجل فرسة ، ومشيه بين الغرضين ، وتعليم الرجل السباحة » .

فسقط هذا الخبر .

ورويناه أيضا من طريق أحمد بن شعيب ، أنا إسحاق بن إبراهيم ، أنا محمد بن سلمة ، أنا أبو عبد الرحيم ، عن عبد الوهاب بن بخت ، عن عطاء بن أبى رباح ، رأيت جابر بن عبد الله ، وجابر بن عبيد فذكره ، وفيه: « كل شىء ليس من ذكر الله فهو لغو وسهو » .

عبد الوهاب بن بخت غير مشهور بالعدالة . ثم ليس فيه إلا أنه سهو ولغو ، وليس فيه تحريم .

وروى من طريق العباس بن محمد الدورى ، عن محمد بن كثير العبدى ، ناجعفر بن سليمان الضبعى ، عن سعيد بن أبى رزين ، عن أخيه ، عن ليث بن أبى سليم ، عن عبد الرحمن بن سابط ، عن عائشة أم المؤمنين رضى الله

عنها ، عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله حرم المغنية وبيعها وثمنها وتعليمها والاستماع إليها » .

فيه ليث ، وهو ضعيف ، وسعيد بن أبي رزين ، وهو مجهول لا يُدرى من هو ، عن أخيه ، وما أدراك ما عن أخيه ، هو ما يُعرف وقد سمي ، فكيف أخوه الذي لم يُسَمَّ ؟! .

وحدثنا أحمد بن عمر بن أنس ، نا أبو أحمد سهل بن محمد بن أحمد بن سهل المروزي ، نا لاحق بن الحسين المقدسي ـ قدم مر ـ نا أبو المرجى ضرار بن على بن عمير القاضي الجيلاني ، نا أحمد بن سعيد بن عبد الله بن كثير الحمصي ، نا فرج بن فضالة ، عن يحيى بن سعيد ، عن محمد بن على بن الحنفية ، عن أبيه على بن أبي طالب ، قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إذا عملت أمتي خمس عشرة خصلة حل بها البلاء فذكر منهن(١١): « واتخذوا القينات ، والمعازف فليتوقعوا عند ذلك ريحا حمراء ومسخا وخسفا » .

لاحق بن الحسين ، وضرار بن على ، والحمصي مجهولون ، وفرج بن فضالة حمصي متروك ، تركه يحيى ، وعبد الرحمن .

ومن طريق قاسم بن أصبغ ، نا إبراهيم بن إسحاق النيسابوري ، نا أبو عبيدة بن الفضيل بن عياض ، نا أبو سعيد مولى بني هاشم ـ هو عبد الرحمن بن عبد الله ـ نا عبد الرحمن بن العلاء ، عن محمد بن المهاجر ، عن كيسان مولى معاوية ، نا معاوية ، قال : « نهى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن تسع وأنا أنهاكم عنهن الآن ، فذكر فيهن الغناء والنوح » .

محمد بن المهاجر ضعيف ، وكيسان مجهول .

ومن طريق أبي داود ، نا مسلم بن إبراهيم ، نا سلام بن مسكين ، عن شيخ ، أنه سمع أبا وائل يقول : سمعت ابن مسعود يقول : سمعت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « إن الغناء ينبت النفاق في القلب » .

عن شيخ عجب جدا .

ومن طريق محمد بن أحمد بن الجهم ، نا محمد بن عبدوس ، نا ابن أبي شيبة ، نا زيد بن الحباب ، عن معاوية بن صالح ، نا حاتم بن حريث ، عن مالك بن أبي مريم ، حدثني عبد الرحمن ابن غنم ، حدثني أبو مالك الأشعري أنه سمع النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقول : « يشرب ناس من أمتي الخمر يسمونها بغير اسمها ، يضرب على رءوسهم بالمعازف والقينات(١٢) يخسف الله بهم الأرض » .

معاوية بن صالح ضعيف ، وليس فيه أن الوعيد المذكور إنما هو على المعازف ، كما أنه ليس على اتخاذ القينات ، والظاهر أنه على استحلالهم الخمر بغير اسمها ، والديانة لا تؤخذ بالظن .

حدثنا أحمد بن إسماعيل الحضرمي القاضي ، نا محمد بن أحمد بن الخلاص ، نا محمد بن القاسم بن شعبان المصري ، حدثني إبراهيم بن عثمان بن سعيد ، نا أحمد بن الغمر بن أبي حماد بحمص ، ويزيد بن عبد الصمد ، نا عبيد بن هشام الحلي ــ هو ابن نعيم ــ ، نا عبد الله بن المبارك ، عن مالك بن أنس ، عن محمد بن المنكدر ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « من جلس إلى قينة فسمع (١٣) منها صب الله في أذنيه الآنُك (١٤) يوم القيامة » .

هذا حديث موضوع مركب فضيحة ، ما عرف قط من طريق أنس ، ولا

من رواية ابن المنكدر ، ولا من حديث مالك ، ولا من جهة ابن المبارك ، وكل من دون ابن المبارك إلى ابن شعبان مجهولون ، وابن شعبان فى المالكيين نظير عبد الباقى بن نافع فى الحنيفيين ، وقد تأملنا حديثهما فوجدنا فيه البلاء البين ، والكذب البحت ، والوضع اللائح ، وعظيم الفضائح ، فإما تغير ذكرهما ، أو اختلطت كتبهما ، وإما تعمدا الرواية عن كل من لا خير فيه من كذاب ، ومغفل يقبل التلقين ، وأما الثالثة وهى ثالثة الأثاف أن يكون البلاء من قبلهما ونسأل الله العافية ، والصدق ، وصواب الاختيار .

ومن طريق ابن شعبان قال : روى هاشم بن ناصح ، عن عمر بن موسى ، عن مكحول ، عن عائشة قالت : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من مات وعنده جارية مغنية فلا تصلوا عليه » .

هاشم ، وعمر ، مجهولان ، ومكحول لم يلق عائشة .

وحديث لا ندرى له طريقا ، إنما ذكروه هكذا مطلقا أن الله تعالى « نهى عن صوتين ملعونين صوت نائحة وصوت مغنية » .

وهذا لا شىء .

ومن طريق سعيد بن منصور ، نا إسماعيل بن عياش ، عن مطرح بن يزيد ، نا عبيد الله بن زحر ، عن على بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبى أمامه سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يحل بيع المغنيات ولا شراؤهن وثمنهن حرام ، وقد نزل تصديق ذلك فى كتاب الله : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) الآية . والذى نفسى بيده ما رفع رجل قط عقيرة صوته بغناء إلا ارتدفه شيطانان يضربانه على صدره وظهره حتى يسكت » .

إسماعيل ضعيف ، ومطرح مجهول ، وعبيد الله بن زحر ضعيف ، والقاسم ضعيف ، وعلى بن يزيد دمشقى مطرح متروك الحديث .

ومن طريق عبد الملك بن حبيب الأندلسى ، عن عبد العزيز الأويسى ، عن إسماعيل بن عياش ، عن على بن يزيد ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبى أمامة الباهلى ، سمعت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : « لا يحل تعليم المغنيات ولا شراؤهن ولا بيعهن ولا اتخاذهن ، وثمنهن حرام ، وقد أنزل الله ذلك فى كتابه (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم) ، والذى نفسى بيده ما رفع رجل عقيرته بالغناء إلا ارتدفه شيطانان يضربان بأرجلهما صدره وظهره حتى يسكت » .

ومن طريق ابن حبيب أيضا ، نا ابن معبد ، عن موسى بن أعين ، عن القاسم ، عن عبد الرحمن ، عن أبى أمامة ، أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله حرم تعليم المغنيات وشراءهن وبيعهن وأكل أثمانهن » .

أما الأول ، فعبد المالك هالك ، وإسماعيل بن عياش ضعيف ، وعلى بن يزيد ضعيف متروك الحديث ، والقاسم بن عبد الرحمن ضعيف ، والثانى عن عبد الملك ، والقاسم أيضا ، وموسى بن أعين ضعيف .

ومن طريق عبد الملك بن حبيب ، عن عبد العزيز الأويسى ، عن عبد الله ابن عمر قال : قال رجل : « يارسول الله ، لى إبل أفأحدو فيها ؟ قال : نعم ، قال أفأغنى فيها ؟ .. قال : اعلم أن المغنى أذناه بيد شيطان يرغمه حتى يسكت » .

هذا عبد الملك والعمرى الصغير وهو ضعيف .

ومن طريق سعيد بن منصور ، نا أبو داود ـ هو سليم بن سالم بصرى

ـ نا حسان بن أبي سنان ، عن رجل ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يمسخ قوم من أمتي في آخر الزمان قردة وخنازير قالوا : يا رسول الله ويشهدون أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . » قال : نعم ويصلون ويصومون ويحجون ، قالوا : فما بالهم يا رسول الله ؟ قال : اتخذوا المعازف ، والقينات ، والدفوف ، ويشربون هذه الأشربة فباتوا(١٥) على لهوهم وشرابهم فأصبحوا قردة وخنازير » .

هذا عن رجل لم يسم ولم يُدر(١٦) من هو .

ومن طريق سعيد بن منصور أيضا ، نا الحارث بن شهاب ، نا فرقد السبخي ، عن عاصم بن عمرو ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « تبيت طائفة من أمتي على لهو ولعب ، وأكل وشرب فيصبحوا قردة وخنازير ، يكون فيها خسف وقذف ، ويبعث على حي من أحيائهم ريح فتنسفهم كما نسفت من كان قبلهم باستحلالهم الحرام ولبسهم الحرير ، وضربهم الدفوف ، واتخاذهم القيان » .

الحارث بن نبهان لا يكتب حديثه ، وفرقد السبخي ضعيف نعم ، وسليم بن سالم ، وحسان بن أبي سنان ، وعاصم بن عمرو لا أعرفهم ، فسقط هذان الخبران بيقين .

ومن طريق سعيد بن منصور ، نا فرج بن فضالة ، عن علي بن يزيد ، عن القاسم ، عن أبي أمامة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : «إن الله بعثني رحمة للعالمين وأمرني بمحو المعازف ، والمزامير ، والأوثان ، والصلب ، لا يحل بيعهن ولا شراؤهن ولا تعليمهن ولا التجارة بهن وثمنهن حرام » .

نعني الضوارب ، القاسم ضعيف .

ومن طريق البخارى ، قال هشام بن عمار : نا صدقة بن خالد ، نا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر ، نا عطية بن قيس الكلابى ، حدثنى عبد الرحمن بن غنم الأشعرى (قال)(١٧) : حدثنى أبو عامر ـ أو أبو مالك الأشعرى ـ ووالله ما كذبنى ـ أنه سمع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : «ليكونن من أمتى قوم (١٨) يستحلون الخز (١٩) والحرير ، والخمر ، والمعازف».

وهذا منقطع لم يتصل ما بين البخارى وصدقه بن خالد .

ولا يصح فى هذا الباب شيء أبدا وكل ما فيه فموضوع ، ووالله لو أسند جميعه أو واحد منه فأكثر من طريق الثقات إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما ترددنا فى الأخذ به ، ولو كان مافى هذه الأخبار حقا من أنه لا يحل بيعهن لوجب أن يُحدَّ من وطئهن بالشراء وأن لا يلحق به ولده منها ، ثم ليس فيها تحريم ملكهن ، وقد تكون أشياء يحرم بيعها ويحل ملكها وتمليكها(٢٠) ، كالماء ، والهر ، والكلب .

هذا كل ما حضرنا ذكره ، مما أضيف إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم .

أما عمن دونه عليه السلام ، فروينا من طريق ابن أبى شيبة ، نا حاتم ابن إسماعيل ، عن حميد بن صخر ، عن عمار الدهنى ، عن سعيد بن جبير ، عن أبى الصهباء ، عن ابن مسعود فى قول الله تعالى : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله) (٢١) الآية . فقال : الغناء والذى لا إله غيره .

ومن طريق وكيع ، عن ابن أبى ليلى ، عن الحكم ، عن مقسم ، عن ابن

عباس في هذه الآية قال : الغناء وشراء المغنية .

ومن طريق ابن أبي شيبة ، نا ابن فضيل ، عن عطاء ، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس في هذه الآية قال : الغناء ونحوه .

ومن طريق سعيد بن منصور ، نا أبو عوانة ، عن عبد الكريم الجزري، عن أبي هاشم الكوفي ، عن ابن عباس قال : الدف حرام ، والمعازف حرام، والمزمار حرام ، والكوبة (٢٢) حرام .

ومن طريق سعيد بن منصور ، نا أبو عوانة ، عن حماد بن أبي سليمان عن إبراهيم قال : الغناء ينبت النفاق في القلب .

ومن طريق سعيد بن منصور ، نا أبو وكيع(٢٣)عن منصور ، عن إبراهيم قال : كان أصحابنا يأخذون بأفواه السكك يخرقون الدفوف .

ومن طريق ابن أبي شيبة ، نا وكيع عن سفيان ، عن حبيب بن أبي ثابت، عن مجاهد في قول الله تعالى : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث) قال : الغناء ، وهو أيضا قول حبيب بن أبي ثابت .

ومن طريق ابن أبي شيبة ، نا عبدة بن سليمان ، عن إسماعيل بن أبي خالد ، عن شعيب ، عن عكرمة في هذه الآية قال : هو الغناء .

قال أبو محمد : لا حجة في هذا كله لوجوه .

أحدها : أنه لا حجة لأحد دون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

والثاني : أنه قد خالف غيرهم من الصحابة والتابعين .

والثالث : أن نص الآية يبطل احتجاجهم بها لأن فيها : (ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزوا أولئك لهم عذاب مهين) .

وهذه صفة من فعلها كان كافرا بلا خلاف إذا اتخذ سبيل الله تعالى هزوا، ولو أن امرءا اشترى مصحفا ليضل به عن سبيل الله ويتخذها هزوا لكان كافرا ، فهذا هو الذي ذم الله تعالى ، وما ذم قط عز وجل من اشترى لهو الحديث ليلتهي به ويروح نفسه ، لا ليضل عن سبيل الله تعالى ، فبطل تعلقهم بقول كل من ذكرنا .

وكذلك من اشتغل عامدا عن الصلاة بقراءة القرآن ، أو بقراءة السُّنن ، أو بحديث يتحدث به ، أو ينظر في ماله ، أو بغناء أو بغير ذلك ، فهو فاسق عاص لله تعالى . ومن لم يضيع شيئا من الفرائض اشتغالا بما ذكرنا فهو محسن .

واحتجوا فقالوا : من الحق الغناء ، أم من غير الحق ، ولا سبيل إلى قسم ثالث ؟ . فقالوا : وقد قال الله عز وجل : (فماذا بعد الحق إلا الضلال) (٢٤) فجوابنا ، وبالله تعالى التوفيق : إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال :« إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئٍ ما نوى » فمن نوى باستماع الغناء عونا على معصية الله تعالى فهو فاسق ، وكذلك كل شيء غير الغناء ، ومن نوى به ترويح نفسه ليقوى بذلك على طاعة الله عز وجل وينشط نفسه على البر فهو مطيع محسن ، وفعله هذا من الحق ، ومن لم ينو طاعة ولا معصية فهو لغو معفو عنه ، كخروج الإنسان إلى بستانه متنزها ، وقعوده على باب داره متفرجا ، وصباغة ثوبه لازورديا أو أخضر أو غير ذلك ، ومد ساقه وقبضها(٢٥) ، وسائر أفعاله ، فبطل كل ما شغبوا به بطلانا متيقنا ، ولله تعالى الحمد ، وما نعلم لهم شبهة غير ما ذكرناه . أ. هـ .

* * *

الهوامش

(١) (المحلى) جـ ٥ ص ٩٢ ، ٩٣ . طبعة دار الآفاق الجديدة ـ بيروت ـ بدون تاريخ ، وهي مصورة عن طبعة القاهرة سنة ١٣٤٧هـ .

(٢) بفتح الزاى وإسكان الفاء .

(٣) بضم الباء وفتح العين المهملة المخففة . موضع في نواحي المدينة على ليلتين منها ، كانت به وقائع بين الأوس والخزرج في الجاهلية .

(٤) هكذا في الأصلين بالافراد . وفي البخاري (جـ ٢ ص ٥٤ ، ٥٥) «دعهما» وكل صحيح .

(٥) بفتح الهمزة وإسكان الراء وكسر الفاء وفتح الدال المهملة ، لقب للحبشة .

(٦)(المحلى) باب احكام البيوع ـ جـ ٩ ص ٥٥ ـ ٦٠ .

(٧) أي تمثالا ـ صنما ـ يُعبد أو يُعظَّم ، أو فيه مظنة لشيء من ذلك .

(٨) البقرة : ٢٩ .

(٩) البقرة : ٢٧٥ .

(١٠) الانعام : ١١٩ .

(١١) في النسخة رقم ١٤ فيها بدل منهن .

(١٢) في النسخة رقم (١٦) يضرب رءوسهن المعازف والمغنيات .

(١٣) في النسخة رقم (٦) يسمع .

(١٤) هو الرصاص الأبيض ، وقيل الأسود .

(١٥) في النسخة رقم ١٦ فيبيأتون .

(١٦) في النسخة رقم ١٦ ولا يدري .

(١٧) الزيادة من صحيح البخارى .

(١٨) فى صحيح البخارى أقوام ، وهو مطول فيه اختصره المصنف واقتصر على محل الشاهد منه .

(١٩) فى النسخة رقم ١٤ بخاء معجمة وما هنا موافق لصحيح البخارى .

(٢٠) النسخة رقم ١٦ تملكها .

(٢١) لقمان : ٦ .

(٢٢) قال ابن الأثير فى النهاية ، هى النرد ، وقيل الطبل ، وقيل البربط .

(٢٣) فى النسخة رقم (١٦) نا وكيع .

(٢٤) يونس : ٣٢ .

(٢٥) فى النسخة رقم ١٤ : ومد ساقيها وقبضهما .

* * *

(ب)

أبو حامد الغزالى

(محمد بن محمد بن محمد الغزالى الطوسى)

(٤٥٠ ـ ٥٠٥ هـ ـ ١٠٥٨ ـ ١١١١م)

كتاب آداب السماع

الباب الأول

فى ذكر اختلاف العلماء فى إباحة السماع ، وكشف الحق فيه (*)

(*) أخذنا هذا النص من كتاب الغزالى (إحياء علـوم الدين) ـ طبعة دار الشعب ـ القاهرة ـ وهى مصورة .

وقد استفدنا من التخريجات التى جاءت بهامشها للأحاديث الواردة فى النص ـ وهى التى خرجها العراقى أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين بن عبد الرحمن زين الدين العراقى الكردى (٧٢٥ ـ ٨٠٦ هـ) تحت عنوان (المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار) .. ومكان هذا النص فى (الإحياء) ص ١١٢١ ـ ١١٥٣ ، ص ١١٨٣ ـ ولقد أضفنا إلى النص ما رأيناه ـ فى التحقيق ـ ضروريا من التعليقات والشروح والتراجم للأعلام والترقيم ...

الباب الأول

فى ذكر اختلاف العلماء فى إباحة السماع ، وكشف الحق فيه

بيان أقاويل العلماء والمتصوفة فى تحليله وتحريمه

اعلم أن السماع هو أول الأمر ، ويثمر السماع فى حالة فى القلب تُسمى الوَجْد ، ويثمر الوجد تحريك الأطراف ، إما بحركة غير موزونة فتسمى الاضطراب ، وإما موزونة فتسمى التصفيق والرقص ، فلنبدأ بحكم السماع، وهو الأول ، وننقل فيه الاقاويل المعربة عن المذاهب فيه ، ثم نذكر الدليل على إباحته ، ثم نردفه بالجواب عما تمسك به القائلون بتحريمه ، فأما نقل المذاهب.

فقد حكى القاضى أبو الطيب (١) الطبرى عن الشافعى ، ومالك ، وأبى حنيفة، وسفيان ، وجماعة من العلماء الفاظا يستدل بها على أنهم رأوا تحريمه .

وقال الشافعى(٢) رحمه الله فى كتاب آداب القضاء : إن الغناء لهو مكروه يشبه الباطل ، ومن استكثر منه فهو سفيه تُرد شهادته .

قال القاضى أبو الطيب : استماعه من المرأة التى ليست بمَحْرَم له لا

يجوز عند أصحاب الشافعي ، رحمه الله ، بحال ، سواء كانت مكشوفة أو من وراء حجاب ، وسواء كانت حرة أو مملوكة .

وقال الشافعي ، رضي الله عنه ، صاحب الجارية إذا جمع الناس لسماعها فهو سفيه تُرد شهادته .

وقال : وحكي عن الشافعي أنه كان يكره الطقطقة بالقضيب ، ويقول : وضعته الزنادقة ليشتغلوا به عن القرآن ، وقال الشافعي رحمه الله ، ويكره ، من جهة الخبر ، اللعب بالنرد أكثر مما يكره اللعب بشيء من الملاهي ، ولا أحب اللعب بالشطرنج ، وأكره كل ما يلعب به الناس ، لأن اللعب ليس من صنعة أهل الدين ولا المروءة .

وأما مالك[٣] رحمه الله ، فقد نهى عن الغناء ، وقال : إذا اشترى جارية فوجدها مغنية كان له ردها ، وهو مذهب سائر أهل المدينة إلا إبراهيم بن سعد وحده .

وأما أبو حنيفة [٤] رضي الله عنه ، فإنه كان يكره ذلك ، ويجعل سماع الغناء من الذنوب ، وكذلك سائر أهل الكوفة . سفيان الثوري[٥]، وحماد [٦]، وإبراهيم [٧] ، والشعبي[٨] . وغيرهم ، فهذا كله نقله القاضي أبو الطيب الطبري .

ونقل أبو طالب المكي [٩] إباحة السماع عن جماعة فقال : سمع من الصحابة عبد الله بن جعفر ، وعبد الله بن الزبير ، والمغيرة بن شعبة ، ومعاوية وغيرهم ، وقال : قد فعل ذلك كثير من السلف الصالح ، صحابي وتابعي بإحسان . وقال : لم يزل الحجازيون عندنا بمكة يسمعون السماع

فى أفضل أيام السنة ، وهي الأيام المعدودات التي أمر الله عباده فيها بذكره ، كأيام التشريق ، ولم يزل أهل المدينة مواظبين كأهل مكة على السماع إلى زماننا هذا ، فأدركنا أبا مروان القاضي وله جوار يسمعن الناس التلحين قد أعدهن للصوفية ، قال : وكان لعطاء جاريتان يلحنان فكان إخوانه يستمعون إليهما ، قال : وقيل لأبي الحسن بن سالم كيف تنكر السماع وقد كان الجنيد (١٠) وسري السقطي (١١) وذو النون (١٢) يستمعون ؟ فقال : وكيف أنكر السماع وقد أجازه وسمعه من هو خير مني ، فقد كان عبد الله بن جعفر الطيار يسمع ، وإنما أُنكر اللهو اللعب فى السماع . وروى عن يحيى ابن معاذ أنه قال : فقدنا ثلاثة أشياء فما نراها ولا أراها تزداد إلا قلة : حسن الوجه مع الصيانة ، وحسن القول مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء . ورأيت فى بعض الكتب هذا محكيا بعينه عن الحارث المحاسبي (١٣) ، وفيه ما يدل على تجويزه السماع مع زهده وتصاونه وجده فى الدين وتشميره . قال : وكان ابن مجاهد لا يجيب دعوة إلا أن يكون فيه سماع . وحكي غير واحد أنه قال : اجتمعنا فى دعوة ومعنا أبو القاسم بن بنت منيع ، وأبو بكر بن داود ، وابن مجاهد فى نظرائهم ، فحضر سماع ، فجعل ابن مجاهد يحرض ابن بنت منيع على ابن داود فى أن يسمع ، فقال ابن داود : حدثني أبي عن أحمد بن حنبل أنه كره السماع ، وكان أبي يكرهه ، وأنا على مذهب أبي ، فقال أبو القاسم بن بنت منيع : أما جدي أحمد بن بنت منيع فحدثني عن صالح بن أحمد ، أن أباه كان يسمع قول ابن الخبازة ، فقال ابن مجاهد لابن داود دعني أنت من أبيك ، وقال لابن بنت منيع دعني أنت من جدك ، أي شيء

تقول يـا أبا بكـر فيمن أنشد بيـت شعر أهو حـرام ؟ . قال : لا ، قـال : فإن أنشده وطوله وقصر منه الممدود ومـد منه المقصور أيحرم عليه ؟. قال : أنا لم أقو لشيطان واحد فكيـف أقوى لشيطانين !.. قـال : وكان أبـو الحسن العسقلانى الأسود من الأولياء يسمع ويوله عند السماع ، وصنف فيه كتابا وردّ فيه على منكريه ، وكذلك جماعة منهم صنفوا فى الرد على منكريه .

وحكى عن بعض الشيوخ أنه قال : رأيت أبا العباس الخضر عليه السلام، فقلت لـه ما تقول فى هـذا السماع الذى اختلف فيـه أصحابنا ؟. فقـال : هو الصفو الزلال الذى لا يثبت عليه إلا أقدام العلماء .

وحكى عن ممشاد الدينورى أنـه قال : رأيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم فى النوم فقلت : يا رسول الله ، هل تنكر من هذاالسماع شيئا ؟ فقال : ما أنكر منه شيئا ، ولكن قل لهم يفتتحون قبله بالقرآن ويختمون بعده بالقرآن .

وحكى عن طـاهر بن بـلال الهمدانى الـوراق ، وكان من أهل العلـم ، أنه قال: كنت معتكفا فى جامع جده على البحر ، فـرأيت يوما طائفـة يقولون فى جانب منه قولا ويستمعون ، فـأنكرت ذلك بقلبى ، وقلت ، فى بيت من بيوت الله ، يقولون الشعـر ! قال : فرأيت النبى ـ صلى الله عليه وسلـم ـ تلك الليلة وهو جـالس فى تلك الناحية ، وإلى جنبـه أبو بكر الصديـق ، رضى الله عنه ، وإذا أبو بكر يقـول شيئا من القول والنبى ـ صلى الله عليـه وسلم ـ يستمع إليه ، ويضع يده على صدره كالواجـد بذلك . فقلت فى نفسى : ما كان ينبغى لى أن أنكر على أولئك الذين كانوا يستمعون ، وهذا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـــ يستمع ، وأبو بكـر يقول ، فـالتفت إلىّ رسول الله ـــ صلى الله عليه

وسلم ـ وقال : هذا حق بحق ، أو قال : حق من حق ـ أنا أشك فيه ـ وقال الجنيد : تنزل الرحمة على هذه الطائفة في ثلاثة مواضع ، عند الأكل ، لأنهم لا يأكلون إلا عن فاقة ، وعند المذاكرة ، لأنهم لا يتحاورون إلا في مقامات الصديقين ، وعند السماع ، لأنهم يسمعون بوجد ويشهدون حقا .

وعن ابن جريج أنه كان يرخص في السماع ، فقيل له ، أيؤتى يوم القيامة في جملة حسناتك أو سيئاتك ؟ . فقال : لا في الحسنات ولا في السيئات لأنه شبيه باللغو ، وقال الله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم)[١٦].

هذا ما نقل من الأقاويل ، ومن طلب الحق في التقليد فمهما استقصى تعارضت عنده هذه الأقاويل ، فيبقى متحيرا أو مائلا إلى بعض الأقاويل بالتشهي ، وكل ذلك قصور بل ينبغي أن يطلب الحق بطريقة وذلك بالبحث عن مدارك الحظر والإباحة كما سنذكره .

بيان الدليل على إباحة السماع

اعلم أن قول القائل : السماع حرام . معناه أن الله تعالى يعاقب عليه ، وهذا أمر لا يعرف بمجرد العقل بل بالسمع ، ومعرفة الشرعيات محصورة في النص ، أو القياس على المنصوص . وأعني بالنص : ما أظهره ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقوله ، أو فعله ، وبالقياس : المعنى المفهوم من ألفاظه وأفعاله ، فإن لم يكن فيه نص ولم يستقم فيه قياس على منصوص بطل القول

بتحريمه ، وبقى فعلا لا حرج فيه كسائر المباحات ، ولا يدل على تحريم السماع نص ولا قياس ، ويتضح ذلك فى جوابنا عن أدلة المائلين إلى التحريم ، ومهما(١٥) تم الجواب عن أدلتهم كان ذلك مسلكا كافيا فى إثبات هذا الغرض، لكن نستفتح ونقول : قد دل النص والقياس جميعا على اباحته .

أما القياس : فهو أن الغناء اجتمعت فيه معان ينبغى أن يبحث عن أفرادها ، ثم عن مجموعها ، فإن فيه سماع صوت طيب موزون مفهوم المعنى ، محرك للقلب ، فالوصف الأعم أنه صوت طيب ، ثم الطيب ينقسم إلى الموزون وغيره ، والموزون ينقسم إلى المفهوم كالأشعار وإلى غير المفهوم كأصوات الجمادات وسائر الحيوانات .

الدرجة الأولى : أما سماع الصوت الطيب من حيث إنه طيب فلا ينبغى أن يحرم ، بل هو حلال بالنص والقياس .

أما القياس : فهو أنه يرجع إلى تلذذ حاسة السمع ، بإدراك ما هو مخصوص به وللإنسان عقل وخمس حواس ، ولكل حاسة إدراك ، وفى مدركات تلك الحاسة ما يستلذ ، فلذة النظر فى المبصرات الجميلة كالخضرة والماء الجارى والوجه الحسن .

وبالجملة سائر الألوان الجميلة ، وهى فى مقابلة ما يكره من الألوان الكدرة القبيحة ، وللشم للروائح الطيبة ، وهى فى مقابلة الأنتان المستكرهة ، وللذوق الطعوم اللذيذة كالدسومة والحلاوة والحموضة ، وهى فى مقابلة المرارة المستبشعة ، وللمس لذة اللين والنعومة والملامسة ، وهى فى مقابلة الخشونة والضراسة ، وللعقل لذة العلم والمعرفة وهى فى مقابلة الجهل

والبلادة . فكذلك الأصوات المدركة بالسمع تنقسم إلى مستلذة ، كصوت العناليب والمزامير ، ومستكرهة كنهيق الحمير وغيرها ، فما أظهر قياس هذه الحاسة ولذتها على سائر الحواس ولذاتها .

وأما النص ، فيدل على إباحة سماع الصوت الحسن امتنان الله تعالى على عباده به إذ قال (يزيد فى الخلق ما يشاء) (١٦) ، فقيل : هو الصوت الحسن ، وفى الحديث : « ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت » (١٧) ، وقال ــ صلى الله عليه وسلم ــ « لَلّه أشد أَذَناً للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة لقينته »(١٨) . وفى الحديث فى معرض المدح لداود عليه السلام أنه كان حسن الصوت فى النياحة على نفسه ، وفى تلاوة الزبور ، حتى كان يجتمع الإنس والجن والوحوش والطير لسماع صوته، وكان يحمل فى مجلسه أربعمائة جنازة وما يقرب منها فى الأوقات (١٩) . وقال ـ صلى الله عليه وسلم، فى مدح أبى موسى الأشعرى : « لقد أُعطى مزمارا من مزامير آل داود »(٢٠)، وقول الله تعالى : (إن أنكر الأصوات لصوت الحمير) (٢١) يدل بمفهومه على مدح الصوت الحسن ، ولو جاز أن يقال إنما أبيح ذلك بشرط أن يكون فى القرآن للزمة أن يحرم سماع صوت العندليب ، لأنه ليس من القرآن ، وإذا جاز سماع صوت غفل لا معنى له فلم لا يجوز سماع صوت يفهم منه الحكمة ، والمعانى الصحيحة ؟ ، وإن من الشعر لحكمة ، فهذا نظر فى الصوت من حيث إنه طيب حسن

الدرجة الثانية : النظر فى الصوت الطيب الموزون ، فإن الوزن وراء الحُسن ، فكم من صوت حسن خارج عن الوزن ، وكم من صوت موزون

غير مستطاب ، والأصوات الموزونة باعتبار مخارجها ثلاثة ، فإنها إما أن تخرج من جماد كصوت المزامير والأوتار وضرب القضيب والطبل وغيره ، وإما أن تخرج من حنجرة حيوان ، وذلك الحيوان إما إنسان أو غيره كصوت العنادل والقماري وذات السجع من الطيور ، فهي مع طيبها موزونة متناسبة المطالع والمقاطع ، فلذلك يستلذ سماعها ، والأصل في الأصوات حناجر الحيوانات ، وإنما وضعت المزامير على أصوات الحناجر ، وهو تشبيه للصنعة بالخلقة ، وما من شيء توصل أهل الصناعات بصناعتهم إلى تصويره إلا وله مثال في الخلقة التي استأثر الله تعالى باختراعها ، فمنه تعلم الصناع ، وبه قصدوا الاقتداء ، وشرح ذلك يطول ، فسماع هذه الأصوات يستحيل أن يحرم لكونها طيبة ، أو موزونة فلا ذاهب إلى تحريم صوت العندليب وسائر الطيور ، ولا فرق بين حنجرة وحنجرة ، ولا بين جماد وحيوان ، فينبغي أن يقاس على صوت العندليب الأصوات الخارجة من سائر الأجسام باختيار الآدمي ، كالذي يخرج من حلقه أو من القضيب والطبل والدف وغيره ، ولا يستثنى من هذه إلا الملاهي والأوتار والمزامير التي ورد الشرع بالمنع منها (٢٢)، لا للذتها ، إذ لو كان للذة لقيس عليها كل ما يلتذ به الإنسان ، ولكن حرمت الخمور ، واقتضت ضراوة الناس بها المبالغة في الفطام عنها حتى انتهى الأمر في الابتداء إلى كسر الدنان ، فحرم معها ما هو شعار أهل الشرب ، وهي الأوتار والمزامير فقط ، وكان تحريمها من قبَل الاتباع ، كما حرمت الخلوة بالأجنبية لأنها مقدمة الجماع ، وحرم النظر إلى الفخذ لاتصاله بالسوأتين ، وحرم قليل الخمر وإن كان لا يسكر لأنه يدعو

لأنّ السكر ، وما من حرام لألا وله حـريم يطيف به ، وحكم الحرمة ينسحب على حريمه ، ليكون حمى للحرام ووقاية له ، وحظارا مانعا حوله ، كما قال ـ صلى الله عليه وسلم ــ : « إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه » [٢٣]، فهي محرمة تبعا لتحريم الخمر لثلاث علل :

احداها : أنها تدعو إلى شرب الخمـر ، فإن اللـذة الحاصلة بها إنما تتم بالخمر ، ولمثل هذه العلة حرم قليل الخمر .

الثانية : أنها في حق قـريب العهد بشرب الخمـر تذكـر مجالس الأنس بالشرب ، فهي سبب الذكر ، والذكر سبب انبعاث الشوق إذا قوى فهو سبب الإقدام . ولهذه العلـة نهي عن الانتبـاذ في المزفت والحنتم ، والنقير [٢٤] وهـي الأواني التـي كانـت مخصوصـة بها ، فمعنـي هـذا أن مشـاهدة صـورتها تذكرهـا ، وهذه العلة تفارق الأولى ، إذ ليس فيها اعتبار لـذة في الذكر ، إذ لا لـذة في رؤية القنينـة وأواني الشرب ، لكن مـن حيث التـذكر بها ، فإن كـان السماع يذكر الشرب تـذكيرا يشوق إلى الخمر عند مـن ألف ذلك مع الشرب فهو منهي عن السماع لخصوص هذه العلة فيه .

الثالثة : الاجتماع عليهـا لما أن صـار من عـادة أهل الفسق ، فيمنـع من التشبه بهم ، لأن من تشبـه بقوم فهو منـهم ، وبهذه العلة نقـول بترك السنة مهما[٢٥] صارت شعارا لأهـل البدعة ، خوفا مـن التشبه بهم ، وبهذه العلة يحرم ضرب الكـوبة ، وهــو طبل مستطيـل دقيق الـوسط واسع الطـرفين ، وضربها عادة المخنثين ، ولـولا ما فيه مـن التشبيه لكان مثـل طبل الحجيج والغزو ، وبهذه العلـة نقول : لـو اجتمع جماعة وزينـوا مجلسا ، وأحضروا

آلات الشرب وأقداحه ، وصبوا فيها السكنجبين (٢٦)، ونصبوا ساقيا يدور عليهم ويسقيهم ، فيأخذون من الساقى ويشربون ، ويحيّى بعضهم بعضا ، بكلماتهم المعتادة بينهم ، حرم ذلك عليهم وإن كان المشروب مباحا فى نفسه، لأن فى هذا تشبها بأهل الفساد ، بل لهذا ينهى عن لبس القباء ، وعن ترك الشعر على الرأس قزعا فى بلاد صار القباء فيها من لباس أهل الفساد ، ولا ينهى عن ذلك فيما وراء النهر ، لاعتياد أهل الصلاح ذلك فيهم .

فبهذه المعانى حرم المزمار العراقى والأوتار كلها كالعود والصنج والرباب والبربط وغيرها ، وما عدا ذلك ، فليس فى معناها كشاهين الرعاة ، والحجيج ، وشاهين الطبالين ، وكالطبل والقضيب ، وكل آلة يستخرج منها صوت مستطاب موزون سوى ما يعتاده أهل الشرب ، لأن كل ذلك لا يتعلق بالخمر ، ولا يُذَكِّر بها ولا يشوق إليها ، ولا يوجب التشبه بأربابها ، فلم يكن فى معناها فبقى على أصل الإباحة ، قياسا على أصوات الطيور وغيرها ، بل أقول سماع الأوتار ممن يضربها على غير وزن متناسب مستلذ حرام أيضا ، وبهذا يتبين أنه ليست العلة فى تحريمها مجرد اللذة الطيبة ، بل القياس تحليل الطيبات كلها ، إلا ما فى تحليله فساد ، قال الله تعالى (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق) (٢٧) ، فهذه الأصوات لا تحرم من حيث إنها أصوات موزونة ، وإنما تحرم بعارض آخر كما سيأتى فى العوارض المحرمة .

الدرجة الثالثة : الموزون والمفهوم ، وهو الشعر ، وذلك لا يخرج إلا من حنجرة الإنسان ، فيقطع بإباحة ذلك ، لأنه ما زاد إلا كونه مفهوما ، والكلام

المفهوم غير حرام ، والصوت الطيب الموزون غير حرام ، فإذا لم يحرم الآحاد فمن أين يحرم المجموع ؟ . نعم : ينظر فيما يفهم منه ، فإن كان فيه أمر محظور حرم نثره ونظمه ، وحرم النطق به ، سواء كان بألحان أو لم يكن .

والحق فيه ما قاله الشافعي رحمه الله ، إذ قال : الشعر كلام ، فحسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، ومهما (٢٨) جاز إنشاد الشعر بغير صوت وألحان جاز إنشاده مع الألحان ، فإن أفراد المباحات إذا اجتمعت كان ذلك المجموع مباحا ، ومهما انضم مباح لم يحرم إلا إذا تضمن المجموع محظورا لا تتضمنه الآحاد ، ولا محظور ههنا ، وكيف ينكر إنشاد الشعر وقد أُنشد بين يدى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٢٩).

وقال عليه السلام : « إن من الشعر لحكمة (٣٠)، وأنشدت عائشة ، رضى الله عنها :

ذهب الذين يُعاش فى أكنافهم ... وبقيت فى خَلَف كجلد الأجرب

وروى فى الصحيحين عن عائشة ، رضى الله عنها ، قالت : لما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة ، وعك أبو بكر وبلال ، رضى الله عنهما ، وكان بها وباء . فقلت : يا أبت كيف تجدك ؟ . ويا بلال كيف تجدك ؟ فكان أبو بكر رضى الله عنه إذا أخذته الحمى يقول :

كل امرئ مصبح فى أهله ... والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا أقلعت عنه الحمى يرفع عقيرته ويقول :

ألا ليت شعرى هل أبيتن ليلة ... بواد وحولى أذخر وجليل
وهل أَرِدَنْ يوما مياه مجنة ... وهل يبدون لى شامة وطفيل

قالت عائشة ، رضي الله عنها : فأخبرت بذلك رسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : اللهم حبب إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد [٣١].

وقد كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد ، وهو يقول :

هـذا الجمال لا جمال خيبر ... هـذا أبـر ربنـا وأطهـر

وقال أيضا ـ صلى الله عليه وسلم ـ مرة أخرى :

لا هـمّ إن العيش عيش الآخـرة ... فـارحم الأنصـار والمهاجـرة [٣٢]

وهذه في الصحيحين ، وكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضع لحسان منبرا في المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو ينافح ، ويقول رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الله يؤيد حسان بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم » [٣٣] ولما أنشده النابغة شعره قال له ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لا يفضض الله فاك » [٣٤].

وقالت عائشة رضي الله عنها : كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتناشدون عنده الأشعار وهو يبتسم [٣٥] وعن عمرو بن الشريد عن أبيه قال : أنشد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مائة قافية من قول أمية بن أبي الصلت ، كل ذلك يقول : هيه ، هيه ، ثم قال : إن كاد في شعره ليسلم[٣٦]، وعن أنس ، رضي الله عنه ، أن ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يُحْدَى له ، وأن أنجشة كان يحدو بالنساء ، والبراء بن مالك كان يحدو بالرجال ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « يا أنجشة رويدك سوقك بالقوارير » [٣٧].

ولم يزل الحداء وراء الجمال من عادة العرب فى زمان رسول - صلى الله عليه وسلم - وزمان الصحابة رضى الله عنهم ، ومـا هو إلا أشعـار تؤدى بأصوات طيبة وألحان موزونة ، ولم ينقل عن أحد من الصحابة إنكاره ، بل ربما كانوا يلتمسون ذلك تارة لتحريك الجمال ، وتارة للاستلذاذ ، فلا يجوز أن يحرم من حيث إنـه كلام مفهوم مستلـذ مؤدى بأصوات طيبة ، وألحان موزونة .

الدرجة الرابعة : النظر فيـه من حيث إنـه محرك للقلب ، ومهيج لما هـو الغالب عليه ، فأقول : لله تعالى سر فى مناسبة النغمات الموزونة للأرواح حتى أنها لتؤثـر فيها تأثيرا عجيبـا ، فمن الأصوات مـا يفرح ، ومنهـا ما يحزن ، ومنها ماينـوم ، ومنها ما يضحك ويطرب ، ومنها مـا يستخرج من الأعضاء حركات على وزنها بـاليد والرجل والـرأس ، ولا ينبغى أن يظن أن ذلك لفهم معانـى الشعر ، بل هـذا جار فى الأوتار ، حتـى قيل : من لم يحركه الـربيع وأزهاره ، والعـُود وأوتاره ، فهو فاسـد المزاج ، ليس له عـلاج ، وكيف يكون ذلك لفهم المعنى ، وتأثيره مشاهد فى الصبى فى مهـده ، فإنه يسكته الصوت الطيب عن بكائه ، وتنصرف نفسه عما يبكيه إلى الإصغاء إليه ، والـجمل ، مع بلادة طبعه ، يتأثر بالحداء تأثرا يستخف معه الأحمال الثقيلة ، ويستقصر لقوة نشاطه فى سماعه المسافات الطويلة ، وينبعث فيه من النشاط ما يسكره ويولهه ، فتراهـا إذا طالت عليها البوادى واعتراها الإعياء والكلال ، تحت المحـامل والأحمال ، إذا سـمعـت منـادى الحداء تمد أعناقهـا ، وتصـغى إلى الحادى ، نـاصبة آذانها ، وتسرع فى سيرهـا ، حتى تتزعزع عليهـا أحمالها

ومجاملها ، وربما تتلف أنفسها من شدة السير ، وثقل الحمل ، وهي لا تشعر به لنشاطها ، فقد حكي أبو بكر محمد بن داود الدينوري المعروف بالرقي (٣٨) ، رضى الله عنه ، قال : كنت بالبادية فوافيت قبيلة من قبائل العرب ، فأضافني رجل منهم ، وأدخلني خباءه ، فرأيت في الخباء عبدا أسود مقيدا بقيد ، ورأيت جمالا قد ماتت بين يدى البيت ، وقد بقي منها جمل وهو ناحل ذابل ، كأنه ينزع روحه ، فقال لي الغلام : أنت ضيف ولك حق ، فتشفع في إلى مولاى ، فإنه مكرم لضيفه فلا يرد شفاعتك في هذا القدر ، فعساه يحل القيد عني ، قال فلما أحضروا الطعام امتنعت ، وقلت : لا آكل ما لم أُشَفَّع في هذا العبد ، فقال : إن هذا العبد قد أفقرني وأهلك جميع مالى ، فقلت : ماذا فعل ؟ فقال : إن له صوتا طيبا ، وإني كنت أعيش من ظهور هذه الجمال ، فحمّلها أحمالا ثقالا ، وكان يحدو بها حتى قطعت مسيرة ثلاثة أيام في ليلة واحدة ، من طيب نغمته ، فلما حطت أحمالها ماتت كلها إلا هذا الجمل الواحد ، ولكن أنت ضيفي فلكرامتك قد وهبته لك ، قال : فأحببت أن أسمع صوته ، فلما أصبحنا أمره أن يحدو على جمل يستقى الماء من بئر هناك ، فلما رفع صوته هام ذلك الجمل وقطع حباله ، ووقعت أنا على وجهي ، فما أظن أني سمعت قط صوتا أطيب منه .

فإذن تأثير السماع في القلب محسوس ، ومن لم يحركه السماع فهو ناقص مائل عن الاعتدال بعيد عن الروحانية ، زائد في غلظ الطبع وكثافته على الجمال والطيور ، بل على جميع البهائم ، فإن جميعها تتأثر بالنغمات الموزونة ، ولذلك كانت الطيور تقف على رأس داود عليه السلام لاستماع

صوته ، ومهما (٣٩) كان النظر فى السماع باعتبار تأثيره فى القلب لم يجز أن يحكم فيه مطلقا بإباحة ولا تحريم ، بل يختلف ذلك بالأحوال والأشخاص ، واختلاف طرق النغمات . فحكمه حكم ما فى القلب .

قال أبو سليمان : السماع لا يجعل فى القلب ما ليس فيه ، ولكن يحرك ما هو فيه ، فالترنم بالكلمات المسجعة الموزونة معتاد فى مواضع ، لأغراض مخصوصة ترتبط بها آثار فى القلب ، وهى سبعة مواضع .

الأول : غناء الحجيج . فإنهم أولا يدورون فى البلاد بالطبل ، والشاهين(٤٠) والغناء ، وذلك مباح ، لأنها أشعار نظمت فى وصف الكعبة ، والمقام (٤١) ، والحطيم(٤٢) ، وزمزم ، وسائر المشاعر ، ووصف البادية وغيرها ، وأثر ذلك يهيج الشوق إلى حج بيت الله تعالى ، واشتعال نيرانه إن كان ثَمّ شوق حاصل ، أو استثارة الشوق واجتلابه إن لم يكن حاصلا ، وإذا كان الحج قربة والشوق محمودا كان التشويق إليه بكل ما يشوق محمودا ، وكما يجوز للواعظ أن ينظم كلامه فى الوعظ ، ويزينه بالسجع ، ويشوق الناس إلى الحج ، بوصف البيت والمشاعر ووصف الثواب عليه ، جاز لغيره ذلك على نظم الشعر ، فإن الوزن إذا انضاف إلى السجع صار الكلام أوقع فى القلب ، فإذا أضيف إليه صوت طيب ونغمات موزونة زاد التأثير ، وكل ذلك جائز ما لم يدخل فيه المزامير والأوتار التى هى من شعار الأشرار ، نعم : إن قصد به تشويق من لا يجوز له الخروج إلى الحج كالذى أسقط الفرض عن نفسه ، ولم يأذن له أبواه فى الخروج فهذا يحرم عليه الخروج فيحرم تشويقه إلى الحج بالسماع وبكل كلام يشوق إلى الخروج ،

فإن التشويق إلى الحرام حرام ، وكذلك إن كانت الطريق غير آمنة وكان الهلاك غالبا لم يجز تحريك القلوب ومعالجتها بالتشويق .

الثاني : ما يعتاده الغزاة لتحريض الناس على الغزو ، وذلك أيضا مباح كما للحاج ، ولكن ينبغي أن تخالف أشعارهم وطرق ألحانهم أشعار الحاج وطرق ألحانهم ، لأن استثارة داعية الغزو بالتشجيع وتحريك الغيظ والغضب فيه على الكفار ، وتحسين الشجاعة ، واستحقار النفس والمال بالإضافة إليه بالأشعار المشجعة مثل قول المتنبي :

فإن لا تمت تحت السيوف مكرما تمت وتقاس الذل غير مكسرم

وقوله أيضا :

يرى الجبناء أن الجبن حزم وتلك خديعة الطبع اللئيم

وأمثال ذلك ، وطرق الأوزان المشجعة تخالف الطرق المشوقة ، وهذا أيضا مباح في وقت يباح فيه الغزو ، ومندوب إليه في وقت يستحب الغزو ، ولكن في حق من يجوز له الخروج إلى الغزو .

الثالث : الرجزيات التي يستعملها الشجعان في وقت اللقاء ، والغرض منها التشجيع للنفس وللأنصار ، وتحريك النشاط فيهم للقتال ، وفيه التمدح بالشجاعة والنجدة ، وذلك إذا كان بلفظ رشيق ، وصوت طيب ، كان أوقع في النفس ، وذلك مباح في كل قتال مباح ، ومندوب في كل قتال مندوب ، ومحظور في قتال المسلمين ، وأهل الذمة ، وكل قتال محظور لأن تحريك الدواعي إلى المحظور ، وذلك منقول عن شجعان الصحابة رضي الله عنهم كعلي ، وخالد رضي الله عنهما ، وغيرهما ، ولذلك نقول : ينبغي أن يمنع من

الضرب بالشاهين في معسكر الغزاة ، فإن صوته مرقق محزن يحلل عقدة الشجاعة ، ويضعف صرامة النفس ، ويشوق إلى الأهل والوطن ، ويورث الفتور في القتال ، وكذا سائر الأصوات والألحان المرققة للقلب ، فالألحان المرققة المحزنة تباين الألحان المحركة المشجعة ، فمن فعل ذلك على قصد تغيير القلوب وتفتير الآراء عن القتال الواجب فهو عارض ، ومن فعله على قصد التفتير عن القتال المحظور فهو بذلك مطيع .

الرابع : أصوات النياحة ونغماتها ، وتأثيرها في تهييج الحزن والبكاء ، وملازمة الكآبة والحزن قسمان : محمود ، ومذموم ، فأما المذموم فكالحزن على ما فات ، قال تعالى : (لكيلا تأسوا على ما فاتكم) [٤٣] والحزن على الأموات من هذا القبيل ، فإنه تسخط لقضاء الله تعالى ، وتأسف على ما لاتدارك له ، فهذا الحزن لما كان مذموما كان تحريكه بالنياحة مذموما ، فلذلك ورد النهي الصريح [٤٤] عن النياحة . وأما الحزن المحمود : فهو حزن الإنسان على تقصيره في أمر دينه ، وبكاؤه على خطاياه ، والبكاء والتباكي والحزن والتحازن على ذلك محمود ، وعليه بكاء آدم عليه السلام ، وتحريك هذا الحزن وتقويته محمود ، لأنه يبعث على التشمير للتدارك ، ولذلك كانت نياحة داود عليه السلام محمودة ، إذا كان ذلك مع دوام الحزن وطول البكاء بسبب الخطايا والذنوب ، فقد كان عليه السلام يبكي ويبكى ، ويحزن ويحزن ، حتى كانت الجنائز ترفع من مجالس نياحته ، و كان يفعل ذلك بألفاظه وألحانه ، وذلك محمود ، لأن المفضي إلى المحمود محمود ، وعلى هذا لا يحرم على الواعظ الطيب أن ينشد على المنبر بألحانه الأشعار المحزنة

المرققة للقلب ، ولا أن يبكى ويتباكى ، ليتوصل به إلى تبكية غيره ، وإثارة حزنة .

الخامس : السماع فى أوقات السرور تأكيدا للسرور وتهييجا له ، وهو مباح إن كان ذلك السرور مباحا ، كالغناء فى أيام العيد ، وفى العرس ، وفى وقت قدوم الغائب ، وفى وقت الوليمة والعقيقة ، وعند ولادة المولود ، وعند ختانه ، وعند حفظه القرآن العزيز ، وكل ذلك مباح لأجل إظهار السرور به، ووجه جوازه أن من الألحان ما يثير الفرح والسرور والطرب ، فكل ما جاز السرور به جاز إثارة السرور فيه ، ويدل على هذا ، من النقل ، إنشاد النساء على السطوح بالدف والألحان عند قدوم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

طلع البدر علينا　　　من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا　　　ما دعا لله داع (٤٥)

فهذا إظهار السرور لقدومه ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو سرور محمود، فاظهاره بالشعر والنغمات والرقص والحركات أيضا محمود ، فقد نقل عن جماعة من الصحابة ، رضى الله عنهم ، أنهم حجلوا فى سرور أصابهم (٤٦) ، كما سيأتى فى أحكام الرقص ، وهو جائز فى قدوم كل قادم يجوز الفرح به ، وفى كل سبب مباح من أسباب السرور ، ويدل على هذا ما روى فى الصحيحين عن عائشة ، رضى الله عنها ، أنها قالت : لقد رأيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٤٧) يسترنى بردائه ، وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون فى المسجد حتى أكون أنا الذى أسأمه ، فاقدروا قدر الجارية الحديثة السن الحريصة على اللهو ، إشارة إلى طول مدة وقوفها .

وروى البخارى ومسلم أيضا فى صحيحهما ، حديث عقيل عن الزهرى ، عن عروة ، عن عائشة رضى الله عنها ، أن أبا بكر رضى الله عنه ، دخل عليها، وعندها جاريتان فى أيام منى تدففان وتضربان ، والنبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ متغش بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، رضى الله عنه ، فكشف النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن وجهه ، وقال : « دعهما يا أبا بكر فإنها أيام عيد » ، وقالت عائشة ، رضى الله عنها : رأيت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسترنى بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد ، فزجرهم عمر، رضى الله عنه ، فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أَمْناً يا بنى أرفدة» (٤٨) ـ يعنى من الأمن ـ ومن حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب نحوه ، وفيه : تغنيان وتضربان (٤٩)، وفى حديث أبى طاهر عن ابن وهب : والله لقد رأيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقوم على باب حجرتى ، والحبشة يلعبون فى مسجد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وهو يسترنى بثوبه أو بردائه ، لكى أنظر إلى لعبهم ثم يقوم من أجلى ، حتى أكون أنا الذى أنصرف (٥٠).

وروى عن عائشة ، رضى الله عنها قالت : كنت ألعب بالبنات عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٥١)، قالت : وكان يأتينى صواحب لى ، فكن يتقنعن من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسر لمجيئهن إلىّ ، فيلعبن معى ، وفى رواية ، أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لها يوما : « ما هذا ؟ » قالت : بناتى ! . قال : « فما هذا الذى أرى فى وسطهن ؟ » قالت : فرس ، قال : « ما هذا الذى عليه ؟ » . قالت : جناحان، قال : « فرس له جناحان ! » . قالت : أو ما سمعت

أنه كان لسليمان بن داود عليه السلام خيل لها أجنحة ؟ . قالت : فضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى بدت نواجذه ، والحديث محمول عندنا على عادة الصبيان فى اتخاذ الصورة من الخزف والرقاع من غير تكميل صورته ، بدليل ما روى فى بعض الروايات أن الفرس كان له جناحان من رقاع .

وقالت عائشة ، رضى الله عنها : دخل عليّ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وعندى جاريتان ، تغنيان بغناء بُعاث ، فاضطجع على الفراش ، وحوّل وجهه فدخل أبو بكر ، رضى الله عنه ، فانتهرنى ، وقال : مزمار الشيطان عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأقبل عليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : دعهما ، فلما غفل غمزتهما ، فخرجتا (٥٢) ، وكان يوم عيد يلعب فيه السودان بالدرق والحراب ، فإما سألت رسول الله ـ صلى الله وعليه وسلم ـ وإما قال : تشتهين تنظرين ؟ . فقلت : نعم ، فأقامنى وراءه ، وخدى على خده ، ويقول : دونكم يا بنى أرفدة ، حتى إذا مللت ، قال : « حسبك ؟ » ، قلت : نعم ، قال : « فاذهبى » . وفى صحيح مسلم: فوضعت رأسى على منكبه ، فجعلت أنظر إلى لعبهم حتى أنا الذى انصرفت.

فهذه الأحاديث كلها فى الصحيحين ، وهو نص صريح فى أن الغناء واللعب ليسا بحرام ، وفيها دلالة على أنواع من الرخص :

أولا : اللعب ، ولا يخفى عادة الحبشة فى الرقص . واللعب .

ثانيا: فعل ذلك فى المسجد .

ثالثا: قوله ـ صلى الله عليه وسلم : « دونكم يا بنى أرفدة » ، وهذا أمر باللعب والتماس له ، فكيف يقدر كونه حراما ؟! .

رابعا : منعه لأبى بكر وعمر رضى الله عنهما ، عن الإنكار والتغيير ، وتعليله بأنه يوم عيد ، أى هو وقت سرور ، وهذا من أسباب السرور .

خامسا : وقوفه طويلا فى مشاهدة ذلك وسماعة لموافقة عائشة رضى الله عنها ، وفيه دليل على أن حسن الخلق فى تطييب قلوب النساء والصبيان بمشاهدة اللعب أحسن من خشونة الزهد والتقشف فى الامتناع والمنع منه .

سادسا : قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتداء لعائشة : «أتشتهين أن تنظرى » ؟ ولم يكن ذلك عن اضطرار إلى مساعدة الأهل خوفا عن غضب أو وحشة ، فإن الالتماس إذا سبق ربما كان الرد سبب وحشة فلا حاجة فيه .

سابعا : الرخصة فى الغناء والضرب بالدف من الجاريتين مع أنه شبه ذلك بمزمار الشيطان ، وفيه بيان أن المزمار غير ذلك .

ثامنا : أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يقرع سمعه صوت الجاريتين وهو مضطجع ، ولو كان يضرب بالأوتار فى موضع لما جوز الجلوس ثم لقرع صوت الأوتار سمعه . فيدل هذا على أن صوت النساء غير محرم تحريم صوت المزامير ، بل إنما يحرم عند خوف الفتنة . فهذه المقاييس والنصوص تدل على إباحة الغناء والرقص ، والضرب بالدف ، واللعب بالدرق والحراب ، والنظر إلى رقص الحبشة والزنوج ، فى أوقات السرور كلها ، قياسا على يوم العيد ، فإنه وقت سرور ، وفى معناه يوم العرس ، والوليمة ، والعقيقة ، والختان ، ويوم القدوم من السفر ، وسائر أسباب الفرح ، وهوكل ما يجوز به الفرح شرعا ، ويجوز الفرح بزيارة الإخوان ولقائهم واجتماعهم فى موضع واحد على طعام أو كلام ، فهو أيضا مظنة السماع.

السادس : سماع العشاق تحريكا للشوق ، وتهييجا للعشق ، وتسلية للنفس ، فإن كان فى مشاهدة المعشوق فالغرض تأكيد اللذة ، وإن كان مع المفارقة فالغرض تهييج الشوق ، والشوق ، وإن كان ألما ففيه نوع لذة إذا انضاف إليه رجاء الوصال ، فإن الرجاء لذيذ ، واليأس مؤلم ، وقوة لذة الرجاء بحسب قوة الشوق ،والحب للشيء الموجو ، ففي هذا السماع تهييج العشق وتحريك الشوق ، وتحصيل لذة الرجاء المقدر فى الوصال مع الاطناب فى وصف حسن المحبوب ، وهذا حلال إن كان المشتاق إليه ممن يباح وصاله ، كمن يعشق زوجته أو مربيته فيصغي إلى غنائها لتضاعف لذته فى لقائها ، فيحظي بالمشاهدة البصر ، وبالسماع الأذن ، ويفهم لطائف معاني الوصال والفراق القلب ، فتترادف أسباب اللذة ، فهذه أنواع تمتع من جملة مباحات الدنيا ومتاعها ، وما الحياة الدنيا إلا لهو ولعب ، وهذا منه، وكذلك إن غضب منه جارية ، أو حيل بينه وبينها بسبب من الأسباب ، فله أن يحرك بالسماع شوقه ، وأن يستثير به لذة رجاء الوصال ، فإن باعها أو طلقها حرم عليه ذلك بعده ، إذ لا يجوز تحريك الشوق حيث لا يجوز تحقيقة بالوصال واللقاء ، وأما من يتمثل فى نفسه صورة صبي أو امرأة لا يحل له النظر إليها ، وكان ينزل ما يسمع ما تمثل فى نفسه ، فهذا حرام ، لأنه محرك للفكر فى الأفعال المحظورة ، ومهيج للداعية إلى ما لا يباح الوصول إليه ، وأكثر العشاق والسفهاء من الشباب فى وقت هيجان الشهوة لا ينفكون عن إضمار شيء من ذلك ، وذلك ممنوع فى حقهم ، لما فيه من الداء الدفين ، لا لأمر يرجع إلى نفس السماع ، ولذلك سئل حكيم عن العشق، فقال : دخان يصعد إلى دماغ الإنسان ، ويهيجه السماع .

السابع: سماع من أحب الله وعشقه ، واشتاق إلى لقائه ، فلا ينظر إلى شيء إلا رآه فيه سبحانه ، ولا يقرع سمعه إلا سمعه منه أو فيه . فالسماع في حقه مهيج لشوقه ومؤكد لعشقه وحبه ، ومورى زناد قلبه ، ومستخرج منه أحوالا من المكاشفات والملاطفات لا يحيط الوصف بها ، يعرفها من ذاقها ، وينكرها من كلّ حِسُّه عن ذوقها ، وتسمى تلك الأحوال بلسان الصوفية : وَجْداً ، مأخوذ من الوجود ، والمصادفة ، أي صادف من نفسه أحوالا لم يكن يصادفها قبل السماع ، ثم تكون تلك الأحوال أسبابا لروادف وتوابع لها تحرق القلب بنيرانها وتنقية من الكدرات ، كما تنقى النار الجواهر المعروضة عليها من الخبث ، ثم يتبع الصفاء الحاصل به مشاهدات ومكاشفات ، وهي غاية مطلب المحبين لله تعالى ، ونهاية ثمرة القربات كلها فالمفضي إليها من جملة القربات ، لا من جملة المعاصي والمباحات ، وحصول هذه الأحوال للقلب بالسماع سببه سر الله تعالى في مناسبة النغمات الموزونة للأرواح ، وتسخير الأرواح لها وتأثيرها بها شوقا ، وفرحا وحزنا وانبساطا وانقباضا ، ومعرفة السبب في تأثر الأرواح بالأصوات من دقائق علوم المكاشفات ، والبليد الجامد القاسي القلب ، المحروم عن لذة السماع ، يتعجب من التذاذ المستمع ووجده ، واضطراب حاله ، وتغير لونه ، تعجب البهيمة من لذة اللوز ينج(٢٣) ، وتعجب العنين من لذة المباشرة ، وتعجب الصبي من لذة الرياسة واتساع أسباب الجاه ، وتعجب الجاهل من لذة معرفة الله تعالى ومعرفة جلاله وعظمته ، وعجائب صنعه ، ولكل ذلك سبب واحد ، وهو أن اللذة نوع إدراك ، والإدراك يستدعي مُدْرَكاً ، ويستدعي قوة مُدْرِكَة ، فمن لم تكمل قوة إدراكه لم

يُتصور منه التلذذ ، فكيف يدرك لذة الطعوم من فقد الذوق ، وكيف يدرك لذة الألحان من فقد السمع ، ولذة المعقولات من فقد العقل ، وكذلك ذوق السماع بالقلب بعد وصول الصوت إلى السمع يُدْرَك بحاسة باطنة فى القلب فمن فقدها عدم لا محالة لذته .

ولعلك تقول : كيف يتصور العشق فى حق الله تعالى ، حتى يكون السماع محركا له ؟ .

فاعلم أن من عرف الله أحبه لا محالة ، ومن تأكدت معرفته تأكدت محبته بقدر تأكد معرفته ، والمحبة إذا تأكدت سميت عشقا ، فلا معنى للعشق إلا محبة مؤكدة مفرطة ، ولذلك قالت العرب : إن محمدا قد عشق ربه ، لما رأوه يتخلى للعبادة فى جبل حراء .

واعلم أن كل جمال محبوب عند مدرك ذلك الجمال ، والله تعالى جميل يحب الجمال ، ولكن الجمال إن كان بتناسب الخلقة ، وصفاء اللون ، أُدرك بحاسة البصر ، وإن كان الجمال بالجلال والعظمة ، وعلو الرتبة ، وحسن الصفات والأخلاق ، وإرادة الخيرات لكافة الخلق ، وإفاضتها عليهم على الدوام ، إلى غير ذلك من الصفات الباطنة ، أُدرك بحاسة القلب ، ولفظ الجمال قد يستعار أيضا لها ، فيقال إن فلانا حسن وجميل ، ولا تُراد صورته ، وإنما يعنى به أنه جميل الأخلاق محمود الصفات ، حسن السيرة، حتى قد يحب الرجل بهذه الصفات الباطنة استحسانا لها ، كما تحب الصورة الظاهرة ، وقد تتأكد هذه المحبة فتسمى عشقا ، وكم من الغلاة فى حب أرباب المذاهب كالشافعى ، ومالك ، وأبى حنيفة ، رضى الله عنهم ، حتى يبذلوا أموالهم وأرواحهم فى نصرتهم وموالاتهم ، ويزيدوا على كل

عاشق في الغلو والمبالغة ، ومن العجب أن يعقل عشق شخص لم تشاهد قط صورته ، أجميل هو أم قبيح ، وهو الآن ميت ، ولكن لجمال صورته الباطنة، وسيرته المرضية ، والخيرات الحاصلة من عمله لأهل الدين وغير ذلك من الخصال ، ثم لا يعقل عشق من تُرى الخيرات منه ، بل على التحقيق من لا خير ولا جمال ولا محبوب في العالم إلا وهو حسنة من حسناته ، وأثر من آثار كرمه ، وغَرْفَة من بحر جوده ، بل كل حسن وجمال في العالم أُدرك بالعقول والأبصار والأسماع وسائر الحواس من مبتدأ العالم إلى منقرضه ، ومن ذروة الثريا إلى منتهى الثرى ، فهو ذرة من خزائن قدرته ولمعة من أنوار حضرته .

فليت شعري كيف لا يعقل حب من هذا وصفه ، وكيف لا يتأكد عند العارفين بأوصافه حبه ، حتى يجاوز حدا يكون إطلاق اسم العشق عليه ظلما في حقه لقصوره عن الإنباء عن فرط محبته ، فسبحان من احتجب عن الظهور بشدة ظهوره ، واستتر عن الأبصار بإشراق نوره ، ولولا احتجابه بسبعين حجابا من نوره لأحرقت سبحات وجهه أبصار الملاحظين لجمال حضرته ، ولولا أن ظهوره سبب خفائه لبهتت العقول ، ودهشت القلوب ، وتخاذلت القوى ، وتنافرت الأعضاء ، ولو ركبت القلوب من الحجارة والحديد ، لأصبحت تحت مبادى أنوار تجليه دكادكا (٥٤)فأنَّـى تطيق كنه نور الشمس أبصار الخفافيش ، وسيأتي تحقيق هذه الإشارة في كتاب المحبة . ويتضح أن محبة غير الله تعالى قصور وجهل ، بل المتحقق بالمعرفة لا يعرف غير الله تعالى ، إذ ليس في الوجود تحقيقا إلا الله وأفعاله ، ومن عرف الأفعال ، من حيث إنها أفعال ، لم يجاوز معرفة الفاعل إلى غيره .

فمن عرف الشافعي مثلا رحمه الله وعلمه وتصنيفه من حيث إنه تصنيفه ، لا من حيث إنه بياض وجلد وحبر وورق وكلام منظوم ولغة عربية ، فلقد عرفه ولم يجاوز معرفة الشافعي إلى غيره ، ولا جاوزت محبته إلى غيره ، فكل موجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى ، وفعله ، وبديع أفعاله ، فمن عرفها من حيث هي صنع الله تعالى فرأى من الصنع صفات الصانع كما ترى من حسن التصنيف فضل المصنف ، وجلالة قدره، كانت معرفته ومحبته مقصورة على الله تعالى ، غير مجاوزة إلى سواه ، ومن حد هذا العشق أنه لا يقبل الشركة ، وكل ما سوى هذا العشق فهو قابل للشركة ، إذ كل محبوب سواه يتصور له نظير ، إما في الوجود ، وإما في الإمكان ، فأما هذا الجمال فلا يتصور له ثان ، لا في الإمكان ولا في الوجود ، فكان اسم العشق على حب غيره مجازا محضا لا حقيقة .

نعم ، الناقص القريب في نقصانه من البهيمة ، قد لا يدرك من لفظة العشق إلا طلب الوصال ، الذي هو عبارة عن تماس ظواهر الأجسام ، وقضاء شهوة الوقاع ، فمثل هذا الحمار ينبغي أن لا يُستعمل معه لفظه العشق ، والشوق ، والوصال ، والأنس ، بل يجنب هذه الألفاظ والمعاني كما تجنب البهيمة النرجس والريحان ، وتخصص بالقت والحشيش وأوراق القضبان ، فإن الألفاظ إنما يجوز إطلاقها في حق الله تعالى ، إذا لم تكن موهمة معنى يجب تقديس الله تعالى عنه ، والأوهام تختلف باختلاف الأفهام ، فليتنبه لهذه الدقيقة في أمثال هذه الألفاظ ، بل لا يبعد أن ينشأ من مجرد السماع لصفات الله تعالى وَجْد غالب ينقطع بسببه نياط القلب ، فقد روى أبو هريرة ، رضي الله عنه ، عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه

ذكر غلاما كان فى بنى إسرائيل على جبل ، فقال لأمه : من خلق السماء ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الأرض ؟ . قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الجبال ؟ قالت : الله عز وجل ، قال : فمن خلق الغيم ؟ . قالت : الله عز وجل ، قال : إنى لأسمع لله شأنا ، ثم رمى بنفسه من الجبل فتقطع (٥٥) ، وهذا كأنه سمع ما دل على جلال الله تعالى ، وتمام قدرته فطرب لذلك ووجد ، فرمى بنفسه من الوَجْـد . وما أُنزلت الكتب إلا ليطربوا بذكر الله تعالى . قال بعضهم رأيت مكتوبا فى الإنجيل : غنينا لكم فلم تطربوا ، وزمرنا لكم فلم ترقصوا ! أى شوقنا كم بذكر الله تعالى فلم تشتاقوا . فهذا ما أردنا أن نذكره من أقسام السماع ، وبواعثه ، ومقتضياته ، وقد ظهر على القطع إباحته فى بعض المواضع ، والندب إليه فى بعض المواضع .

فإن قلت : فهل له حالة يحرم فيها ؟

فأقول : إنه يحرم بخمسة عوارض : عارض فى المسمع ، وعارض فى آلة الاستماع ، وعارض فى نظم الصوت ، وعارض فى نفس المستمع أو فى مواظبته ، وعارض فى كون الشخص من عوام الخلق ، لأن أركان السماع هى المُسْـمِع ، والمستمع ، وآلة الإسماع .

العارض الأول : أن يكون المُسْـمِع ، امرأة لا يحل النظر إليها ، وتُخْشى الفتنة ، وهذا حرام لما فيه من خوف الفتنة ، وليس ذلك لأجل الغناء ، بل لو كانت المرأة بحيث يُفتن بصوتها فى المحاورة من غير ألحان ، فلا يجوز محاورتها ومحادثتها ولا سماع صوتها فى القرآن أيضا ، وكذلك الصبى الذى تخُاف فتنته .

فإن قلت : فهل تقول إن ذلك حرام بكل حال حسماً للباب ، أو لا يحرم

إلا حيث تخَاف الفتنة فى حق من يخَاف العنت ؟.

فأقول : هذه مسألة محتملة من حيث الفقه يتجاذبها أصلان :

أحدهما : أن الخلوة بالأجنبية والنظر إلى وجهها حرام ، سواء خيفت الفتنة أو لم تخُف ، لأنها مظنة الفتنة على الجملة ، فقضى الشرع بحسم الباب من غير التفات إلى الصور .

والثاني : أن النظر إلى الصبيان مباح إلا عند خوف الفتنة ، فلا يلحق الصبيان بالنساء فى عموم الجسم ، بل يتبع فيه الحال ، وصوت المرأة دائر بين هذين الأصلين ، فإن قسناه على النظر إليها وجب حسم الباب ، وهو قياس قريب ، ولكن بينهما فرق ، إذ الشهوة تدعو إلى النظر فى أول هيجانها ، ولا تدعو إلى سماع الصوت ، وليس تحريك النظر لشهوة المماسة ، كتحريك السماع بل هو أشد ، وصوت المرأة فى غير الغناء ليس بعورة ، فلم تزل النساء فى زمن الصحابة ، رضى الله عنهم ، يكلمن الرجال فى السلام ، والاستفتاء ، والسؤال ، والمشاورة ، وغير ذلك ، ولكن للغناء مزيد أثر فى تحريك الشهوة ، فقياس هذا على النظر إلى الصبيان أولى ، لأنهم لم يؤمروا بالاحتجاب ، كما لم تؤمر النساء بستر الأصوات ، فينبغى أن يتبع مثار الفتن ويقصر التحريم عليه ، هذا هو الأقيس عندى ، ويتأيد بحديث الجاريتين المغنيتين فى بيت عائشة رضى الله عنها ، إذ يعلم أنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يسمع أصواتهما ، ولم يحترز منه ، ولكن لم تكن الفتنة مخوفة عليه ، فلذلك لم يحترز ، فإذاً يختلف هذا بأحوال المرأة ، وأحوال الرجل فى كونه شابا وشيخا ، ولا يبعد أن يختلف الأمر فى مثل هذا بالأحوال، فإنا نقول للشيخ أن يقبل زوجته وهو صائم ، وليس للشباب

ذلك لان القُبلة تدعو إلى الوقـاع فى الصوم ، وهو محظور ، والسماع يدعو إلى النظر والمقاربة وهو حرام فيختلف ذلك أيضا بالأشخاص .

العارض الثانى : فى الآلة ، بأن تكون من شعَـار أهل الشُّرب ، أو المخنثين ، وهى المزامير والأوتار وطبل الكوبة ، فهذه ثلاثة أنواع ممنوعة ، وما عدا ذلك يبقى على أصل الإباحة كالدف ، وإن كان فيه الجلاجل ، وكالطبل والشاهين والضرب بالقضيب وسائر الآلات .

العارض الثالث : فى نظم الصوت ، وهو الشعر ، فإن كان فيه شىء من الخنا والفحش والهجو ، أو ما هو كذب على الله تعالى ، وعلى رسوله ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو على الصحابة ، رضى الله عنهم ، كما رتبه الروافض فى هجاء الصحابة وغيرهم ، فسماع ذلك حرام ، بألحان وغير ألحان ، والمستمع شريك للقائل ، وكذلك ما فيه وصف امرأة بعينها ، فإنه لا يجوز وصف المرأة بين يدى الرجال ، وأما هجاء الكفار وأهل البدع فذلك جائز ، فقد كان حسان بن ثابت رضى الله عنه ينافح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ويهاجى الكفار وأمره ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٥٦) بذلك ، فأما النسيب : وهو التشبيب بوصف الخدود والأصداغ وحسن القد والقامة وسائر أوصاف النساء فهذا فيه نظر ، والصحيح أنه لا يحرم نظمه وإنشاده بلحن وغير لحن ، وعلى المستمع أن لا ينزله على امرأة معينة ، فإن نزله فلينزله على من يحل له ، من زوجته وجاريته ، فإن نزله على أجنبية فهو العاصى بالتنزيل ، وإجالة الفكر فيه ، ومن هذا وصفه فينبغى أن يجتنب السماع رأسا ، فإن من غلب عليه عشق نزل كل ما يسمعه عليه سواء كان اللفظ مناسبا له أو لم يكن إذ ما من لفظ إلا ويمكن تنزيله على

معان بطريق الاستعارة ، فالذى يغلب على قلبه حب الله تعالى يتذكر بسواد(٥٧) الصدغ مثلا ظلمة الكفر ، وبنضارة الخد نور الإيمان ، وبذكر الوصال لقاء الله تعالى ، وبذكر الفراق الحجاب عن الله تعالى ف زمرة المردودين ، وبذكر الرقيب المشوش لروح الوصال عوائق الدنيا وآفاتها المشوشة لدوام الأنس بالله تعالى ، ولا يحتاج ف تنزيل ذلك عليه إلى استنباط وتفكر ومهلة بل تسبق المعاني الغالبة على القلب إلى فهمه مع اللفظ ، كما روى عن بعض الشيوخ أنه مر ف السوق فسمع واحدا يقول : الخيار عشرة بحبة ، فغلبه الوَجْد ، فسئل عن ذلك ، فقال : إذا كان الخيار عشرة بحبة ، فما قيمة الأشرار ! واجتاز بعضهم ف السوق فسمع قائلا يقول : يا سعتر برى ، فغلبه الوَجْد ، فقيل له على ماذا كان وَجْدُك ؟ فقال : سمعته كأنه يقول : ياسعتر برى ، حتى أن العجمي قد يغلب عليه الوَجْد على الأبيات المنظومة بلغة العرب ، فإن بعض حروفها يوازن الحروف العجمية فيفهم منها معان آخر . أنشد بعضهم :

وما زارنى فى * * الليل إلا خياله

فتواجد عليه رجل أعجمي ، فسئل عن سبب وَجْده ، فقال إنه يقول مازاريم ، وهو كما يقول : فإن لفظ زار يدل ف العجمية على المشرف على الهلاك ، فتوهم أنه يقول كلنا مشرفون على الهلاك ، فاستشعر عند ذلك خطر هلاك الآخرة ، والمحترق ف حب الله تعالى وَجْدُه بحسب فهمه ، وفهمه بحسب تخيله ، وليس من شرط تخيله أن يوافق مراد الشاعر ولغته ، فهذا الوَجْد حق وصدق ، ومن استشعر خطر هلاك الآخرة فجدير بأن يتشوق عليه عقله وتضطرب عليه أعضاؤه ، فإذا ليس ف تغيير أعيان الألفاظ كبير

فائدة ، بل الذى غلب عليه عشق مخلوق ينبغى أن يحترز من السماع بأى لفظ كان ، والذى غلب عليه حب الله تعالى فلا تضره الألفاظ ولا تمنعه من فهم المعانى اللطيفة المتعلقة بمجارى همته الشريفة .

العارض الرابع : فى المستمع ، وهو أن تكون الشهوة غالبة عليه ، وكان فى غرَّة الشباب ، وكانت هذه الصفة أغلب عليه من غيرها ، فالسماع حرام عليه سواء غلب على قلبه حب شخص معين أو لم يغلب ، فإنه كيفما كان فلا يسمع وصف الصدغ ، والخد ، والفراق ، والوصال ، إلا ويحرك ذلك شهوته ، وينزله على صورة معينة ، ينفخ الشيطان بها فى قلبه ، فتشتعل فيه نار الشهوة ، وتحتد بواعث الشر ، وذلك هو النصرة لحزب الشيطان ، والتخذيل للعقل المانع منه الذى هو حزب الله تعالى ، والقتال فى القلب دائم بين جنود الشيطان ، وهى الشهوات ، وبين حزب الله تعالى وهو نور العقل إلا فى قلب قد فتحه أحد الجندين ، واستولى عليه بالكلية ، وغالب القلوب الآن قد فتحها جند الشيطان ، وغلب عليها ، فتحتاج حينئذ إلى أن تستأنف أسباب القتال لإزعاجها ، فكيف يجوز تكثير اسلحتها وتشحيذ سيوفها وأسنتها ، والسماع مشحذ لأسلحة جند الشيطان فى حق مثل هذا الشخص، فليخرج مثل هذا عن مجمع السماع فإنه يستضر به .

العارض الخامس : أن يكون الشخص من عوام الخلق ، ولم يغلب عليه حب الله تعالى ، فيكون السماع له محبوبا ، ولا غلبت عليه شهوة ، فيكون فى حقه محظورا ، ولكنه أبيح فى حقه كسائر أنواع اللذات المباحة ، إلا أنه إذا اتخذه ديدنه وهجيراه وقصر عليه أكثر أوقاته فهذا هو السفيه الذى ترد شهادته ، فإن المواظبة على اللهو جناية ، وكما أن الصغيرة بالإصرار

والمداومة تصير كبيرة ، فكذلك بعض المباحات بالمداومة يصير صغيرة ، وهو كالمواظبة على متابعة الزنوج والحبشة والنظر إلى لعبهم على الدوام ، فإنه ممنوع ، وإن لم يكن أصله ممنوعا ، إذ فعله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومن هذا القبيل اللعب بالشطرنج ، فإنه مباح ولكن المواظبة عليه مكروهة كراهة شديدة ، ومهما كان الغرض اللعب والتلذذ باللهو فذلك إنما يباح لما فيه من ترويح القلب ، إذ راحة القلب معالجة فى بعض الأوقات ، لتنبعث دواعيه فتشتغل فى سائر الأوقات بالجد فى الدنيا ، كالكسب والتجارة ، أو فى الدين ، كالصلاة والقراءة ، واستحسان ذلك فيما بين تضاعيف الجد كاستحسان الخال على الخد ، ولو استوعبت الخيلان الوجه لشوهته ، فما أقبح ذلك ، فيعود الحسن قبحا بسبب الكثرة ، فما كل حسن يحسن كثيره ، ولا كل مباح يباح كثيره ، بل الخبز مباح والاستكثار منه حرام ، فهذا المباح كسائر المباحات .

فإن قلت فقد أدى مساق هذا الكلام إلى أنه مباح فى بعض الأحوال دون بعض ، فلم أطلقت القول أولا بالإباحة؟ إذ إطلاق القول فى المفصل بلا أو بنعم خُلْف (٥٨) وخطأ .

فاعلم أن هذا غلط ، لأن الاطلاق إنما يمتنع لتفصيل ينشأ من عين ما فيه النظر ، فأما ما ينشأ من الأحوال العارضة المتصلة به من خارج فلا يمنع الإطلاق ، ألا ترى أنا إذا سئلنا عن العسل أهو حلال أم لا (. قلنا : إنه حلال على الإطلاق ، مع أنه حرام على المحرور (٥٩) الذى يستضر به ، وإذا سئلنا عن الخمر قلنا : إنها حرام ، مع أنها تحل لمن غص بلقمة أن يشربها مهما (٦٠) لم يجد غيرها ، ولكن هى من حيث إنها خمر ، حرام ، وإنما أبيحت لعارض

الحاجة ، والعسل من حيث إنه عسل حلال ، وإنما حرم لعارض الضرر ، وما يكون لعارض فلا يلتفت إليه ، فإن البيع حلال ، ويحرم بعارض الوقوع فى وقت النداء يوم الجمعة ، ونحوه من العوارض ، والسماع من جملة المباحات من حيث إنه سماع صوت طيب موزون مفهوم ، وإنما تحريمه لعارض خارج عن حقيقة ذاته ، فإذا انكشف الغطاء عن دليل الإباحة فلا نبالى بمن يخالف بعد ظهور الدليل .

وأما الشافعى رضى الله عنه فليس تحريم الغناء من مذهبه أصلا ، وقد نص الشافعى وقال فى الرجل يتخذه صناعة : لا تجوز شهادته ، وذلك لأنه من اللهو المكروه الذى يشبه الباطل ، ومن أخذه صنعة كان منسوبا إلى السفاهة وسقوط المروءة ، وإن لم يكن محرما بَـيِّنَ التحريم ، فإن كان لا ينسب نفسه إلى الغناء ولا يؤتى لذلك ، ولا يأتى لأجله ، وإنما يعرف بأنه قد يطرب فى الحال فيترنم بها لم يسقط هذا مروءته ، ولم يبطل شهادته ، واستدل بحديث الجاريتين اللتين كانتا تغنيان فى بيت عائشة ، رضى الله عنها .

وقال يونس بن عبد الأعلى (٦٦) : سألت الشافعى ـ رحمه الله ـ عن إباحة أهل المدينة للسماع ، فقال الشافعى : لا أعلم أحدا من علماء الحجاز كره السماع إلا ما كان منه فى الأوصاف ، فأما الحُداء ، وذكر الأطلال والمرابع ، وتحسين الصوت بألحان الأشعار فمباح ، وحيث قال إنه لهو مكروه يشبه الباطل ، فقوله لهو ، صحيح ، ولكن اللهو من حيث إنه ليس بحرام ، فلعب الحبشة ورقصهم لهو ، وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينظر إليه ولا يكرهه ، بل اللهو واللغو لا يؤاخذ الله تعالى به إن عنى به أنه فعل ما لا فائدة

فيه ، فإن الإنسان لو وظف على نفسه أن يضع يده على رأسه في اليوم مائة مرة ، فهذا عبث لا فائدة له ولا يحرم . قال الله تعالى : (لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) (٦٢). فإذا كان ذكر اسم الله تعالى على الشيء ، عن طريق القسم ، من غير عقد عليه ولا تصميم ، والمخالفة فيه ، مع أنه لا فائدة فيه ، لا يؤاخذ به ، فكيف يؤاخذ بالشعر والرقص ؟.. وأما قوله يشبه الباطل ، فهذا لا يدل على اعتقاد تحريمه ، بل لو قال هو باطل صريحا لما دل على التحريم ، وإنما يدل على خلوه عن الفائدة ، فالباطل ما لا فائدة فيه ، فقول الرجل لا مرأته مثلا : بعت نفسي منك ، وقولها : اشتريت ، عقد باطل ، مهما كان القصد اللعب والمطايبة ، وليس بحرام إلا إذا قصد به التمليك المحقق الذي منع الشرع منه ، وأما قوله : مكروه فينزل على بعض المواضع التي ذكرتها لك ، أو ينزل على التنزيه ، فإنه نص على إباحة لعب الشطرنج ، وذكر إني أكره كل لعب ، وتعليله يدل عليه ، فإنه قال ليس ذلك من عادة ذوي الدين والمروءة ، فهذا يدل على التنزيه ، ورده الشهادة بالمواظبة عليه لا يدل على تحريمه أيضا ، بل قد ترد الشهادة بالأكل في السوق ، وما يخرم المروءة ، بل الحياكة مباحة ، وليست من صنائع ذوي المروءة ، وقد ترد شهادة المحترف بالحرفة الخسيسة ، فتعليله يدل على أنه أراد بالكراهة التنزيه ، وهذا هو الظن أيضا بغيره من كبار الأئمة ، وإن أرادوا التحريم فما ذكرناه حجة عليهم .

* * *

بيان حجج القائلين
بتحريم السماع، والجواب عنها

احتجوا بقوله : (ومن الناس من يشترى لهو الحديث) (٦٣) قال ابن مسعود والحسن البصرى ، والنخعى ، رضى الله عنهم : إن لهو الحديث هو الغناء ، وروت عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إن الله تعالى حرّم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها » (٦٤) ، فنقول : أما القينة : فالمراد بها الجارية التى تغنى للرجال فى مجلس الشرب ، وقد ذكرنا أن غناء الأجنبية للفساق ومن يخاف عليهم الفتنة حرام ، وهم لا يقصدون بالفتنة إلا ما هو محظور ، فأما غناء الجارية لمالكها فلا يفهم تحريمه من هذا الحديث ، بل لغير مالكها سماعها عند عدم الفتنة ، بدليل ما روى فى الصحيحين من غناء الجاريتين فى بيت عائشة ـ رضى الله عنها ـ.

وأما شراء لهو الحديث بالدين استبدالاً به ليضل به عن سبيل الله فهو حرام مذموم وليس النزاع فيه ، وليس كل غناء بدلاً عن الدين مشترى به ، ومضلاً عن سبيل الله تعالى ، وهو المراد فى الآية ، ولو قرأ القرآن ليضل به عن سبيل الله لكان حراماً .

حكى عن بعض المنافقين أنه كان يؤم الناس ولا يقرأ إلا سورة عبس لما فيها من العتاب مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهمّ عمر بقتله ، ورأى فعله حرامًا ، لما فيه من الإضلال ، فالإضلال بالشعر والغناء أولى بالتحريم .

واحتجوا بقوله تعالى (أفمن هذا الحديث تعجبون وتضحكون ولا

تبكون وأنتم سامدون) (٦٥) . قال ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : هو الغناء بلغة حمير ، يعنى السمد ، فنقول ينبغى أن يحرم الضحك وعدم البكاء أيضًا ، لأن الآية تشتمل عليه .

فإن قيل : إن ذلك مخصوص بالضحك على المسلمين لإسلامهم ، فهذا أيضًا مخصوص بأشعارهم وغنائهم فى معرض الاستهزاء بالمسلمين ، كما قال تعالى : (والشعراء يتبعهم الغاوون)(٦٦) وأراد به شعراء الكفار ، ولم يدل ذلك على تحريم نظم الشعر فى نفسه .

واحتجوا بما روى جابر ـ رضى الله عنه ـ أنه ، ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى »(٦٧) فقد جمع بين النياحة والغناء ، قلنا لا جرم كما استثنى منه نياحة داود عليه السلام ، ونياحة المذنبين على خطاياهم ، فكذلك يستثنى الغناء الذى يراد به تحريك السرور والحزن والشوق ، حيث يباح تحريكه بل استثنى غناء الجاريتين يوم العيد فى بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وغناؤهن عند قدومه عليه السلام بقولهن :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع

واحتجوا بما روى أبو أمامة عنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « ما رفع أحد صوته بغناء إلا بعث الله له شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك » (٦٨).

قلنا : هو منزل على بعض أنواع الغناء الذى قدمناه ، وهو الذى يحرك من القلب ما هو مراد الشيطان من الشهوة ، وعشق المخلوقين، فأما ما يحرك الشوق إلى الله ، والسرور بالعيد ، أو حدوث الولد ، أو قدوم الغائب ،

فهذا كله يضاد مراد الشيطان ، بدليل قصة الجاريتين والحبشة ، والأخبار التي نقلناها من الصحاح ، فالتجويز في موضع واحد نص في الإباحة ، والمنع في ألف موضع محتمل للتأويل ومحتمل للتنزيل ، أما الفعل فلا تأويل له ، إذ ما حرم فعله ، إنما يحل بعارض الاكراه فقط ، وما أبيح فعله يحرم بعوارض كثيرة حتى النيات والقصود .

واحتجوا بما روى عتبة بن عامر أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته لامرأته » (٦٩).

قلنا : فقوله باطل لا يدل على التحريم ، بل يدل على عدم الفائدة ، وقد يسلم على أن التلهي بالنظر إلى الحبشة خارج عن هذه الثلاثة وليس بحرام ، بل يلحق بالمحصور غير المحصور قياساً كقوله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ : «لا يحل دم امرىء مسلم إلا باحدى ثلاث » (٧٠)، فإنه يلحق به رابع وخامس ، فكذلك ملاعبة امرأته لا فائدة له إلا التلذذ ، وفي هذا دليل على أن التفرج في البساتين ، وسماع أصوات الطيور ، وأنواع المداعبات ، مما يلهو به الرجل لا يحرم عليه شيء منها ، وإن جاز وصفه بأنه باطل .

واحتجوا بقول عثمان ـ رضي الله عنه ـ : ما تغنيت ، ولا تمنيت ، ولا مسست ذكري بيميني مذ بايعت بها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قلنا : فليكن التمني ، ومس الذكر باليمنى حرامًا ، إن كان هذا دليل تحريم الغناء ، فمن أين يثبت أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ كان لا يترك إلا الحرام.

واحتجوا بقول ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ : « الغناء ينبت في القلب

النفاق » (٧١) ، وزاد بعضهم « كما ينبت الماء البقل » ، ورفعه بعضهم إلى رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وهو غير صحيح .

قالوا : ومر على بن عمر ــ رضى الله عنهما ــ قوم محرمون وفيهم رجل يتغنى ، فقال : ألا لا أسمع الله لكم ، ألا لا أسمع الله لكم .

وعن نافع أنه قال : كنت مع ابن عمر ــ رضى الله عنهما ــ فى طريق ، فسمع زمارة راع ، فوضع أصبعيه فى أذنيه ، ثم عدل عن الطريق ، فلم يزل يقول : يا نافع أتسمع ذلك ؟ حتى قلت : لا ، فأخرج أصبعيه ، وقال : هكذا رأيت رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ صنع (٧٢) ، وقال الفضيل بن عياض رحمه الله : الغناء رقية الزنا ، وقال بعضهم : الغناء رائد من رواد الفجور ، وقال يزيد بن الوليد : إياكم والغناء ، فإنه ينقص الحياء ، ويزيد الشهوة ، ويهدم المروءة ، وإنه لينوب عن الخمر ، ويفعل ما يفعله السكر ، فإن كنتم لابد فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء داعية الزنا ، فنقول : قول ابن مسعود ــ رضى الله عنه ــ : ينبت النفاق أراد به فى حق المغنى ، فإنه فى حقه ينبت النفاق ، إذ غرضه كله أن يعرض نفسه على غيره، ويروج صوته عليه ، ولا يزال ينافق ويتودد إلى الناس ليرغبوا فى غنائه ، وذلك أيضاً لا يوجب تحريماً ، فإن لبس الثياب الجميلة وركوب الخيل المهلجة (٧٣)، وسائر أنواع الزينة والتفاخر بالحرث والأنعام والزرع ، وغير ذلك ينبت فى القلب النفاق والرياء ، ولا يطلق القول بتحريم ذلك كله ، فليس السبب فى ظهور النفاق فى القلب المعاصى فقط ، بل المباحات التى هى مواقع نظر الخلق أكثر تأثيراً ، ولذلك نزل عمر ــ رضى الله عنه ــ عن فرس هملج تحته ، وقطع ذنبه ، لأنه استشعر فى نفسه الخيلاء لحسن مشيته ، فهذا النفاق من

المباحات ، وأما قول ابن عمر ـ رضى الله عنهما ـ ألا لا أسمع الله لكم ، فلا يدل على التحريم من حيث إنه غناء ، بل كانوا محُرمين ، ولا يليق بهم الرفث، وظهر له من مخايلهم أن سماعهم لم يكن لوَجْد وشوق إلى زيارة بيت الله تعالى ، بل لمجرد اللهو ، فأنكر ذلك عليهم لكونه منكرًا ، بالإضافة إلى حالهم وحال الإحرام ، وحكايات الأحوال تكثر فيها وجوه الاحتمال ، وأما وضعه أصبعيه فى أذنيه فيعارضه أنه لم يأمر نافعًا بذلك ولا أنكر عليه سماعه ، وإنما فعل ذلك هو لأنه رأى أن ينزه سمعه فى الحال وقلبه عن صوت ربما يحرك اللهو ، ويمنعه عن فكر كان فيه أو ذكر هو أولى منه ، وكذلك فعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع أنه لم يمنع ابن عمر ، لا يدل أيضًا على التحريم ، بل يدل على أنه الأولى تركه .

ونحن نرى أن الأولى تركه فى أكثر الأحوال ، بل أكثر مباحات الدنيا الأولى تركها إذا علم أن ذلك يؤثر فى القلب ، فقد خلع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبى جهم ،إذ كانت عليه أعلام شغلت قلبه (٧٤) ، أفترى أن ذلك يدل على تحريم الأعلام على الثوب ؟ . فلعله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان فى حالة كان صوت زمارة الراعى يشغله على تلك الحالة، كما شغله العَلَم عن الصلاة ، بل الحاجة إلى استثارة الأحوال الشريفة من القلب بحيلة السماع قصور بالإضافة إلى من هو دائم الشهود للحق ، وإن كان كمالاً بالإضافة إلى غيره ، ولذلك قال الحصرى : وماذا أعمل بسماع ينقطع إذا مات من يسمع منه ؟ ! . إشارة إلى أن السماع من الله تعالى هو الدائم ، فالأنبياء عليهم السلام على الدوام فى لذة السمع والشهود ، فلا يحتاجون إلى التحريك بالحيلة ، وأما قول الفضيل : هو رقية الزنا ، وكذلك

ما عداه من الأقاويل القريبة منه ، فهو منزل على سماع الفساق والمغتلمين من الشبان ، ولو كان ذلك عامًا لما سمع من الجاريتين فى بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

وأما القياس : فغاية ما يذكر فيه أن يقاس على الأوتار ، وقد سبق الفرق، أو يقال هو لهو ولعب ، وهو كذلك ، ولكن الدنيا كلها لهو ولعب ، قال عمر ـ رضى الله عنه ـ لزوجته : إنما أنت لعبة فى زاوية البيت ، وجميع الملاعبة مع النساء لهو إلا الحراثة التى هى سبب وجود الولد ، وكذلك المزح الذى لا فحش فيه حلال ، نقل ذلك عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ (٧٥)، وعن الصحابة ، كما سيأتى تفصيله فى كتاب آفات اللسان إن شاء الله ، وأى لهو يزيد على لهو الحبشة والزنوج فى لعبهم ، وقد ثبت بالنص إباحته ، على أنى أقول : اللهو مروح للقلب ، ومخفف عنه أعباء الفكر ، والقلوب إذا أكرهت عميت ، وترويحها إعانة لها على الجد ، فالمواظب على الفقه مثلاً ، ينبغى أن يتعطل يوم الجمعة ، لأن عطلة يوم تبعث على النشاط فى سائر الأيام ، والمواظب على نوافل الصلوات فى سائر الأوقات ، ينبغى أن يتعطل فى بعض الأوقات ، ولأجله كرهت الصلاة فى بعض الأوقات ، فالعطلة معونة على العمل ، واللهو معين على الجد ، ولا يصبر على الجد المحض ، والحق المر ، إلا نفوس الأنبياء عليهم السلام .

فاللهو دواء القلب من داء الإعياء والملال ، فينبغى أن يكون مباحًا ، ولكن لا ينبغى أن يستكثر منه كما لا يستكثر من الدواء . فإذا اللهو على هذه النية يصير قربة ، هذا فى حق من لا يحرك السماع من قلبه صفة محمودة يطلب تحريكها ، بل ليس له إلا اللذة والاستراحة المحضة . فينبغى أن

يستحب له ذلك ليتوصل به إلى المقصود الذي ذكرناه ، نعم : هذا يدل على نقصان عن ذروة الكمال ، فإن الكامل هو الذي لا يحتاج أن يروح نفسه بغير الحق ، ولكن حسنات الأبرار سيئات المقربين ، ومن أحاط بعلم علاج القلوب ، ووجوه التلطف بها لسياقتها إلى الحق ، علم قطعًا أن ترويحها بأمثال هذه الأمور دواء نافع لا غنى عنه .(٧٦) :

* * *

. . . فقد خرج من جملة التفصيل السابق :

أن السماع قد يكون حرامًا محضًا ، وقد يكون مباحًا ، وقد يكون مكروهًا ، وقد يكون مستحبًا .

أما الحرام:

فهو لأكثر الناس من الشبان ، ومن غلبت عليهم شهوة الدنيا ، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب على قلوبهم من الصفات المذمومة .

وأما المكروه :

فهو لمن لا ينزله على صورة المخلوقين ، ولكنه يتخذه عادة له في أكثر الأوقات على سبيل اللهو .

وأما المباح :

فهو لمن لا حظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن .

وأما المستحب :

فهو لمن غلب عليه حب الله تعالى ، ولم يحرك السماع منه إلا الصفات المحمودة .

« والحمد لله ، وصلى الله على محمد وآله » . إ .هـ .

الهوامش

(١) طاهر بن عبد الله بن طاهر (٣٤٨ ـ ٤٥٠ هـ ـ ٩٦٠ ـ ١٠٥٠ م) من علماء الشافعية . تولى القضاء ببغداد . ومن آثاره الفكرية (شرح مختصر المزنى) ـ فى الفقه ـ وهو فى احد عشر جزءاً .

(٢) محمد بن إدريس (١٥٠ ـ ٢٠٤ هـ ـ ٧٦١ ـ ٨٢٠ م) صاحب المذهب ، وأحد الائمة الأربعة .

(٣) مالك بن أنس (٩٣ ـ ١٧٩ هـ ـ ٧١٢ ـ ٧٩٥ م) صاحب المذهب ، وأحد الأئمة الأربعة ، وإمام المدينة .

(٤) النعمان بن ثابت (٨٠ ـ ١٥٠ هـ ـ ٦٩٩ ـ ٧٦٧ م) صاحب المذهب ، وأحد الائمة الاربعة ، وإمام مذهب الرأى .

(٥) سفيان بن سعيد بن مسروق (٩٧ ـ ١٦١ هـ ـ ٧١٦ ـ ٧٧٨ م) أمير المؤمنين فى الحديث .

(٦) حماد بن أسامة الكوفى (١٢١ ـ ٢٠١ هـ ـ ٧٣٩ ـ ٨١٧ م) من حفاظ الحديث ، والثقاة فى روايته .

(٧) النخعى ، إبراهيم بن يزيد بن قيس بن الاسود (٤٦ ـ ٩٦ هـ ـ ٦٦٦ ـ ٧١٥ م) من أكابر التابعين . حافظ ومجتهد وصاحب مذهب .

(٨) عامر بن شراحيل (١٩ ـ ١٠٣ هـ ـ ٦٤٠ ـ ٧٢١ م) من التابعين ، فقيه ، حافظ ولى القضاء لعمر بن عبد العزيز .

(٩) محمد بن على بن عطية الحارثى (٣٨٦ هـ ـ ٩٩٦ م) الواعظ الزاهد الفقيه ، صاحب (قوت القلوب) و (علم القلوب) .

(١٠) الجنيد بن محمد بن الجنيد البغدادى الخراز (٢٩٧ هـ ـ ٩١٠ م) الصوفى الفقيه .

ضبط التصوف بالشريعة . وكان شيخ المذهب في عصره .

(١١) سرى بن مفلس السقطي (٢٥٣ هـ - ٨٦٧ م) أول متصوفة بغداد ، وإمامهم في عصره ، وهو خال الجنيد ، وأستاذه .

(١٢) ثوبان بن إبراهيم الأخميمي المصري (٢٤٥ هـ - ٨٥٩ م) الصوفي الزاهد ، وهو أول من تكلم بمصر في الأحوال والمقامات .

(١٣) الحارث بن أسد المحاسبي (٢٤٣ هـ - ٨٥٧ م) من أكابر الصوفية ، وعلماء الأصول .

(١٤) البقرة : ٢٢٥ .

(١٥) أي : ومتى .

(١٦) فاطر : ١ .

(١٧) حديث ما بعث الله نبيا إلا حسن الصوت : الترمذي في الشمائل عن قتادة وزاد قوله: وكان نبيكم حسن الوجه حسن الصوت . ورويناه متصلا في الغيلانيات من رواية قتادة عن أنس ، والصواب الأول ، قاله الدارقطني ورواه ابن مردويه في التفسير من حديث علي أبي طالب وطرقه كلها ضعيفة .

(١٨) حديث لله أشد أذنا للرجل الحسن الصوت بالقرآن من صاحب القينة إلى قينته : متفق عليه ، من حديث أبي هريرة ، بلفظ : ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي يتغنى بالقرآن .

(١٩) حديث كان داود حسن الصوت في النياحة على نفسه وفي تلاوة الزبور - الحديث لم أجد له أصلا .

(٢٠) حديث : لقد أوتي مزمارا من مزامير آل داود : قاله في مدح أبي موسى ، وهو متفق عليه من حيث أبي موسى .

(٢١) لقمان : ١٩ .

(٢٢) حديث المنع من الملاهي والأوتار والمزامير : البخاري من حديث أبي عامر أو أبي مالك الأشعري . ليكونن في أمتي أقوام يستحلون الخمر والحرير والمعازف .

صورته عند البخاري صورة التعليق ، ولذلك ضعّفه ابن حزم ، ووصله أبو داود والإسماعيلي ، والمعازف : الملاهي ، قاله الجوهري ، ولأحمد من حديث أبي أمامة : إن الله أمرني أن أمحق المزامير والكبارات ، يعني البرابط والمعازف . وله من حديث قيس بن سعد بن عبادة : إن ربي حرم عليّ الخمر والكوبة والقنين ، وله في حديث لأبي أمامة باستحلالهم الخمور وضربهم بالدفوف . وكلها ضعيفة . ولأبي الشيخ من حديث مكحول مرسلا : الاستماع إلى الملاهي معصية ـ الحديث : ولأبي داود من حديث ابن عمر : سمع مزمارا فوضع أصبعيه على أذنيه . قال أبو داود : وهو منكر .

(٢٣) حديث إن لكل ملك حمى وإن حمى الله محارمه ، متفق عليه من حديث النعمان بن بشير .

(٢٤) حديث النهي عن الحنتم والمزفت والنقير : متفق عليه من حديث ابن عباس .

(٢٥) أي : متى .

(٢٦) السكنجبين : شراب مركب من حامض وحلو ـ والكلمة معربة عن الفارسية : سركا انكبين ـ

(٢٧) الأعراف : ٣٢ .

(٢٨) أي : متى .

(٢٩) حديث إنشاد الشعر بين يدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ متفق عليه من حديث أبي هريرة ، أن عمر مر بحسان وهو ينشد الشعر في المسجد فلحظ إليه ، فقال ، قد كنت أنشد وفيه من هو خير منك ـ الحديث : ولمسلم من حديث عائشة إنشاد حسن .

هجوت محمداً فأجبت عنه وعند الله في ذاك الجزاء

القصيدة .. وإنشاد حسان أيضا :

وإن سنام المجد من آل هاشم بنو بنت مخزوم ووالدك العبد

وللبخاري إنشاد ابن رواحة :

وفينا رسول الله يتلو كتابه إذا انشق معروف من الفجر ساطع

الأبيات ...

(٣٠) حديث إن من الشعر لحكمة : البخاري من حديث أُبَيّ بن كعب .

(٣١) حديث عائشة في الصحيحين ، لما قدم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ المدينة وعك أبو بكر وبلال .

الحديث .. وفيه إنشاد أبو بكر :

كل امرىء مصبح في أهله والموت أدنى من شراك نعله

وإنشاد بلال .

الا ليت شعري هل أبيتن ليلة بواد وحولي أذخر وجليل

وهل أردن يوما مياه مجنة وهل يبدون لي شامة وطفيل

هو في الصحيحين ، لكن أصل الحديث والشعر عند البخاري فقط ليس عند مسلم .

(٣٢) حديث كان صلى الله عليه وسلم ينقل اللبن مع القوم في بناء المسجد وهو يقول :

هذا الجمال لا جمال خيبر هذا أبر ربنا وأطهر

وقال صلى الله عليه وسلم مرة أخرى :

اللهم إن العيش عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة

قال المصنف والبيتان في الصحيحين . قلت : البيت الأول انفرد به البخاري في قصة الهجرة من رواية عروة ، مرسلا ، وفيه البيت الثاني أيضا ، إلا أنه قال : الأجر ، بدل: العيش ، تمثل بشعر رجل من المسمين لم يسم لي ، قال ابن شهاب : ولم يبلغنا في الأحاديث أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت، والبيت الثاني في الصحيحين من حديث أنس يرتجزون ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معهم يقولون:

اللهم لا خير إلا خير الآخرة فانصر الأنصار والمهاجرة

وليس البيت الثاني موزونا ، وفي الصحيحين أيضا أنه قال في حفر الخندق بلفظ :

فبارك فى الانصار والمهاجرة ، وفى رواية : فاغفر ، وفى رواية لمسلم : فأكرم ، ولهما من حديث سهل بن سعد : فاغفر للمهاجرين والانصار .

(٣٣) حديث كان يضع لحسان منبرا فى المسجد يقوم عليه قائما يفاخر عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أو ينافح ـ الحديث : البخارى ، تعليقا ، وأبو داود ، والترمذى والحاكم ، متصلا ، من حديث عائشة ، وقال الترمذى : حسن صحيح ، وقال الحاكم: صحيح اسناد ، وفى الصحيحين أنها قالت : إنه كان ينافح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ

(٣٤) حديث أنه قال للنابغة لما أنشده شعرا لا يفضض الله فاك : البغوى فى معجم الصحابة ، وابن عبد البر فى الاستيعاب ، بإسناد ضعيف ، من حديث النابغة ، واسمه قيس بن عبد الله ، قال : أنشدة النبى ـ صلى الله عليه وسلم :

بلغنا السماء مجدنا وجدودنا وإنا لنرجو فوق ذلك مظهرا

الأبيات .. ورواه البزار بلفظ .. علونا العباد عفة وتكرما

الأبيات ، وفيه فقال : أحسنت يا أبا ليلى ، لا يفضض الله فاك ، وللحاكم من حديث خزيم بن أوس سمعت العباس يقول : يا رسول الله ، إنى أريد أن امتدحك ، فقال : قل، لا يفضض الله فاك ، فقال العباس :

من قبلها طبت فى الظلال وفى مستودع حيث يخصف الورق

(٣٥) حديث عائشة كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يتناشدون الأشعار وهو يبتسم ، الترمذى من حديث جابر بن سمرة وصححه ، ولم أقف عليه من حديث عائشة .

(٣٦) حديث الشريد انشدت النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مائة قافية من قول امية بن أبى الصلت ، كل ذلك يقول هيه هيه ـ الحديث : رواه مسلم .

(٣٧) حديث أنس كان يحدى له فى السفر ، وأن أنجشه كان يحدو بالنساء ، وكان البراء ابن مالك يحدو بالرجال .

الحديث : أبو داود الطيالسى ، واتفق الشيخان منه على قصة أنجشه دون ذكر البراء من مالك .

(٣٨) محمد بن داود بن سليمان بن جعفر الصوفي (٣٤٢ هـ - ٩٥٣ م) من حفاظ الحديث . وهو شيخ الصوفية في نيسابور .

(٣٩) أي : متى .

(٤٠) المراد - في الأصل : عمود الميزان . والشاهين هنا هو : نوع من المزامير ذات الصوت الرقيق ، يستخدمها الرعاة عادة .

(٤١) هو مقام إبراهيم - بجوار الكعبة - وفي القرآن الكريم . (.. واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ..) - البقرة : ١٢٥ .

(٤٢) الحطيم : بناء قبالة الميزاب من خارج الكعبة .

(٤٣) الحديد : ٢٣ .

(٤٤) حديث عن النياحة متفق عليه من حديث أم عطية : أخذ علينا النبي - صلى الله عليه وسلم - في البيعة أن لا تنوح .

(٤٥) حديث إنشاد النساء عند قدوم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع

البيهقي في دلائل النبوة ، من حديث عائشة ، معضلا ، وليس فيه ذكر للدف والألحان .

(٤٦) حديث حجل جماعة من الصحابة في سرور ، أصابهم ، أبو داود من حديث علي .

(٤٧) حديث عائشة رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم سترني بردائه وأنا أنظر إلى الحبشة يلعبون في المسجد - الحديث : هو كما ذكره المصنف أيضا في الصحيحين ، ولكن قوله إنه فيهما من رواية عقيل عن الزهري ليس كما ذكر ، بل هو عند البخاري كما ذكر ، وعند مسلم من رواية عمرو بن الحارث عنه .

(٤٨) حديث عائشة : رأيت النبي - صلى الله عليه وسلم - يسترني بثوبه وأنا أنظر إلى الحبشة وهم يلعبون في المسجد فزجرهم عمر فقال النبي - صلى الله عليه وسلم - أمنا يابني أرفدة : تقدم قبله بحديث دون زجر عمر لهم إلى أخره ، فرواه مسلم من

حديث أبي هريرة دون قوله أمنا يابني أرفدة ، بل قال : دعهم ياعمر ، زاد النسائي ، فإنماهم بنو أرفدة ، ولهما من حديث عائشة : دونكم يابني أرفدة ، وقد ذكره المصنف بعد هذا .

(٤٩) حديث عمرو بن الحارث عن ابن شهاب ، نحوه وفي يغنيان ويضربان : رواه مسلم ، وهو عند البخاري من رواية الأوزاعي عن ابن شهاب .

(٥٠) حديث أبي طاهر عن ابن وهب : والله لقد رأيت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقوم على باب حجرتي ، والحبشة يلعبون بحرابهم الحديث : رواه مسلم أيضا .

(٥١) حديث عائشة : كنت ألعب بالبنات عن رسول – صلى الله عليه وسلم – الحديث : وهو في الصحيحين كما ذكر المصنف ، لكن مختصر إلى قولها فيلعبن معي . وأما الرواية المطولة التي ذكرها المصنف بقوله : وفي رواية فليست من الصحيحين إنما رواها أبو داود بإسناد صحيح .

(٥٢) حديث عائشة دخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وعندي جاريتان تغنيان بغناء بعاث – الحديث، هو في الصحيحين ، كما ذكر المصنف والرواية التي عزاها بها مسلم كما ذكر .

(٥٣) كلمة فارسية : معناها · نوع من الحلوى ، تشبه القطائف يؤدم بدهن اللوز .

(٥٤) الدكادك – ومفردها : دكدك – : الأرض يكون فيها غلظ .

(٥٥) حديث أبي هريرة أن غلاما كان في بني إسرائيل على جبل فقال لأمه : من خلق السماء ؟ فقالت : الله – الحديث : وفيه رمى نفسه من الجبل فتقطع . رواه ابن حبان .

(٥٦) حديث أمره صلى الله عليه وسلم حسان بن ثابت بهجاء المشركين : متفق عليه من حديث البراء أنه – صلى الله عليه وسلم – قال لحسان اهجهم ، أو هاجهم وجبريل معك .

(٥٧) في النسخة المطبوعة – الأصل – : بسوار – بالراء – .

(٥٨) الخلف - بضم الخاء وسكون اللام – خلاف المفروض . وقياس الخلف – في المنطق – هو : ما يستدل فيه بامتناع أحد النقيضين على تحقيق الآخر .

(٥٩) المحرور : من داخلته الحرارة .

(٦٠) أى متى .

(٦١) الصدفى ، يونس بن عبد الأعلى بن موسى بن ميسرة (١٧٠ ـ ٢٦٤ هـ ـ ٧٨٧ ـ ٨٧٧م) من كبار فقهاء مصر ، ورواة الأحاديث والأخبار .

(٦٢) البقرة : ٢٢٥ .

(٦٣) لقمان : ٦٠ .

(٦٤) حديث عائشة : إن الله حرم القينة وبيعها وثمنها وتعليمها . الطبرانى فى الأوسط بإسناد ضعيف ، قال البيهقى : ليس بمحفوظ .

(٦٥) النجم : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

(٦٦) الشعراء : ٤٢٢ .

(٦٧) حديث جابر كان إبليس أول من ناح وأول من تغنى ، لم أجد له أصلاً من حديث جابر ، وذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طالب ، ولم يخرجه ولده فى مسنده .

(٦٨) حديث أبى أمامة : ما رفع أحد عقيرته بغناء إلا بعث الله شيطانين على منكبيه يضربان بأعقابهما على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتى يمسك . ابن أبى الدنيا فى ذم الملاهى ، والطبرانى فى الكبير ، وهو ضعيف .

(٦٩) حديث عقبة بن عامر كل شيء يلهو به الرجل فهو باطل إلا تأديبه فرسه ورميه بقوسه وملاعبته زوجته ، أصحاب السنن الأربعة ، وفيه اضطراب .

(٧٠) حديث لا يحل دم امرئٍ إلا باحدى ثلاث متفق عليه من حديث ابن مسعود .

(٧١) حديث ابن مسعود : الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل ، قال المصنف والمرفوع غير صحيح ، لأن فى إسناده من لم يُسَمّ . رواه أبو داود ، وهو فى رواية ابن العبد ليس فى رواية اللؤلؤى ، ورواه البيهقى مرفوعا وموقوفا .

(٧٢) حديث نافع : كنت وابن عمر فى طريق ، فسمع زمارة راع ، فوضع أصبعه فى أذنيه ـ الحديث ، ورفعه أبو داود وقال : هذا حديث منكر .

(٧٣) الفرس الهملج : هو الذى يسير فى سرعة وبخترة .

(٧٤) حديث خلع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعد الفراغ من الصلاة ثوب أبى جهم إذ كان عليه أعلام شغلت قلبه . متفق عليه من حديث عائشة .

(٧٥) أحاديث مزاح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كثيرة . انظر : إحياء علوم الدين ص ١٥٧٣ ـ ١٥٧٧ .

(٧٦) هنا ينتهى الباب الأول من كتاب السماع ـ فى (إحياء علوم الدين) ـ لحجة الإسلام أبى حامد الغزالى ـ ص ١١٢٠ ـ ١١٥٢ فى الكتاب ـ ولقد اكتفينا به ، لأنه هو المخصص « لحكم » السماع .. أما الباب الثانى ـ من ص ١١٥٣ حتى ص ١١٨٣ ـ فلقد آثرنا عدم إيراده ، لأن موضوعه هو « فى آثار السماع وآدابه » ، فهو ـ إلى حد كبير ـ خارج عن إطار هدفنا فى كتابنا هذا ـ وهو أدخل فى الدراسات الصوفية وأحوال المتصوفة .. ولقد اكتفينا منه بالعبارة التى أوردها الغزالى فى ختامه .. وهى السطور التى تلى إشارة هذا التعليق .

* * *

(ج)

ابن تيمية (*)

أبو العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم الحرانى

(٦٦١ - ٧٢٨ هـ - ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م)

(مسألة السَّماع)

(*) هذه هي نصوص فتاوى ابن تيمية في « مسألة » السماع » . أخذنا نصها من (مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية) - المجلد الحادى عشر - ص ٥٥٧ - ٦٤٥ - تحقيق وجمع وترتيب المرحوم عبد الرحمن بن محمد بن قاسم - بمساعدة ابنه محمد - طبعة المملكة العربية السعودية - على نفقة الملك خالد بن عبد العزيز ..

ولقد استكملنا تحقيق النص - بالترجمة لأعلامه ، والتعليق على بعض إشاراته ، والتخريج لما به من آيات القرآن الكريم

ولأن النص فتاوى متعددة ، فلقد استغنينا عن ما فيه من تكرار لا يضيف فكرا جديدا .

ماذا تقـول السـادة الأعـلام ؟

أئمة الإسلام ، ورثة الأنبياء عليهم السلام - رضى الله عنهم - وأرضاهم ، فى صفة « سماع الصالحين » ما هو ؟ وهل سماع القصائد الملحنة بالآلات المطربة هو من القُرَب والطاعات ، أم لا ؟ وهل هو مباح ، أم لا ؟.

فأجاب : شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن تيمية - رضى الله عنه - : الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وسلم تسليماً .

أصل هذه « المسألة » أن يفرق بين السماع الذى يُنتفع به فى الدين ، وبين ما يُرَخَّص فيه رفعًا للحرج ، بين سماع المتقربين ،وبين سماع المتلعبين(١).

فأما السماع الذى شرعه الله تعالى لعباده ، وكان سلف الأمة من الصحابة والتابعين وتابعيهم يجتمعون عليه لصلاح قلوبهم ، وزكاة نفوسهم - فهو سماع آيات الله تعالى ، وهو سماع النبيين ، وأهل العلم ، وأهل المعرفة .

قال الله تعالى ، لما ذكر من ذكره من الأنبياء فى قوله : ﴿ أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم ، وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية

إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) (٢) . وقال : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا ، وعلى ربهم يتوكلون) (٣) . وقال تعالى : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعًا) (٤) . وقال تعالى : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق) (٥) .

وبهذا السماع ، أمر الله تعالى ، كما قال تعالى : (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون) (٦) وعلى أهله أثنى كما فى قوله تعالى: (فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) (٧) . وقال فى الآية الأخرى : (أفلم يدبروا القول؟ أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين؟) (٨) فالقول الذى أمروا بتدبره هو القول الذى أمروا باستماعه .

وقد قال تعالى : (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) (٩) . وقال تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته) (١٠) .

وكما أثنى على هذا السماع ، ذم المعرضين عن هذا السماع ، فقال تعالى : (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرًا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرا) (١١) . وقال تعالى : (وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) (١٢) . وقال تعالى : (وقال الرسول يا رب ! إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجورًا . وكذلك جعلنا لكل نبى عدوًا من المجرمين وكفى بربك هاديًا ونصيرًا) (١٣) . وقال تعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حُمُر مستنفرة ، فرت من قسورة) (١٤) . وقال تعالى : (وقالوا قلوبنا فى

أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب)(١٥) . وقال تعالى : (وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجابًا مستورًا ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا) (١٦).

وهذا هو السماع الذى شرعه الله لعباده فى صلاة الفجر ، والعشائين ، وغير ذلك .

وعلى هذا السماع ، كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجتمعون ، وكانوا إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم أن يقرأ والباقون يستمعون ، وكان عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ يقول لأبى موسى : ياأبا موسى : ذكّرنا ربنا ، فيقرأ وهم يستمعون . وهذا هو السماع الذى كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشهده مع أصحابه ، ويستدعيه منهم ، كما فى الصحيح عن عبد الله بن مسعود قال : « قال النبى ـ صلى الله عليه وسلم : اقرأ علىّ القرآن ، قلت : اقرأه عليك وعليك أُنزل ؟ : فقال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت عليه سورة النساء حتى وصلت إلى هذه الآيـة : (فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدًا)(١٧) قال : حسبك . « فنظرت فإذا عيناه تذرفان » . وهذا هو الذى كان النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ يسمعه هو وأصحابه . كما قال تعالى : (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة) (١٨) و « الحكمة » هى : السنة .

وقال تعالى : (قل : إنما أُمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرمها وله كل شىء وأُمرت أن أكون من المسلمين . وأن أتلو القرآن فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المنذرين) (١٩) وكذلك غيره من

الرسل ، قال تعالى : (يا بني آدم إما يأتيكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) (٢٠).

وبذلك يحتج عليهم يوم القيامة . كما قال تعالى : (يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا ؟ قالوا : شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين »(٢١) . وقال تعالى : (وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمرًا حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها : ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا . قالوا : بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين) (٢٢).

وقد أخبر أن المعتصم بهذا السماع مهتد مفلح ، والمعرض عنه ضال شقي ، قال تعالى : (فإما يأتينكم من هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ، ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرًا ؟ . قال : كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى) (٢٣) . وقال تعالى : (ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين) (٢٤).

و « ذكر الله » يراد به تارة : ذكر العبد ربه ، ويراد به الذكر الذي أنزل الله. كما قال تعالى : (وهذا ذكر مبارك أنزلناه)(٢٥). وقال نوح : (أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم) (٢٦). وقال : (وقالوا يا أيها الذي نُزِّل عليه الذكر إنك لمجنون)(٢٧). وقال : (ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه) (٢٨) . وقال : (وإنه لذكر لك ولقومك)(٢٩) . وقال : (إن هو إلا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم) (٣٠). وقال : وما عَلَّمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن مبين)(٣١).

وهذا « السماع » له آثار إيمانية من المعارف القدسية ، والأحوال الزكية، يطول شرحها ووصفها ، وله فى الجسد آثار محمودة من خشوع القلب ، ودموع العين ، واقشعرار الجلد ، وهذا مذكور فى القرآن . وهذه الصفات موجودة فى الصحابة ، ووجدت بعدهم آثار ثلاثة : الاضطراب ، والصراخ ، والاغماء ، والموت فى التابعين .

و « بالجملة » فهذا السماع هو أصل الايمان : فإن الله بعث محمداً - صلى الله عليه وسلم - إلى الخلق أجمعين ليبلغهم رسالات ربهم فمن سمع ما بلغه الرسول فآمن به واتبعه اهتدى ، وأفلح ، ومن أعرض عن ذلك ضل وشقى .

وأما « سماع المكاء والتصدية » ، وهو التصفيق بالأيدى . والمكاء مثل الصفير ونحوه ، فهذا هو سماع المشركين الذى ذكره الله تعالى فى قوله : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) (٣٢) .. فأخبر عن المشركين أنهم كانوا يتخذون التصفيق باليد ، والتصويت بالفم قربة ودينا ، ولم يكن النبى - صلى الله عليه وسلم - وأصحابه يجتمعون على مثل هذا السماع ، ولا حضروه قط ، ومن قال إن النبى - صلى الله عليه وسلم - حضر ذلك فقد كذب عليه باتفاق أهل المعرفة بحديثه وسنته . والحديث الذى ذكره محمد بن طاهر المقدسى(٣٣) فى « مسألة السماع » و « فى صفة التصوف » ، ورواه من طريقه الشيخ أبو حفص عمر السهروردى (٣٤) صاحب عوارف المعارف « أن النبى - صلى الله عليه وسلم - أنشده أعرابى :

قد لسعت حية الهوى كبدى	فلا طبيب لها ولا راقى
إلا الحبيب الذى شغفت به	فعنده رقيتى وترياقى

وأنه تواجد حتى سقطت البردة عن منكبيه ، فقال له معاوية : ما أحسن لهوكم ! . فقال له : مهلاً يا معاوية ! ليس بكريم من لم يتواجد عند ذكر الحبيب » . فهو حديث مكذوب موضوع باتفاق أهل العلم بهذا الشأن .

وأظهر منه كذبًا حديث آخر ، يذكرون فيه : أنه لما بشر الفقراء بسبقهم الأغنياء إلى الجنة تواجدوا ، وخرقوا ثيابهم ، وأن جبرائيل نزل من السماء فقال : يا محمد ! إن ربك يطلب نصيبه من هذه الخرق ، فأخذ منها خرقة فعلقها بالعرش ، وأن ذلك هو زيق الفقراء » . وهذا وأمثاله إنما يرويه من هو من أجهل الناس بحال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه ، ومن بعدهم ، ومعرفة الإسلام والإيمان .

وهو يشبه رواية من روى : « أن أهل الصفة قاتلوا مع الكفار لما انكسر المسلمون يوم حنين ، أو غير يوم حنين ، وأنهم قالوا : نحن مع الله ، من كان الله معه كنا معه » ، ومن روى : « أن صبيحة المعراج وجد أهل الصفة يتحدثون بسر كان الله أمر نبيه أن يكتمه ، فقال لهم : من أين لكم هذا ؟ قالوا الله علمنا إياه ، فقال : يارب ! ألم تأمرني ألا أفشيه ؟ . فقال : أمرتك أنت ألا تفشيه ، ولكني أنا أخبرتهم به » .

ونحو هذه الأحاديث التي يرويها طوائف منتسبون إلى الدين ، ومع فرط جهلهم بدين الإسلام ، فيبنون عليها من النفاق والبدع ما يناسبها ، تارة يسقطون التوسط بالرسول وأنهم يصلون إلى الله تعالى من غير طريق الرسل مطلقًا . فهذا أعظم من كفر اليهود والنصارى ، فإن أولئك أسقطوا وساطة رسول واحد . ولم يسقطوا وساطة الرسل مطلقًا .

وهؤلاء إذا أسقطوا وساطة الرسل مطلقًا عن أنفسهم ، كان هذا أغلظ من

كفر أولئك : لكنهم يقولون : لا تسقط الوساطة إلا عن الخاصة ، لا عن العامة ، فيكونون أكفر من أهل الكتاب من جهة إسقاط السفارة مطلقًا عنهم، في بعض الأحوال ، وأهل الكتاب أكفر من جهة إسقاط سفارة محمد مطلقًا، بل أهل الكتاب الذين يقولون إنه رسول إلى الأميين دون أهل الكتاب خير من هؤلاء ، فإن أولئك أخرجوا عن رسالته من له كتاب ، وهؤلاء يخرجون عن رسالته من لا يبقى معه إلا خيالات ووساوس وظنون ألقاها إليه الشيطان ، مع ظنه أنه من خواص أولياء الله وهو من أشد أعداء الله ، وتارة يجعلون هذه الآثار المختلفة حجة فيما يفترونه من أمور تخالف دين الإسلام ، ويدعون أنها من أسرار الخواص ، كما يفعل الملاحدة والقرامطة والباطنية ، وتارة يجعلونها حجة في الإعراض من كتاب الله وسنة نبيه إلى ما ابتدعوه من اتخاذ دينهم لهوًا ولعبًا .

وبالجملة قد عرف بالاضطرار من دين الإسلام : أن النبي - صلى الله عليه وسلم - لم يشرع لصالحي أمته وعُبّادهم وزُهّادهم أن يجتمعوا على استماع الأبيات الملحنة ، مع ضرب بالكف أو ضرب بالقضيب ، أو الدف . كما لم يبح لأحد أن يخرج عن متابعته واتباع ما جاء به من الكتاب والحكمة، لا في باطن الأمر ، ولا في ظاهره ، ولا لعامي ولا لخاصي ، ولكن رخص النبي - صلى الله عليه وسلم - في أنواع من اللهو في العرس ونحوه ، كما رخص للنساء أن يضربن بالدف في الأعراس ، والأفراح . وأما الرجال على عهده فلم يكن أحد منهم يضرب بالدف ، ولا يصفق بكف ، بل قد ثبت عنه في الصحيح أنه قال : « التصفيق للنساء والتسبيح للرجال . ولعن المتشبهات من النساء بالرجال . والمتشبهين من الرّجال بالنساء »(٣٥) .

ولما كان الغناء والضرب بالدف والكف من عمل النساء ، كان السلف يسمون من يفعل ذلك من الرجال مخنثًا ، ويسمون الرجال المغنين مخانيثًا ، وهذا مشهور في كلامهم .

ومن هذا الباب حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ لما دخل عليها أبوها ، ـ رضي الله عنه ـ في أيام العيد ، وعندها جاريتان من الأنصار تغنيان بما تقاولت به الأنصار يوم بعاث . فقال أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ : « أمزمار الشيطان في بيت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلّم ـ؟ . وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ، معرضًا بوجهه عنهما ، مقبلاً بوجهه الكريم إلى الحائط . فقال : دعهما يا أبا بكر فإن لكل قوم عيدًا ، وهذا عيدنا أهل الإسلام » . ففي هذا الحديث بيان : أن هذا لم يكن من عادة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأصحابه الاجتماع عليه ، ولهذا سماه الصديق مزمار الشيطان ، والنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أقر الجواري عليه معللاً ذلك بأنه يوم عيد . والصغار يرخص لهم في اللعب في الأعياد ، كما جاء في الحديث «ليعلم المشركون أن في ديننا فسحة » . وكان لعائشة لعب تلعب بهن ويجئن صواحباتها من صغار النسوة يلعبن معها ، وليس في حديث الجاريتين أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ استمع إلى ذلك . والأمر والنهي إنما يتعلق بالاستماع ، لا بمجرد السماع . كما في الرؤية ، فإنه إنما يتعلق بقصد الرؤية ، لا بما يحصل منها بغير الاختيار .

وكذلك في اشتمام الطيب إنما ينهى المحرم عن قصد الشم ، فأما إذا شم ما لم يقصده فأنه لا شيء عليه . وكذلك في مباشرة المحرمات كالحواس الخمس من : السمع ، والبصر ، والشم ، والذوق ، واللمس . إنما يتعلق الأمر

والنهي من ذلك بما للعبد فيه قصد وعمل ، وأما ما يحصل بغير اختياره فلا أمر فيه ولا نهي .

وهذا مما وجه به الحديث الذي في السنن عن ابن عمر « أنه كان مع النبي - صلى الله عليه وسلم - فسمع صوت زمارة راع ، فعدل عن الطريق ، وقال : هل تسمع ؟ هل تسمع ؟ حتى انقطع الصوت » .

فإن من الناس من يقول : بتقدير صحة هذا الحديث ، لم يأمر ابن عمر بسد أذنيه ، فيجاب بأنه كان صغيرًا . أو يجاب بأنه لم يكن يستمع ، وإنما كان يسمع ، وهذا لا إثم فيه . وإنما النبي - صلى الله عليه وسلم - فعل ذلك طلبًا للأفضل والأكمل . كمن اجتاز بطريق فسمع قومًا يتكلمون بكلام محرم فسد أذنيه كيلا يسمعه ، فهذا حسن ، ولو لم يسد أذنيه لم يأثم بذلك، اللهم إلا أن يكون في سماعه ضرر ديني لا يندفع إلا بالسد .

و « بالجملة » فهذه (مسألة السماع) ، تكلم كثير من المتأخرين في السماع : هل هو محظور ؟ أو مكروه ؟ أو مباح ؟ . وليس المقصود بذلك مجرد رفع الحرج ، بل مقصودهم بذلك أن يُتَّخَذَ طريقًا إلى الله يجتمع عليه أهل الديانات لصلاح القلوب ، والتشويق إلى المحبوب ، والتخويف من المرهوب ، والتحزين على فوات المطلوب ، فتستنزل به الرحمة ، وتستجلب به النعمة ، وتحرك به مواجيد أهل الإيمان ، وتستجلى به مشاهد أهل العرفان ، حتى يقول بعضهم : إنه أفضل لبعض الناس أو للخاصة من سماع القرآن من عدة وجوه : حتى يجعلونه قوتًا للقلوب ، وغذاءً للأرواح ، وحاديًا للنفوس ، يحدوها إلى السير إلى الله ، ويحثها على الإقبال عليه .

ولهذا يوجد من اعتاده ، واغتذى به لا يحن إلى القرآن ولا يفرح به ولا

يجد فى سماع الآيات كما يجد فى سماع الأبيات ، بل إذا سمعوا القرآن سمعوه بقلوب لاهية ، وألسن لاغية ، وإذا سمعوا سماع المكاء والتصدية خشعت الأصوات ، وسكنت الحركات ، وأصغت القلوب، وتعاطت المشروب.

فمن تكلم فى هذا : هل هو مكروه ؟ أو مباح ؟ وشبهه بما كان النساء يغنين به فى الأعياد والأفراح ، لم يكن قد اهتدى إلى الفرق بين طريق أهل الخسارة ، والفلاح ، ومن تكلم فى هذا : هل هو من الدين ؟ ومن سماع المتقين؟ ومن أحوال المقربين ؟ والمقتصدين ؟ ومن أعمال أهل اليقين ؟ ومن طريق المحبين المحبوبين ؟ ومن أفعال السالكين ، إلى رب العالمين ، كان كلامه فيه من وراء وراء بمنزلة من سئل عن علم الكلام المختلف فيه ، هل هو محمود ؟ أو مذموم ؟ فأخذ يتكلم فى جنس الكلام وانقسامه : إلى الاسم ، والفعل ، والحرف ، أو يتكلم فى مدح الصمت ، أو فى أن الله أباح الكلام والنطق ، وأمثال ذلك مما لا يمس المحل المشتبه المتنازع فيه !.

فإذا عرف هذا : فاعلم أنه لم يكن فى عنفوان القرون الثلاثة المفضلة ، لا بالحجاز ، ولا بالشام ، ولا باليمن ، ولا مصر ، ولا المغرب ، ولا العراق ، ولا خراسان ، من أهل الدين والصلاح والزهد والعبادة من يجتمع على مثل سماع المكاء والتصدية ، لا بدف ، ولا بكف ، ولا بقضيب ، وإنما أحدث هذا بعد ذلك فى أواخر المائة الثانية ، فلما رآه الأئمة أنكروه .

فقال الشافعى ـ رضى الله عنه ـ خلَّفت ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة ، يسمونه « التغبير » يصدون به الناس عن القرآن .

وقال يزيد بن هارون (٣٦) : ما يغبر إلا الفاسق ، ومتى كان التغبير ؟!.

وسئل عنه الإمام أحمد (٣٧) ، فقال : أكرهه ، هو محدث . قيل : أنجلس معهم ؟ . قال : لا .

وكذلك سائر أئمة الدين كرهوه ، وأكابر الشيوخ الصالحين لم يحضروه ، فلم يحضره إبراهيم بن أدهم [٣٨] ، ولا الفضيل بن عياض[٣٩] ، ولا معروف الكرخي [٤٠]، ولا أبو سليمان الداراني [٤١] ، ولا أحمد بن أبي الحواري [٤٢] والسري السقطي ، وأمثالهم . والذين حضروه من الشيوخ المحمودين تركوه في آخر أمرهم . وأعيان المشائخ عابوا أهله . كما فعل ذلك عبد القادر[٤٣] ، والشيخ أبو البيان[٤٤] ، وغيرهما من المشائخ .

وما ذكره الشافعي - رضي الله عنه - من أنه من إحداث الزنادقة كلام إمام خبير بأصول الإسلام ، فإن هذا السماع لم يرغب فيه ، ويدعو إليه في الأصل إلا من هو متهم بالزندقة : كابن الراوندي [٤٥] ، والفارابي[٤٦] وابن سينا [٤٧] ، وأمثالهم : كما ذكر أبو عبد الرحمن السلمي [٤٨] - في مسألة السماع - عن ابن الراوندي . قال : إنه اختلف الفقهاء في السماع : فأباحه قوم ، وكرهه قوم ، وأنا أوجبه - أو قا ل : وأنا آمر به . فخالف إجماع العلماء في الأمر به .

و « الفارابي » كان بارعًا في الغناء الذي يسمونه « الموسيقا » . وله فيه طريقة عند اهل صناعة الغناء ، وحكايته مع ابن حمدان[٤٩] مشهورة . لما ضرب فأبكاهم ، ثم أضحكهم ، ثم نومهم ، ثم خرج .

و « ابن سينا » ذكر في إشارته ، في « مقامات العارفين » في الترقيب فيه ، وفي عشق الصور ، ما يناسب طريقة أسلافه الفلاسفة والصابئين المشركين، الذين كانوا يعبدون الكواكب ، والاصنام ، كأرسطو [٥٠] وشيعته من اليونان - ومن اتبعه كبر قلس [٥١] ، وثامسطيوس ، والاسكندر الأفروديسي[٥٢] ، وكان ارسطو وزير الاسكندر بن فيلبس المقدوني [٥٣]

الذى تؤرخ له اليهود والنصارى ، وكان قبل المسيح بنحو ثلاثمائة سنة .

وأما « ذو القرنين » المذكور فى القرآن ، الذى بنى « السد » فكان قبل هؤلاء بزمن طويل . وأما الأسكندر الذى وزر له أرسطو : فإنه إنما بلغ بلاد خراسان ونحوها فى دولة الفرس ، ولم يصل إلى السد ، وهذه الأمور مبسوطة فى غير هذا الموضع .

و « ابن سينا » أحدث فلسفة ركبها من كلام سلفه اليونان ، ومما أخذه من أهل الكلام المبتدعين الجهمية (٥٤) ، ونحوهم ، وسلك طريق الملاحدة الإسماعيلية (٥٥) فى كثير من أمورهم العلمية والعملية ، ومزجه بشىء من كلام الصوفية . وحقيقته تعود إلى كلام إخوانه الإسماعيلية القرامطة(٥٦) الباطنية : فإن أهل بيته كانوا من الإسماعيلية : أتباع الحاكم الذى كان بمصر ، وكانوا فى زمنه ، ودينهم دين أصحاب « رسائل إخوان الصفا » (٥٧)، وأمثالهم من أئمة منافقى الأمم الذين ليسوا مسلمين . ولا يهود ولا نصارى .

وكان الفارابى قد حذق فى حروف اليونان ، التى هى تعاليم أرسطو ، وأتباعه من الفلاسفة المشائين ، وفى أصواتهم صناعة الغناء ، ففى هؤلاء الطوائف من يرغب فيه ويجعله مما تزكو به النفوس ، وترتاض به ، وتهذب به الأخلاق .

وأما « الحنفاء » ، أهل ملة إبراهيم الخليل ، الذى جعله الله إماماً ، وأهل دين الإسلام ، الذى لا يقبل الله من أحد ديناً غيره ، المتبعون لشريعة خاتم الرسل محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهؤلاء ليس فيهم من يرغب فى ذلك ، ولا يدعو إليه ، وهؤلاء هم أهل القرآن والإيمان ، والهدى ، والسعد ،

والرشاد ، والنور ، والفلاح ، وأهل المعرفة والعلم ، واليقين والإخلاص ، والمحبة له ، والتوكل عليه ، والخشية له ، والإنابة إليه .

ولكن قد حضره أقوام من أهل الإرادة ، وممن له نصيب من المحبة ، لما فيه من التحريك لهم ، ولم يعلموا غائلته ، ولا عرفوا مغبته ، كما دخل قوم من الفقهاء أهل الإيمان بما جاء به الرسول فى أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام ، ظنًا منهم أنه حق موافق ، ولم يعلموا غائلته ، ولا عرفوا مغبته ، كما دخل قوم من الفقهاء أهل الإيمان بما جاء به الرسول فى أنواع من كلام الفلاسفة المخالف لدين الإسلام ، ظنًا منهم أنه حق موافق ، ولم يعلموا غائلته ، ولا عرفوا مغبته ، فإن القيام بحقائق الدين علماً وحالاً وقولاً وعملاً ومعرفة وذوقًا وخبرة لا يستقل بها أكثر الناس ، ولكن الدليل الجامع هو الاعتصام بالكتاب والسنة ، فإن الله بعث محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً .

وقد قال تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا) (٥٨) . وقد قال تعالى : (وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله)(٥٩) . قال عبد الله بن مسعود : « خط لنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خطًا ، وخط خطوطًا ، عن يمينه وشماله ، ثم قال : هذا سبيل الله . وهذه سبل ، على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه . ثم قرأ : (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله) .

وقد قال تعالى : (والسابقون الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه) (٦٠) ، فقد رضى الله عن

السابقين رضى مطلقًا ، ورضى عمن اتبعهم بإحسان . قال عبد الله بن مسعود : إن الله نظر فى قلب محمد فوجد قلبه خير قلوب العباد ، فاصطفاه لرسالته ، ثم نظر فى قلوب الناس بعد قلبه ، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد ، فما رآه المؤمنون حسنًا فهو عند الله حسن ، وما رأوه قبيحًا فهو عند الله قبيح . وقال عبد الله بن مسعود : من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد مات . فإن الحى لا تؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحاب محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبر هذه الأمة قلوبًا ، وأعمقها علماً ، وأقلها تكلفًا ، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ، وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم حقهم ، وتمسكوا بهديهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

ومن كان له خبرة بحقائق الدين ، وأحوال القلوب ومعارفها ، وأذواقها ، ومواجيدها ، عرف أن سماع المكاء والتصدية لا يجلب للقلوب منفعة ، ولا مصلحة إلا وفى ضمن ذلك من الضرر والمفسدة ما هو أعظم منه ، فهو للروح كالخمر للجسد ، يفعل فى النفوس فعل حميا الكؤوس .

ولهذا يورث أصحابه سكرًا أعظم من سكر الخمر ، فيجدون لذة بلا تمييز ، كما يجد شارب الخمر ، بل يحصل لهم أكثر وأكبر مما يحصل لشارب الخمر ، ويصدهم ذلك عن ذكر الله ، وعن الصلاة . أعظم مما يصدهم الخمر . ويوقع بينهم العداوة والبغضاء ، أعظم من الخمر ، حتى يقتل بعضهم بعضًا من غير مس بيد . بل بما يقترن بهم من الشياطين ، فإنه يحصل لهم أحوال شيطانية . بحيث تنزل عليهم الشياطين فى تلك الحال ، ويتكلمون على ألسنتهم ، كما يتكلم الجنى على لسان المصروع . إما بكلام من جنس كلام الأعاجم ، الذين لا يفقه كلامهم ، كلسان الترك ، أو الفرس ،

أو غيرهم . ويكون الإنسان الذى لبسه الشيطان عربيًّا لا يحسن أن يتكلم بذلك ، بل يكون الكلام من جنس كلام من تكون تلك الشياطين من إخوانهم، وإما بكلام لا يعقل ولا يفهم به معنى ، وهذا يعرفه أهل المكاشفة « شهودًا وعيانًا » .

وهؤلاء الذين يدخلون النار مع خروجهم عن الشريعة هم من هذا النمط، فإن الشياطين تلابس أحدهم ، بحيث يسقط إحساس بدنه ، حتى إن المصروع يضرب ضربًا عظيماً ، وهو لا يحس بذلك ، ولا يؤثر فى جلده ، فكذلك هؤلاء تلبسهم الشياطين ، وتدخل بهم النار ، وقد تطير بهم فى الهواء، وإنما يلبس أحدهم الشيطان مع تغيب عقله ، كما يلبس الشيطان المصروع.

وبأرض الهند ، والمغرب ، ضرب من الزط يقال لأحدهم : المصلى ، فإنه يصلى النار كما يصلى هؤلاء ، وتلبسه ويدخلها ويطير فى الهواء ، ويقف على رأس الزج ، ويفعل أشياء أبلغ مما يفعله هؤلاء . وهم من الزط الذين لا أخلاق لهم ، والجن تخطف كثيرًا من الإنس وتغيبه عن أبصار الناس ، وتطير بهم فى الهواء . وقد باشرنا من هذه الأمور ما يطول وصفه ، وكذلك يفعل هذا هؤلاء المتولهون والمنتسبون إلى بعض المشائخ إذا حصل له وَجْد سماعى ، وعند سماع البكاء والتصدية منهم من يصعد فى الهواء ، ويقف على زج الريح ، ويدخل النار ، ويأخذ الحديد المحمى بالنار ثم يضعه على بدنه ، وأنواع من هذا الجنس . ولا تحصل له هذه الحال عند الصلاة ، ولا عند الذكر ، ولا عند قراءة القرآن ، لأن هذه عبادات شرعية إيمانية إسلامية نبوية محمدية ، تطرد الشياطين ، وتلك عبادات بدعية شركية شيطانية فلسفية تستجلب الشياطين .

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى الحديث الصحيح : « ما اجتمع قوم فى بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ، ويتدارسونه بينهم ، إلا غشيتهم الرحمة ، ونزلت عليهم السكينة ، وحفتهم الملائكة ، وذكرهم الله فيمن عنده» وقد ثبت فى الحديث الصحيح « أن أسيد بن حضير لما قرأ سورة الكهف ، تنزلت الملائكة لسماعها ، كالظلة فيها السرج » .

ولهذا كان المكاء والتصدية يدعو إلى الفواحش والظلم ، ويصد عن حقيقة ذكر الله تعالى والصلاة كما يفعل الخمر ، والسلف يسمونه تغبيرًا ، لأن التغبير هو الضرب بالقضيب على جلد من الجلود ، وهو ما يغير صوت الإنسان على التلحين ، فقد يضم إلى صوت الإنسان ، إما التصفيق بأحد اليدين على الأخرى وإما الضرب بقضيب على فخذ وجلد ، وإما الضرب باليد على أختها ، أو غيرها على دف أو طبل ، كناقوس النصارى ، والنفخ فى صفارة كبوق اليهود ، فمن فعل هذه الملاهى على وجه الديانة والتقرب فلا ريب فى ضلالته وجهالته .

وأما إذا فعلها على وجه التمتع والتلعب فمذهب الأئمة الأربعة : أن آلات اللهو كلها حرام ، فقد ثبت فى صحيح البخارى وغيره «أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبر أنه سيكون من أمته من يستحل الحرَ والحرير ، والخمر والمعارف ، وذكر أنهم يمسخون قردة وخنازير » (٦١) .

و « المعازف » هى الملاهى كما ذكر ذلك أهل اللغة ، جمع معزفة ، وهى الآلة التى يعزف بها : أى يصوت بها . ولم يذكر أحد من أتباع الأئمة فى آلات اللهو نزاعًا . إلا أن بعض المتأخرين من أصحاب الشافعى ذكر فى اليراع وجهين . بخلاف الأوتار ونحوها ، فإنهم لم يذكروا فيها نزاعًا . وأما

العراقيون الذين هم أعلم بمذهبه وأتبع له ، فلم يذكروا نزاعًا لا في هذا ، ولا في هذا ، بل صنف أفضلهم في وقته أبو الطيب الطبري (٦٢) شيخ أبي إسحق الشيرازي (٦٣) في ذلك مصنفًا معروفًا . ولكن تكلموا في الغناء المجرد عن آلات اللهو : هل هو حرام ؟ أو مكروه ؟ أو مباح ؟ وذكر أصحاب أحمد له في ذلك ثلاثة أقوال ، وذكروا عن الشافعي قولين ، ولم يذكروا عن أبي حنيفة ومالك في ذلك نزاعًا .

وذكر زكريا بن يحيى الساجي(٦٤) ـ وهو أحد الأئمة المتقدمين المائلين إلى مذهب الشافعي ـ أنه لم يخالف في ذلك من الفقهاء المتقدمين إلا إبراهيم بن سعد من أهل البصرة ، وما ذكره أبو عبد الرحمن السلمي وأبو القاسم القشيري (٦٥) وغيرهما : عن مالك ، وأهل المدينة في ذلك فغلط ، إنما وقعت الشبهة فيه ، لأن بعض أهل المدينة كان يحضر السماع ، إلا أن هذا ليس قول أئمتهم وفقهائهم ، بل قال إسحاق بن عيسى الطباع : سألت مالكًا عما يترخص فيه أهل المدينة من الغناء ، فقال : إنما يفعله عندنا الفساق ، وهذا معروف في كتاب أصحاب مالك ، وهم أعلم بمذهبه ، ومذهب أهل المدينة من طائفة في المشرق ، لا علم لها بمذهب الفقهاء ، ومن ذكر عن مالك أنه ضرب بعود فقد افترى عليه . وإنما نبهت على هذا ، لأن فيما جمعه أبو عبد الرحمن السلمي ، ومحمد بن طاهر المقدسي ، في ذلك حكايات وآثار يظن من لا خبرة له بالعلم وأحوال السلف أنها صدق .

وكان « الشيخ أبو عبد الرحمن » ـ رحمه الله ـ فيه من الخير والزهد والدين والتصوف ما يحمله على أن يجمع من كلام الشيوخ والآثار التي توافق مقصوده كل ما يجده ، فلهذا يوجد في كتبه من الآثار الصحيحة ، والكلام المنقول ، ما ينتفع به في الدين ، ويوجد فيها من الآثار السقيمة ،

والكلام المردود ، ما يضر من لا خبرة له ، وبعض الناس توقف فى روايته ، حتى أن البيهقى كان إذا روى عنه يقول : حدثنا أبو عبد الرحمن من أصل سماعه ، وأكثر الحكايات التى يرويها أبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة(٦٦) عنه . فإنه كان أجمع شيوخه لكلام الصوفية .

و « محمد بن طاهر » له فضيلة جيدة من معرفة الحديث ، ورجاله ، وهو من حفاظ وقته ، لكن كثيرًا من المتأخرين : أهل الحديث ، وأهل الزهد ، وأهل الفقه ، وغيرهم ، إذا صنفوا فى باب ذكروا ما روى فيه من غث وسمين، ولم يميزوا ذلك .. وجماع الأمر فى ذلك أنه إذا كان الكلام فى السماع وغيره ، هل هو طاعة وقربة ؟ فلابد من دليل شرعي يدل على ذلك ، وإذا كان الكلام : هل هو محرم ؟ أو غير محرم ؟ فلابد من دليل شرعي يدل على ذلك ، إذ ليس الحرام إلا ما حرمه الله ، ولا دين إلا ما شرعه الله ، والله سبحانه وتعالى ذم المشركين على أنهم ابتدعوا دينًا لم يشرعه الله لهم ، وأنهم حرموا ما لم يحرمه الله تعالى .. فقال تعالى : (أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله) (٦٧) . وقال تعالى : (وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء ، أتقولون على الله ما لا تعلمون ؟ ! قل أمر ربى بالقسط . وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد ، وادعوه مخلصين له الدين) (٦٨) .

وكثير من الناس يفعل فى السماع وغيره ، ما هو من جنس الفواحش المحرمة ، وما يدعو إليها ، وزعمهم أن ذلك يصلح القلوب ، فهو مما أمر الله به ، فهؤلاء لهم نصيب من معنى هذه الآية . قال تعالى : (قل : من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل : هى للذين آمنوا فى الحياة

الدنيا ، خالصة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون ، قل : إنما حرم ربى الفواحش ، ما ظهر منها ، وما بطن ، والإثم ، والبغى ، بغير الحق، وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا ، وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون)(٦٩) .

* * *

سئل شيخ الإسلام ـ رحمه الله ـ
عن « السماع »

فأجاب : « السماع » الذى أمر الله به ورسوله ، واتفق عليه سلف الأمة ومشائخ الطريق : هو سماع القرآن ، فإنه سماع النبيين ، وسماع العالمين ، وسماع العارفين ، وسماع المؤمنين ، قال سبحانه وتعالى : (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا)(٧٠) . وقال تعالى : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا . ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) (٧١). وقال تعالى: (وإذا سمعوا ما أنزله إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق - يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين) (٧٢). وقال تعالى : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، وإذا تليت عليهم

آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون ، أولئك هم المؤمنون حقًا ، لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم)[٧٣] وقال سبحانه وتعالى : (وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون)[٧٤] وقال تعالى : (وإذ صرفنا إليك نفرًا من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا : أنصتوا فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين)[٧٥].

وقال سبحانه وتعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابًا متشابهًا ، مثانى، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله) [٧٦] وقال سبحانه وتعالى : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه)[٧٧]وهذا كثير فى القرآن .

وكما أثنى سبحانه وتعالى على هذا السماع ، فقد ذم المعرضين عنه ، كما قال : (وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون) [٧٨] ، وقال: (والذين إذا ذكّروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صماً وعميانا)[٧٩]، وقال سبحانه وتعالى : (فما لهم عن التذكرة معرضين ، كأنهم حمر مستنفرة) [٨٠] ، وقال سبحانه وتعالى:(ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه)[٨١] ، وقال : (إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ، ولو علم الله فيهم خيرًا لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون) [٨٢]، وقال سبحانه وتعالى: (وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبرًا كأن لم يسمعها كأن فى أذنيه وقرًا فبشره بعذاب أليم) [٨٣].

وهذا كثير فى كتاب الله وسنة رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وإجماع

المسلمين يمدحون من يقبل على هذا السماع ، ويحبه ويرغب فيه ويذمون من يعرض عنه ، ويبغضه ، ولهذا شرع الله للمسلمين في صلاتهم ولنفسهم، شرع سماع المغرب ، والعشاء الآخر .

وأعظم سماع في الصلوات سماع الفجر الذي قال الله فيه : (وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودًا) (٨٤)، وقال عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ يمدح النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

وفينا رسول الله يتلو كتابه ... إذا انشق معروف من الفجر ساطع
يبيت يجافي عن فراشه ... إذا استثقلت بالمشركين المضاجع
أرانا الهدى بعد العمى فقلوبنا ... به موقنات أن ما قال واقع

وهو مستحب لهم خارج الصلوات ، وروى عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « أنه خرج على أهل الصُّفَّة . وفيهم واحد يقرأ وهم يستمعون ، فجلس معهم » . وكان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذا اجتمعوا أمروا واحدًا منهم يقرأ والباقون يستمعون .

وكان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ يقول : يا أبا موسى ! ذَكِّرنا ربنا . فيقرأ وهم يستمعون . ومر النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأبي موسى وهو يقرأ : فجعل يستمع لقراءته . وقال : « لقد أوتي هذا مزمارا من مزامير داود » ، وقال : « يا أبا موسى ! لقد مررت بك البارحة وأنت تقرأ فجعلت استمع لقراءتك » فقال : لو علمت أنك تستمع لقراءتي لحبرته لك تحبيرًا أي : حسنته لك تحسينًا .

وقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » . «زينوا القرآن بأصواتكم » ، وقال : « لله أشد أذنا للرجل حسن الصوت ،

من صاحب القينة إلى قينته » وقوله : « ما آذن الله إذنًا » أى سمع سمعًا ، ومنه قوله : (أذنت لربها وحقت)[٨٥] أى سمعت ، والآثار فى هذه كثيرة .

وهذا سماع له آثار إيمانية من المعارف القدسية . والأحوال الزكية يطول شرحها ووصفها . وله فى الجسد آثار محمودة . من خشوع القلب ، ودموع العين ، واقشعرار الجلد ، وقد ذكر الله هذه الثلاثة فى القرآن . وكانت موجودة فى أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الذين أثنى عليهم فى القرآن ، ووجد بعدهم فى التابعين آثار ثلاثة : الاضطراب ، والاختلاج ، والإغماء ـ أو الموت ، والهيام : فأنكر السلف ذلك ـ إما لبدعتهم، وإما لحبهم .

وأما جمهور الأئمة والسلف فلا ينكرون ذلك ، فإن السبب إذا لم يكن محظورًا كان صاحبه فيما تولد عنه معذورًا ، لكن سبب ذلك قوة الوارد على قلوبهم ، وضعف قلوبهم عن حمله فلو لم يؤثر السماع لقسوتهم كانوا مذمومين، كما ذم الله الذين قال فيهم : (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) [٨٦] وقال: (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل . فطال عليهم الأمد ، فقست قلوبهم، وكثير منهم فاسقون)[٨٧] ولو أثر فيهم آثارًا محمودة لم يجذبهم عن حد العقل . فكانوا كمن أخرجهم إلى حد الغلبة كانوا محمودين أيضًا ومعذورين .

فأما سماع القاصدين لصلاح القلوب فى الاجتماع على ذلك : إما نشيد مجرد ، نظير الغبار ، وإما بالتصفيق ، ونحو ذلك ، فهو السماع المحدث فى الإسلام . فإنه أحدث بعد ذهاب القرون الثلاثة الذين أثنى عليهم النبى ـ

صلى الله عليه وسلم ـ حيث قال : « خير القرون : القرن الذى بعثت فيه ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم » وقد كرهه أعيان الأمة ولم يحضره أكابر المشايخ(٨٨) .

وقال الشافعي ـ رحمه الله ـ : خَلَّفْتُ ببغداد شيئًا أحدثته الزنادقة يسمونه التغبير يصدون به الناس عن القرآن .

وسئل عنه الإمام أحمد بن حنبل فقال : هو محدث أكرهه ، قيل له : إنه يرق عليه القلب . فقال : لا تجلسوا معهم . قيل له : أيهجرون ؟ فقال : لا يبلغ بهم هذا كله . فبين أنه بدعة لم يفعلها القرون الفاضلة ، لا فى الحجاز ، ولا فى الشام ، ولا فى اليمن ، ولا فى مصر ، ولا فى العراق ، ولا فى خراسان ، ولو كان للمسلمين به منفعة فى دينهم لفعله السلف .

ولم يحضره مثل : إبراهيم بن أدهم ، ولا الفضيل بن عياض ، ولا معروف الكرخى ، ولا السرى السقطى ، ولا أبو سليمان الدارانى ، ولا مثل الشيخ عبد القادر ، والشيخ عدى ، والشيخ أبى البيان ، ولا لشيخ حياة ، وغيرهم ، بل فى كلام طائفة من هؤلاء ـ كالشيخ عبد القادر وغيره ـ النهى عنه . وكذلك أعيان المشائخ .

وقد حضره من المشائخ طائفة ، وشرطوا له المكان ، والإمكان ، والخلان ، والشيخ الذى يحرس من الشيطان . وأكثر الذين حضروه من المشائخ الموثوق بهم رجعوا عنه فى آخر عمرهم . كالجنيد فإنه حضره وهو شاب وتركهم فى آخر عمره . وكان يقول : من تكلف السماع فتن به ، ومن صادفه السماع استراح به . فقد ذم من يجتمع له ، ورخص فيمن يصادفه من غير قصد ، ولا اعتماد للجلوس له .

وسبب ذلك أنه مجمل ليس فيه تفصيل . فإن الأبيات المتضمنة لذكر الحب والوصل والهجر والقطيعة والشوق والتتيم والصبر على العذل واللوم ونحو ذلك، هو قول مجمل ، يشترك فيه محب الرحمن ، ومحب الأوثان ، ومحب الإخوان ، ومحب الأوطان ، ومحب النسوان ، ومحب المردان ، فقد يكون فيه منفعة إذا هيج القاطن ، وأثار الساكن ، وكان ذلك مما يحبه الله ورسوله . لكن فيه مضرة راجحة على منفعته : كما في الخمر والميسر ، فإن فيهما إثم كبير ، ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما (٨٩).

فلهذا لم تأت به الشريعة ، لم تأت إلا بالمصلحة الخالصة أو الراجحة . وأما ما تكون مفسدته غالبة على مصلحته ، فهو بمنزلة من يأخذ درهمًا بدينار ، أو يسرق خمسة دراهم ، ويتصدق منها بدرهمين .

وذلك أنه يهيج الوجد المشترك ، فيثير من النفس كوامن تضره آثارها ، ويغذى النفس ويفتنها ، فتعتاض به عن سماع القرآن ، حتى لا يبقى فيها محبة لسماع القرآن ولا التذاذ به ، ولا استطابة له ، بل يبقى في النفس بغض لذلك ، واشتغال عنه ، كمن شغل نفسه بتعلم التوراة والإنجيل وعلوم أهل الكتاب ، والصابئين واستفادته العلم والحكمة منها ، فأعرض بذلك عن كتاب الله وسنة رسوله (٩٠)إلى أشياء أخرى تطول .

فلما كان هذا السماع لا يعطي بنفسه م يحبه الله ورسوله من الأحوال والمعارف ، بل قد يصد عن ذلك ، ويعطى ما لا يحبه الله ورسوله . أو ما يبغضه الله ورسوله ، لم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا سلف الأمة ولا أعيان مشائخها .

ومن نكته أن الصوت يؤثر في النفس بحسنه : فتارة يفرح ، وتارة

يحزن ، وتارة يغضب ، وتارة يرضى ، وإذا قوى أسكر الروح فتصير في لذة مطربة من غير تمييز . كما يحصل للنفس إذا سكرت بالرقص ، وللجسد أيضًا إذا سكر بالطعام والشراب ، فإن السكر هو الطرب الذي يؤثر لذة بلا عقل ، فلا تقوم منفعته بتلك اللّذة بما يحصل من غيبة العقل ، التي صدت عن ذكر الله وعن الصلاة، وأوقعت العداوة والبغضاء .

و « بالجملة » فعلى المؤمن أن يعلم : أن النبي – صلى الله عليهم وسلم – لم يترك شيئًا يقرب إلى الجنة إلا وقد حدّث به ، ولا شيئًا يبعد عن النار إلا وقد حدّث به ، وأن هذا السماع لو كان مصلحة لشرعه الله ورسوله ، فإن الله يقول : (اليوم أكملت لكم دينكم . وأتممت عليكم نعمتي . ورضيت لكم الإسلام دينا) (٩١)، وإذا وجد فيه منفعة لقلبه ، ولم يجد شاهد ذلك ، لا من الكتاب ولا من السنة ، لم يلتفت إليه .

قال سهل بن عبد الله التسترى(٩٢) : كل وجد لا يشهد له الكتاب والسنة فهو باطل .

وقال أبو سليمان الداراني : إنه لَتُلِمّ بقلبي النكتة مع نكت القوم فلا أقبلها إلا بشاهدين عدلين : الكتاب ، والسنة . وقال أبو سليمان أيضًا : ليس لمن ألهم شيئًا من الخير أن يفعله ، حتى يجد فيه أثرًا ، فإذا وجد فيه أثرًا كان نورًا على نور .

وقال الجنيد بن محمد : علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يقرأ القرآن ، ولم يكتب الحديث ، لا يصلح له أن يتكلم في علمنا (٩٣).

و « أيضًا » فإن الله يقول في الكتاب : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) (٩٤)قال السلف من الصحابة والتابعين : « المكاء » كالصفير

ونحوه ، من التصويت ، مثل الغناء ، و « التصدية » : التصفيق باليد ، فقد أخبر الله عن المشركين أنهم كانوا يجعلون التصدية والغناء لهم صلاة ، وعبادة ، وقربة ، يعتاضون به عن الصلاة التى شرعها الله ورسوله .

أما المسلمون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان : فصلاتهم وعبادتهم القرآن ، واستماعه ، والركوع والسجود ، وذكر الله ودعاؤه ، ونحو ذلك مما يحبه الله ورسوله ، فمن اتخذ الغناء والتصفيق عبادة وقربة فقد ضاهى المشركين فى ذلك ، وشابههم فيما ليس من فعل المؤمنين : المهاجرين والأنصار ، فإن كان يفعله فى بيوت الله فقد زاد فى مشابهته أكبر وأكبر ، واشتغل به عن الصلاة ، وذكر الله ودعائه ، فقد عظمت مشابهته لهم ، وصار له كفل عظيم من الذى دل عليه قوله سبحانه وتعالى : (وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية) .

لكن قد يغفر له ذلك لاجتهاده ، أو لحسنات ماحية ، أو غير ذلك ، فيما يفرق فيه (بين) المسلم والكافر ، لكن مفارقته للمشركين فى غير هذا لا يمنع أن يكون مذمومًا خارجًا عن الشريعة ، داخلاً فى البدعة التى ضاهى بها المشركين ، فينبغى للمؤمن أن يتفطن لهذا ، ويفرق بين سماع المؤمنين الذى أمر الله به ورسوله ، وسماع المشركين الذى نهى الله عنه ورسوله .

ويعلم أن هذا السماع المحدث هو من جنس سماع المشركين ، وهو إليه أقرب منه إلى سماع المسلمين ، وإن كان قد غلط فيه قوم من صالحى المسلمين. فإن الله لا يضيع أجرهم وصلاحهم ، لما وقع من خطائهم ، فإن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد الحاكم فأخطأ فله أجر واحد » .

وهذا كما أن جماعة من السلف قاتلوا أمير المؤمنين عليًّا بتأويل ، وعلى ابن أبي طالب وأصحابه أولى بالحق منهم ، وقد قال فيهم : مَن قصد الله فله الجنة .

وجماعة من السلف والخلف استحلوا بعض الأشربة بتأويل ـ وقد ثبت بالكتاب والسنة تحريم ما استحلوه ـ وإن كان خطؤهم مغفورًا لهم .

والذين حضروا هذا السماع من المشائخ الصالحين شرطوا له شروطًا لا توجد إلا نادرًا ، فعامة هذه السماعات خارجة عن إجماع المشائخ ، ومع هذا فاخطئوا ـ والله يغفر لهم خطأهم فيما خرجوا به عن السنة ـ وإن كانوا معذورين .

والسبب الذى أخطأوا فيه أوقع أممًا كثيرة فى المنكر الذى نهوا عنه ، وليس للعالمين شرعه ولا منهاج ، ولا شريعة ولا طريقة أكمل من الشريعة التى بعث الله بها نبيه محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما كان يقول فى خطبته : « خير الكلام كلام الله ، وخير الهدى هدى محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ » .

وأما « الرقص » فلم يأمر الله به ولا رسوله ، ولا أحد من الأئمة ، بل قد قال الله فى كتابه : (واقصد فى مشيك) (٩٥) وقال فى كتابه : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونًا) (٩٦) أى : بسكينة ، ووقار .

وإنما عبادة المسلمين الركوع والسجود ، بل الدف والرقص فى الطابق لم يأمر الله به ولا رسوله (٩٧) ، ولا أحد من سلف الأمة ، بل أمروا بالقرآن فى الصلاة ، والسكينـة .

ولو ورد على الإنسان حال يُغلب فيها حتى يخرج إلى حالة خارجة عن

المشروع ، وكان ذلك الحال بسبب مشروع . كسماع القرآن ونحوه ، سلم إليه ذلك الحال كما تقدم ، فأما إذا تكلف من الأسباب ما لم يؤمر به ، مع علمه بأنه يوقعه فيما لا يصلح له : مثل شرب الخمر ، مع علمه أنها تسكره ، وإذا قال : ورد على الحال ، وأنا سكران ، قيل له : إذا كان السبب محظورًا ، لم يكن السكران معذورًا .

فهذه الأحوال الفاسدة من كان فيها صادقًا فهو مبتدع ، ضال ، من جنس خفراء العدو ، وأعوان الظلمة ، من ذوى الأحوال الفاسدة الذين ضارعوا عباد النصارى ، والمشركين ، والصابئين ، فى بعض ما لهم من الأحوال ، ومن كان كاذبًا فهو منافق ضال .

قال سيد المسلمين فى وقته ـ الفضيل بن عياض ـ فى قوله تعالى : (ليبلوكم أيكم أحسن عملا) (٩٨) قال : أخلصه ، وأصوبه ، قيل له : يا أبا على ما أخلصه ؟ وأصوبه ؟ . قال : إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا ، والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السنة .

وكان يقول : من وقرّ صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام . ومن زوج كريمته لصاحب بدعة فقد قطع رحمها ، ومن انتهر صاحب بدعة ملأ الله قلبه أمنًا وإيمانًا ، وأكثر إشارته واشارات غيره من المشائخ بالبدعة إنما هى إلى البدع فى العبادات والأحوال ، كما قال عن النصارى (ورهبانية ابتدعوها ما كتبناها عليهم) (٩٩)، وقال ابن مسعود : « عليكم بالسبيل والسنة ، فإنه ما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليًا فاقشعر جلده ، من مخافة الله ، الا تحاتت (١٠٠) عنه خطاياه كما يتحات الورق اليابس عن

الشجرة ، وما من عبد على السبيل والسنة ذكر الله خاليًا فدمعت عيناه من خشية الله إلا لم تمسه النار أبدًا ، وإن اقتصادًا فى سبيل وسنة خير من اجتهاد فى خلاف سبيل وسنة ، فاحرصوا أن تكون أعمالكم - إن كانت اجتهادًا أو اقتصادًا - على منهاج الأنبياء ، وسنتهم . وأما قول القائل : هذه شبكة يصاد بها العوام ، فقد صدق ، فإن أكثرهم إنما يتخذون ذلك شبكة لأجل الطعام ، والتوانس على الطعام . كما قال الله فيهم : (يا أيها الذين آمنوا إن كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) (١٠١) ومن فعل هذا فهو من أئمة الضلال ، الذين قيل فى رءوسهم : (يوم تقلب وجوههم فى النار يقولون : ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا . وقالوا : ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنًا كبيرًا) (١٠٢).

وأما الصادقون منهم : فهم يتخذونه شبكة ، لكن هى شبكة مخرقة ، يخرج منها الصيد إذا دخل فيها ، كما هو الواقع كثيرًا ، فإن الذين دخلوا فى السماع المبتدع فى الطريق ، ولم يكن معهم أصل شرعى شرعه الله ورسوله ، أورثتهم أحوالاً فاسدة (١٠٣).

وإلى عبادته ومحبته ، وطاعته ، والرغبة إليه ، والتبتل له والتوكل عليه أحسن من الإسلامية ، والشريعة القرآنية ، والمناهج الموصلة الحقيقة الجامعة لمصالح الدنيا والآخرة .

وإذا كان غير مشروع ، ولا مأمور به ، فالتطهر ، أو الإنصات له ، واستفتاح باب الرحمة ، هو من جنس عادة الرهبان ، ليس من عبادة أهل الإسلام ، والإيمان، ولا عبادة أهل القرآن ، ولا من أهل السنة والإحسان ، والحمد لله وحده.

سُئِل

عمن قال : إن السماع على الناس حرام وعلىّ حلال ، هل يفسق في ذلك أم لا ؟ .

فأجاب : ـ رضي الله عنه ـ من ادعى أن المحرمات تحريماً عامًا ، كالفواحش ، والظلم ، والملاهي ، حرام على الناس حلال له فإنه يستتاب ، فإن تاب وإلا قتل ، ومن ادعى في الدفوف والشبّاب [١٠٤] أنهما حرام على بعض الناس دون بعض فهذا مخالف للسنة ، والإجماع ، وأئمة الدين ، وهو ضال من الضُّلاّل . ومن تم مصرًا على مثل ذلك كان فاسقًا .

والله أعلم .

* * *

سُئِل

عن أقوام يرقصون على الغناء بالدف ، ثم يسجد بعضهم لبعض على وجه التواضع . هل هذا سنة ؟ أو فعله الشيوخ الصالحون ؟ .

الجواب : لا يجوز السجود لغير الله ، واتخاذ الضرب بالدف والغناء والرقص عبادة هو من البدع التي لم يفعلها سلف الأمة ، ولا أكابر شيوخها ، كالفضيل بن عياض وإبراهيم بن أدهم ، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي[١٠٥]، والسري السقطي ، وغير هؤلاء .

وكذلك أكابر الشيوخ المتأخرين مثل : الشيخ عبد القادر ، والشيخ عدي[١٠٦]، والشيخ أبي مدين [١٠٧] ، والشيخ أبي البيان ، وغير هؤلاء ، فإنهم لم يحضروا « السماع البدعي » ، بل كانوا يحضرون « السماع الشرعي » سماع الأنبياء ، وأتباعهم ، كسماع القرآن .

والله أعلم .

سُئل شيخ الإسلام :

عن رجل يحب السماع والرقص ، فأشار عليه رجل ، فقال هذه الأبيات:

أنكروا رقصاً وقالوا حرام — فعليهم من أجل ذاك سلام
أعبد الله يا فقيه ، وصل — والزم الشرع فالسماع حرام
بل حرام عليك ، ثم حلال — عند قوم أحوالهم لا تلام
مثل قوم صفو وبان لهم من — جانب الطور جذوة وكلام
فإذا قوبل السماع بلهو — فحرام على الجميع حرام

فأجاب :

الحمد لله رب العالمين ، هذا الشعر يتضمن منكرا من القول وزورا ، بل أوله يتضمن مخالفة الشريعة ، وآخره يفتح باب الزندقة والإلحاد ، والمخالفة للحقيقة الإلـهية الدينية النبوية ، وذلك أن قول القائل :

مثل قوم صفوا وبان لهم من — جانب الطور جذوة وكلام

يتضمن تمثيل هؤلاء بموسى بن عمران ، الذي نودى من جانب الطور.. ولما رأى النار (قال لأهله : امكثوا ، إنى آنست نارًا، لعلى آتيكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلكم تصطلون) (١٠٨).

وهذا قول طائفة من الناس ، يسلكون طريق الرياضة والتصفية ، ويظنون أنهم بذلك يصلون إلى أن يخاطبهم الله ، كما خاطب موسى بن عمران ، وهؤلاء ثلاثة أصناف :

« **صنف** » يزعمون أنهم يخاطبون بأعظم مما خوطب به موسى بن عمران ، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الوحدة والاتحاد ، القائلين بأن الوجود واحد ، كصاحب « الفصوص » (١٠٩) وأمثاله .

فإن هؤلاء يدعون أنهم أعلى من الأنبياء ، وأن الخطاب الذى يحصل لهم

من الله أعلى مما يحصل لإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ـ عليهم الصلاة والسلام ـ ومعلوم أن هذا الكفر أعظم من كفر اليهود والنصارى ، الذين يفضلون الأنبياء على غيرهم ، لكن يؤمنون ببعض الأنبياء ، ويكفرون ببعض .

و « **النوع الثانى** » من يقول إن الله يكلمه مثل كلام موسى بن عمران ، كما يقول ذلك من يقوله من المتفلسفة والمتصوفة ، الذين يقولون : إن تكليم موسى فيض فاض على قلبه من العقل الفعال ، ويقولون : إن النبوة مكتسبة .

و « **النوع الثالث** » الذين يقولون : إن موسى أفضل ، لكن صاحب الرياضة قد يسمع الخطاب الذى سمعه موسى ، ولكن موسى مقصودًا بالتكليم دون هذا ، كما يوجد هذا فى أخبار صاحب (مشكاة الأنوار) (١١٠) وكذلك سلك مسلكه صاحب « خلع النعلين » (١١١) وأمثالهما .

وأما قوله فى أول الشعر لمن يخاطبه : « الزم الشرع يا فقيه وصل » ، يشعر بأنك أنت تبع الشرع ، وأما نحن فلنا إلى الله طريق غير الشرع ، ومن ادعى أن له طريقًا إلى الله يوصله إلى رضوان الله وكرامته وثوابه غير الشريعة التى بعث الله بها رسوله ، فإنه أيضا كافر ، يستتاب ، فإن تاب ، وإلا ضربت عنقه ، كطائفة اسقطوا التكليف وزعموا أن العبد يصل إلى الله بلا متابعة الرسل .

و « **طائفة** » يظنون أن الخواص من الأولياء يستغنون عن متابعة محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما استغنى الخضر عن متابعة موسى ، وجهل هؤلاء أن موسى لم يكن مبعوثًا إلى الخضر ، ومحمد ـ صلى الله عليه

وسلم ـ رسول إلى كل أحد ظاهرًا وباطنًا ، مع أن قضية الخضر لم تخالف شريعة موسى ، بل وافقتها ، ولكن الأسباب المبيحة للفعل لم يكن موسى علمها ، فلما علمها تبين أن الأفعال توافق شريعته لا تخالفها .

* * *

وسُئِل شيخ الإسلام :

علاّمة الزمان ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن تيمية الحراني ـ رضي الله عنه ـ .

عن « جماعة » يجتمعون على قصد الكبائر : من القتل ، وقطع الطريق ، والسرقة وشرب الخمر ، وغير ذلك . ثم إن شيخًا من المشائخ المعروفين بالخير واتباع السنة قصد منع المذكورين من ذلك ، فلم يمكنه إلا أن يقيم لهم سماعًا يجتمعون فيه بهذه النية ، وهو بدف بلا صلاصل ، وغناء المغنى بشعر مباح بغير شَبّابة ، فلما فعل هذا تاب منهم جماعة ، وأصبح من لا يصلي ويسرق ولا يزكي يتورع عن الشبهات ، ويؤدي المفروضات ، ويجتنب المحرمات ، فهل يباح فعل هذا السماع لهذا الشيخ على هذا الوجه ، لما يترتب عليه من المصالح ؟ . مع أنه لا يمكنه دعوتهم إلا بهذا ؟.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين .

أصل جواب هذه المسألة وما أشبهها : أن يُعْلَم أن الله بعث محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالهدى ، ودين الحق ، ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا . وأنه أكمل له ولأمته الدين ، كما قال تعالى : (اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتي ، ورضيت لكم الإسلام دينا) (١١٢) . وأنه بَشَّرَ بالسعادة لمن أطاعه والشقاوة لمن عصاه . فقال تعالى : (ومن يطع

الله والرسول أولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا) (١١٣) . وقال تعالى : (ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبدا) (١١٤).

وأمر الخلق أن يردوا ما تنازعوا فيه من دينهم إلى ما بعثه به ، كما قال تعالى : (يأيُّها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) (١١٥) وأخبر أنه يدعو إلى الله وإلى صراطه المستقيم ، كما قال تعالى : (قل هذه سبيلى أدعوا إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى) (١١٦) . وقال تعالى : (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض . ألا إلى الله تصير الأمور) (١١٧).

وأخبر أنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحل الطيبات ، ويحرم الخبائث . كما قال تعالى : (ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون . الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبًا عندهم فى التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر . ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث . ويضع عنهم إصرهم . والأغلال التى كانت عليهم . فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أُنزل معه أولئك هم المفلحون) (١١٨).

وقد أمر الله الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ بكل معروف ونهى عن كل منكر . وأحل كل طيب . وحرم كل خبيث . وثبت عنه ـ صلى الله عليه وسلم، فى الصحيح أنه قال : « ما بعث الله نبيًا إلا كان حقًا عليه أن يدخل أمته على خير ما يعلمه لهم ، وينهاهم عن شر ما يعلمه لهم » . وثبت عن العرباض

ابن سارية قال : « وعظنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ موعظة وجلت منها القلوب ، وذرفت منها العيون قال : فقلنا : يا رسول الله ! كأن هذه موعظة مودع ، فإذًا تَعْهَدُ إلينا ، فقال : أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه من يعش منكم بعدى فسيرى اختلافًا كبيرًا . فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهتدين من بعدى ، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فإن كل بدعة ضلالة » وثبت عنه ـ صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « ما تركت من شيء يبعدكم عن النار إلا وقد حدثتكم به » . وقال: « تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك ».

وشواهد هذا « الأصل العظيم الجامع » ، من الكتاب والسنة كثيرة ، وترجم عليه أهل العلم فى الكتب ، (كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة) كما ترجم عليه البخارى والبغوى (١١٩) وغيرهما . فمن اعتصم بالكتاب والسنة كان من أولياء الله المتقين ، وحزبه المفلحين ، وجنده الغالبين ، وكان السلف ـ كمالك وغيره ـ يقولون : السنة كسفينة نوح ، من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق ، وقال الزهرى(١٢٠) : كان من مضى من علمائنا يقولون : الاعتصام بالسنة نجاة .

إذا عرف هذا فمعلوم أن ما يهدى الله به الضالين ويرشد به الغاوين ويتوب به على العاصين ، لابد أن يكون فيما بعث الله به رسوله من الكتاب والسنة . وإلا فإنه لو كان ما بعث الله به الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ لا يكفى فى ذلك ، لكان دين الرسول ناقصًا ، محتاجًا تتمة ، وينبغى أن يعلم أن الأعمال الصالحة أمر الله بها أمر إيجاب أو استحباب . والأعمال الفاسدة نهى الله عنها .

والعمل إذا اشتمل على مصلحة ومفسدة ، فإن الشارع حكيم ، فإن غلبت مصلحته على مفسدته شرعه ، وإن غلبت مفسدته على مصلحته لم يشرعه ، بل نهى عنه ، كما قال تعالى : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم ؛ وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئًا وهو شر لكم، والله يَعْلَمُ وأنتم لا تعلمون) (١٢١) وقال تعالى : (يسألونك عن الخمر والميسر ، قل : فيهما إثم كبير ومنافع للناس وَإِثْمُهُمَا أكبر من نفعهما)(١٢٢) ولهذا حرمهما الله تعالى بعد ذلك .

وهكذا ما يراه الناس من الأعمال مقربًا إلى الله ، ولم يشرعه الله ورسوله، فإنه لابد أن يكون ضرره أعظم من نفعه . وإلا فلو كان نفعه أعظم غالبًا على ضرره لم يهمله الشارع ، فإنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ حكيم ، لا يهمل مصالح الدين ، ولا يفوت المؤمنين ما يقربهم إلى رب العالمين .

إذا تبين هذا فنقول للسائل : إن الشيخ المذكور قصد أن يتوب المجتمعين على الكبائر ، فلم يمكنه ذلك إلا بما ذكره من الطريق البِدْعِيّ . يدل أن الشيخ جاهل بالطرق الشرعية التى بها تتوب العصاة ، أو عاجز عنها ، فإن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ والصحابة والتابعين كانوا يدعون من هو شر من هؤلاء من أهل الكفر والفسوق والعصيان بالطرق الشرعية ، التى أغناهم الله بها عن الطرق البِدْعِيَّة .

فلا يجوز أن يقال : أنه ليس فى الطرق الشرعية التى بعث الله بها نبيه ما يتوب به العصاة ، فإنه قد علم بالاضطرار والنقل المتواتر أنه قد تاب من الكفر والفسوق والعصيان من لا يحصيه إلا الله تعالى من الأمم بالطرق الشرعية ، التى ليس فيهما ما ذكر من الاجتماع البدعى ، بل السابقون

الأولون من المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان ـ وهم خير أولياء الله المتقين ، من هذه الأمة ـ تابوا إلى الله تعالى بالطرق الشرعية ، لا بهذه الطرق البدعية ، وأمصار المسلمين ، وقراهم قديماً وحديثًا مملوءة ممن تاب إلى الله واتقاه ، وفعل ما يحبه الله ويرضاه بالطرق الشرعية ، لا بهذه الطرق البدعية .

فلا يمكن أن يقال : إن العصاة لا تمكن توبتهم إلا بهذه الطرق البدعية ، بل قد يقال : إن فى الشيوخ من يكون جاهلاً بالطرق الشرعية ، عاجزًا عنها ، ليس عنده علم بالكتاب والسنة ، وما يخاطب به الناس ويسمعهم إياه ، مما يتوب الله به عليهم ، فيعدل هذا الشيخ عن الطرق الشرعية إلى الطرق البدعية، إما مع حسن القصد ، إن كان له دين ، وإما أن يكون غرضه الترأس عليهم ، وأخذ أموالهم بالباطل ، كما قال تعالى : (يأيُّها الذين آمنوا إن كثيْرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) (١٢٣) فلا يعدل أحد عن الطرق الشرعية إلى البدعية إلا لجهل ، أو عجز ، أو غرض فاسد ، وإلا فمن المعلوم أن سماع القرآن هو سماع النبيين والعارفين والمؤمنين . قال تعالى فى النبيين : (أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذرية آدم وممن حملنا مع نوح ، ومن ذرية إبراهيم وإسرائيل ، وممن هدينا واجتبينا ، إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سجدا وبكيا) (١٢٤) وقال تعالى فى أهل المعرفة : (وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع ، مما عرفوا من الحق)(١٢٥) . وقال تعالى فى حق أهل العلم : (إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا . ويقولون : سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا) (١٢٦) . وقال فى المؤمنين : (إنما

المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون . الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون . أولئك هم المؤمنون حقا)(١٢٧). وقال تعالى : (الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثاني تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . ثم تلين جلودهم . وقلوبهم إلى ذكر الله . ذلك هدى الله)(١٢٨).

وبهذا السماع هدى الله العباد . وأصلح لهم أمر المعاش والمعاد ، وبه بعث الرسول - صلى الله عليه وسلم - وبه أمر المهاجرين والأنصار ، والذين اتبعوهم بإحسان . وعليه كان يجتمع السلف .

وقول السائل وغيره : هل هو حلال ؟ أو حرام ؟ لفظ مجمل فيه تلبيس ، يشتبه الحكم فيه ، حتى لا يحسن كثير من المفتين تحرير الجواب فيه ، وذلك أن الكلام في السماع وغيره من الأفعال على ضربين :

أحدهما : أنه هل هو محرم ؟ أو غير محرم ؟ . بل يفعل كما يفعل سائر الأفعال التي تلتذ بها النفوس . وإن كان فيها نوع من اللهو واللعب كسماع الأعراس ، وغيرها ، مما يفعله الناس لقصد اللذة واللهو ، لا لقصد العبادة والتقرب إلى الله .

النوع الثاني : أن يفعل على وجه الديانة ، والعبادة ، وصلاح القلوب وتجريد حب العباد لربهم ، وتزكية نفوسهم ، وتطهير قلوبهم ، وأن تحرك من القلوب الخشية ، والإنابة ، والحب ، ورقة القلوب ، وغير ذلك مما هو من جنس العبادات والطاعات ، لا من جنس اللعب والملهيات .

فيجب الفرق بين سماع المتقربين ، وسماع المتلعبين ، و بين السماع الذي يفعله الناس في الأعراس ، والأفراح ، ونحو ذلك من العادات ، وبين السماع الذي يفعل لصلاح القلوب ، والتقرب إلى رب السموات ، فإن هذا يسأل عنه:

هل هو قربة وطاعة ؟ وهل هو طريق إلى الله ؟ وهل لهم بد من أن يفعلوه لما فيه من رقة قلوبهم ، وتحريك وجدهم لمحبوبهم ، وتزكية نفوسهم ، وإزالة القسوة عن قلوبهم ، ونحو ذلك من المقاصد التى تقصد بالسماع ؟ . كما أن النصارى يفعلون مثل هذا السماع فى كنائسهم على وجه العبادة والطاعة ، لا على وجه اللهو واللعب .

إذا عرف هذا فحقيقة السؤال : هل يباح للشيخ أن يجعل هذه الأمور التى هى : إما محرمة ؟ أو مكروهة ؟ أو مباحة ؟ قربة وعبادة وطاعة ، وطريقة إلى الله يدعو بها إلى الله ، ويتوب به العاصين ، ويرشد به الغاوين ، ويهدى به الضالين ؟ .

ومن المعلوم أن الدين له « أصلان » فلا دين إلا ما شرع الله ، ولا حرام إلا ما حرمه الله . والله تعالى عاب على المشركين أنهم حرموا ما لم يحرمه الله ، وشرعوا دينا لم يأذن به الله .

ولو سئل العالم عمن يعدو بين جبلين : هل يباح له ذلك ؟ . قال : نعم ، فإذا قيل : إنه على وجه العبادة كما يسعى بين الصفا والمروة ، قال : إن فعله على هذا الوجه حرام منكر ، يستتاب فاعله ، فإن تاب وإلا قتل .

ولو سئل : عن كشف الرأس ، ولبس الإزار والرداء ، أفتى بأن هذا جائز. فإذا قيل : إنه يفعله على وجه الإحرام ، كما يحرم الحاج قال : إن هذا حرام منكر .

ولو سئل : عمن يقوم فى الشمس . قال : هذا جائز . فإذا قيل : إنه يفعله على وجه العبادة . قال : هذا منكر . كما روى البخارى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ « أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، رأى رجلا قائما فى الشمس . فقال : من هذا ؟ . قالوا : هذا أبو إسرائيل يريد أن يقوم فى

الشمس ، ولا يقعد ، ولا يستظل ، ولا يتكلم . فقال النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ مروه فليتكلم ، وليجلس ، وليستظل ، وليتم صومه » فهذا لو فعله لراحة ، أو غرض مباح لم ينه عنه : لكن لما فعله على وجه العبادة نهى عنه .

وكذلك لو دخل الرجل إلى بيته من خلف البيت ، لم يحرم عليه ذلك ، ولكن إذا فعل ذلك على أنه عبادة ، كما كانوا يفعلون فى الجاهلية : كان أحدهم إذا أحرم لم يدخل تحت سقف . فنهوا عن ذلك ، كما قال تعالى : (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ، ولكن البر من اتقى ، وأتوا البيوت من أبوابها) (١٢٩) فبين سبحانه أن هذا ليس ببر ، وإن لم يكن حراما . فمن فعله على وجه البر والتقرب إلى الله كان عاصيا ، مذموما ، مبتدعا ، والبدعة أحب إلى إبليس من المعصية ، لأن العاصى يعلم أنه عاص فيتوب ، والمبتدع يحسب أن الذى يفعله طاعة فلا يتوب .

ولهذا من حضر السماع للعب واللهو ، لا يعده من صالح عمله ، ولا يرجو به الثواب ، وأما من فعله على أنه طريق إلى الله تعالى فإنه يتخذه دينا ، وإذا نُهى عنه كان كمن نُهى عن دينه ، ورأى أنه قد انقطع عن الله ، وحُرم نصيبه من الله تعالى إذا تركه . فهؤلاء ضلال باتفاق علماء المسلمين ولا يقول أحد من أئمة المسلمين : إن اتخاذ هذا دينا وطريقا إلى الله تعالى أمر لإجماع المسلمين ، ومن نظر إلى ظاهر العمل وتكلم عليه ، ولم ينظر إلى فعل العامل ونيته كان جاهلا متكلما فى الدين بلا علم .

فالسؤال عن مثل هذا أن يقال : هل ما يفعله هؤلاء طريق وقربة وطاعة لله تعالى يحبها الله ورسوله أم لا ؟ . وهل يثابون على ذلك أم لا ؟ وإذا لم يكن هذا قربه وطاعة وعبادة لله ، ففعلوه على أنه قربة . وطاعة وعبادة وطريق إلى الله تعالى . هل يحل لهم هذا الاعتقاد ؟ . وهذا العمل على هذا الوجه ؟

وإذا كان السؤال على هذا الوجه لم يكن للعالم المتبع للرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يقول : إن هذا من القُرَب والطاعات ، وأنه من أنواع العبادات ، وأنه من سبيل الله تعالى وطريقه الذى يدعو به هؤلاء إليه ، ولا أنه مما أمر الله تعالى به عبادة : لا أمر إيجاب ، ولا أمر استحباب ، وما لم يكن من الواجبات والمستحبات فليس هو محمودا ، ولا حسنة ، ولا طاعة ، ولا عبادة ، باتفاق المسلمين .

فمن فعل ما ليس بواجب ، ولا مستحب على أنه من جنس الواجب أو المستحب فهو ضال مبتدع ، وفعله على هذا الوجه حرام بلا ريب ، لاسيما كثير من هؤلاء الذين يتخذون هذا السماع المحدث طريقا يقدمونه على سماع القرآن وَجْدًا وذوقا ، وربما قدموه عليه اعتقادا ، فتجدهم يسمعون القرآن بقلوب لاهية ، وألسن لاغية ، وحركات مضطربة ، وأصوات لا تقبل عليه قلوبهم ، ولا ترتاح إليه نفوسهم ، فإذا سمعوا « المكاء » و « التصدية » أصغت القلوب ، واتصل المحب بالمحبوب (١٢٠) . وخشعت الأصوات ، وسكنت الحركات ، فلا سعلة ، ولا عطاس ، ولا لغط ، ولا صياح ، وإن قرأوا شيئا من القرآن ، أو سمعوه كان على وجه التكلف والسخرة ، كما لا يسمع الإنسان ما لا حاجة له به ولا فائدة له فيه ، حتى إذا ما سمعوا مزمار الشيطان أحبوا ذلك ، وأقبلوا عليه ، وعكفت أرواحهم عليه .

فهؤلاء جند الشيطان ، وأعداء الرحمن ، وهم يظنون أنهم من أولياء الله المتقين . وحالهم ، أشبه بحال أعداء الله المنافقين ، فإن المؤمن يحب ما أحبه الله تعالى ، ويبغض ما أبغض الله تعالى ، ويوالى أولياء الله ، ويعادى أعداء الله، وهؤلاء يحبون ما أبغض الله ، ويبغضون ما أحب الله ، ويوالون أعداء الله ، ويعادون أولياءه ، ولهذا يحصل لهم تنزلات شيطانية بحسب ما فعلوه من

مزامير الشيطان ، وكلما بعدوا عن الله ورسوله وطريق المؤمنين قربوا من أعداء الله ورسوله وجند الشيطان .

فيهم من يطير في الهواء والشيطان طائر به ، ومنهم من يصرع الحاضرين وشياطينه تصرعهم ، وفيهم من يحضر طعاما ، وإداما ويملأ الإبريق من الهواء والشياطين فعلت ذلك . فيحسب الجاهلون أن هذه من كرامات أولياء الله المتقين ، وإنما هي من جنس أحوال الكهنة والسحرة وأمثالهم من الشياطين ومن يميز بين الأحوال الرحمانية والنفسانية والشيطانية لا يشتبه عليه الحق بالباطل .

سُئِل شيخ الإسلام

عمن يقول : إن بعض المشائخ إذا أقام السماع يحضره رجال الغيب ، وينشق السقف والحيطان ، وتتنزل الملائكة ترقص معهم ، أو عليهم . وفيهم من يعتقد أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحضر معهم . فماذا يجب على من يعتقد هذا الاعتقاد ؟ و ما هي صفة رجال الغيب ؟ .

فأجاب : وأما من زعم : أن الملائكة أو الأنبياء تحضر « سماع المكاء والتصدية » محبة ورغبة فيه فهو كاذب مفتر ، بل إنما تحضره الشياطين ، وهي التي تتنزل عليهم ، وتنفخ فيهم ، كما روى الطبراني وغيره عن ابن عباس مرفوعا إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « إن الشيطان قال : يارب اجعل لي بيتا . قال : بيتك الحمام . قال : اجعل لي قرآنا . قال : قرآنك الشعر . قال : يارب اجعل لي مؤذنا . قال : مؤذنك المزمار » وقد قال الله تعالى في كتابه

مخاطبا الشيطان : (واستفزز من استطعت منهم بصوتك)(١٣١) ، وقد فسر ذلك طائفة من السلف بصوت الغناء ، وهو شامل له ولغيره من الأصوات المستفزة لأصحابها عن سبيل الله . وروى عن النبي - صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « إنما نهيت عن صوتين أحمقين فاجرين : صوت لهو ، ولعب ، ومزامير الشيطان ، وصوت لطم خدود أو شق جيوب ودعاء بدعوى الجاهلية » (١٣٢) كقولهم : والهفاه ! واكبداه ! وانصيراه ! .

وقد كوشف جماعات من أهل المكاشفات بحضور الشياطين في مجامع السماع الجاهلية : ذات المكاء ، والتصدية . وكيف يكر الشيطان عليهم حتى يتواجدوا الوجد الشيطاني ، حتى إن بعضهم صار يرقص فوق رؤوس الحاضرين ، ورأى بعض المشائخ المكاشفين أن شيطانه قد احتمله حتى رقص به ، فلما صرخ بشيطانه هرب ، وسقط ذلك الرجل .

وهذه الأمور لها أسرار ، وحقائق لا يشهدها إلا أهل البصائر الإيمانية والمشاهد الإيمانية ، ولكن من اتبع ما جاءت به الشريعة ، وأعرض عن سبيل المبتدعة ، فقد حصل له الهدى ، وخير الدنيا والآخرة ، وإن لم يعرف حقائق الأمور بمنزلة من سلك السبيل إلى مكة خلف الدليل الهادى ، فإنه يصل إلى مقصوده ، ويجد الزاد والماء في مواطنه ، وإن لم يعرف كيف يصل ذلك وسببه ، ومن سلك خلف غير الدليل الهادى : كان ضالا عن الطريق . فإما أن يهلك وإما أن يشقى مدة ثم يعود إلى الطريق .

و « الدليل الهادى » هو الرسول الذى بعثه الله إلى الناس بشيرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا وهاديا إلى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما في السموات وما في الأرض .

وآثار الشيطان تظهر فى أهل السماع الجاهلى : مثل الإزباد ، والإرغاء ، والصراخات المنكرة ، ونحو ذلك مما يضارع أهل الصرع الذين يصرعهم الشيطان . ولذلك يجدون فى نفوسهم من ثوران مراد الشيطان بحسب الصوت : إما وَجْدٌ فى الهوى المذموم ، وإما غضب وعدوان على من هو مظلوم ، وإما لطم وشق ثياب وصياح كصياح المحزون المحروم ، إلى غير ذلك من الآثار الشيطانية التى تعترى أهل الاجتماع على شرب الخمر إذا سكروا بها . فإن السكر بالأصوات المطربة قد يصير من جنس السكر بالأشربة المطربة ، فيصدهم عن ذكر الله وعن الصلاة ، ويمنع قلوبهم حلاوة القرآن ، وفهم معانيه ، واتباعه فيصيرون مضارعين للذين يشترون لهو الحديث ليضلوا عن سبيل الله ويوقع بينهم العداوة والبغضاء حتى يقتل بعضهم بعضا بأحواله الفاسدة الشيطانية ، كما يقتل العائن[١٣٣] من أصابه بعينه .

ولهذا قال من قال من العلماء : إن هؤلاء يجب عليهم القَوَد والدية والقصاص ، إذا عرف أنهم قتلوا بالأحوال الشيطانية الفاسدة ، لأنهم ظالمون ، وهم يغتبطون بما ينفذونه من مراداتهم المحرمة ، كما يغتبط الظلمة المسلطون . أ . هـ .

* * *

الهوامش

(١) نسخة : المتقدمين ، بدل المتفرقين ، والمتأخرين ، بدل المتلعبين .

(٢) مريم : ٥٨ .

(٣) الأنفال : ٢ .

(٤) الاسراء : ١٠٧ ـ ١٠٩ .

(٥) المائدة : ٨٣ .

(٦) الأعراف : ٢٠٤ .

(٧) الزمر : ١٧ ـ ١٨ .

(٨) المؤمنون : ٦٨ .

(٩) محمد : ٢٤ .

(١٠) ص : ٢٩ .

(١١) لقمان : ٧ .

(١٢) فصلت : ٢٦ .

(١٣) الفرقان : ٣٠ ـ ٣١ .

(١٤) المدثر : ٤٩ ـ ٥١ .

(١٥) فصلت : ٥ .

(١٦) الاسراء : ٤٥ ـ ٤٦ .

(١٧) النساء : ٤١ .

(١٨) آل عمران : ١٦٤ .

(١٩) النمل : ٩١ ـ ٩٢ .

(٢٠) الأعراف : ٣٥ .

(٢١) الأنعام : ١٣٠ .

(٢٢) الزمر : ٧١ .

(٢٣) طه : ١٢٣ ـ ١٢٦ .

(٢٤) الزخرف : ٣٦ .

(٢٥) الأنبياء : ٥٠ .

(٢٦) الأعراف : ٦٩ .

(٢٧) الحجر : ٦ .

(٢٨) الأنبياء : ٢ .

(٢٩) الزخرف : ٤٤ .

(٣٠) ص : ٨٧ .

(٣١) يس : ٦٩ .

(٣٢) الأنفال : ٣٥ .

(٣٣) محمد بن طاهر بن على أحمد المقدسي الشيباني (٤٤٨ ـ ٥٠٧ هـ ـ ١٠٥٦ـ ١١١٣م) من حفاظ الحديث ، والرحالة المؤرخين . كان ظاهري المذهب في الفقه ، وله آثار عديدة في الحديث وعلومه .

(٣٤) عمر بن محمد بن عبد الله بن عموية ، أبو حفص شهاب الدين (٥٣٩ ـ ٦٣٢ هـ ١١٤٥ ـ ١٢٣٤ م) ، فقيه شافعي ، ومفسر ، وواعظ ، ومن كبار الصوفية ، ترك آثارًا في التفسير والتصوف .

(٣٥) المقابلة ، في هذا الحديث ، بين التصفيق وبين التسبيح تقطع بأن المقام هو مقام الصلاة ، فالنساء ينبهن الإمام على خطأ القراءة في الصلاة بالتصفيق ، والرجال ينبهونه بالتسبيح ، فالاستشهاد به هنا ، خارج عن إطار الورود والمراد !.

(٣٦) يزيد بن هارون بن زادان بن ثابت ، أبو خالد (١١٨ ـ ٢٠٦ هـ ـ ٧٣٦ ـ ٨٢١ م) من ثقات حفاظ الحديث .

(٣٧) أحمد بن محمد بن حنبل ، أبو عبد الله (١٦٤ ـ ٢٤١ هـ ـ ٧٨٠ ـ ٨٥٥ م) أحد الأئمة الأربعة ، وإمام أهل الحديث .

(٣٨) إبراهيم بن أدهم بن منصور ، أبو إسحاق (١٦١ هـ ـ ٧٧٨ م) من مشاهير الزهاد ، والفقهاء .

(٣٩) الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي ، أبو علي (١٠٥ ـ ١٨٧ هـ ـ ٧٢٣ ـ ٨٠٣م) من كبار العباد الصلحاء ، ثقة في الحديث ، كان شيخًا للحرم المكي ، وهو من أساتذة الإمام الشافعي .

(٤٠) معروف بن فيروز الكرخي ، أبو محفوظ (٢٠٠ هـ ـ ٨١٥ م) أحد كبار الزهاد والمتصوفة .

(٤١) عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي المذحجي ، أبو سليمان (٢١٥ هـ ـ

٨٣٠م) من كبار المتصوفة والزهاد .

(٤٢) أبو الحسين أحمد بن أبى الحوارى (٢٣٠ هـ ـ ٨٤٥ م) من كبار المتصوفة والزهاد.

(٤٣) عبد القادر بن موسى بن عبد الله بن جنكي دوست الحسني ، أبو محمد ، محى الدين الجيلاني ، أو الكيلاني (٤٧١ ـ ٥٦١ هـ ـ ١٠٧٨ ـ ١١٦٦ م) من كبار الزهاد والمتصوفة ، ومؤسس الطريقة القادرية .

(٤٤) أبو البيان نباين محمد بن محفوظ القرشي ـ ويعرف أيضًا بابن الحوراني (٥٥١ هـ ـ ١١٥٦ م) متصوف وزاهد ، وفقيه شافعي ، وهو شيخ الطريقة البيانية الصوفية .

(٤٥) أحمد بن يحى بن إسحاق ، أبو الحسين الراوندي (٢٩٨ هـ ـ ٩١٠ م) أحد الفلاسفة المجاهرين بالالحاد ، من كتبه (فضيحة المعتزلة) الذى رد عليه الجاحظ بكتابه (فضيلة المعتزلة) .

(٤٦) محمد بن محمد بن طرخان ، أبو نصر (٢٦٠ ـ ٣٣٩ هـ ـ ٨٧٤ ـ ٩٥٠ م) من أكبر فلاسفة المسلمين .. والمعروف بالمعلم الثاني .

(٤٧) الحسين بن عبد الله بن سينا ، أبو على (٣٧٠ ـ ٤٢٨ هـ ـ ٩٨٠ ـ ١٠٣٧م) من اشهر فلاسفة المسلمين . والملقب بالشيخ الرئيس .

(٤٨) محمد بن الحسين بن محمد بن موسى الأزدى السلمى النيسابورى ، أبو عبد الرحمن (٣٢٥ ـ ٤١٢ هـ ـ ٩٣٥٦ ـ ١٠٢١ م) من كبار المتصوفة . وله فى التصوف آثار كثيرة

(٤٩) هو سيف الدولة الحمدانى ، على بن عبد الله بن حمدان ، أبو الحسن (٣٠٣ ـ ٣٥٦ هـ ـ ٩١٥ ـ ٩٦٧ م) من أشهر امراء الدولة الحمدانية .

(٥٠) (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) فيلسوف اليونان الأشهر ، والمعروف بالمعلم الأول .

(٥١) (٤١٢ ـ ٤٨٥ م) فيلسوف أفلاطوني محدث ، درس في الاسكندرية ، وصار رئيساً للأكاديمية الأفلاطونية بأثينا .

(٥٢) من فلاسفة اليونان في القرن الثاني ، وهو من أهم شراح أرسطو .

(٥٣) هو الاسكندر الأكبر (٣٥٦ ـ ٣٢٤ ق.م) صاحب الفتوحات الشهيرة في الشرق .

(٥٤) فرقة مرجئة ، وجبرية ، تنسب إلى زعيمها الجهم بن صفوان السمرقندي ، أبو محرز (١٢٨ هـ ـ ٧٤٥ م) .

(٥٥) من الشيعة الإمامية ، افترقوا عن الإثني عشرية بقولهم إن الإمام بعد جعفر الصادق هو ابنه إسماعيل ، وليس موسى الكاظم . وهم يتميزون بالإغراق في الباطنية والتأثيرات اليونانية .

(٥٦) فرع من الشيعة الإسماعيلية ، يقولون : إن الإمام بعد جعفر بن محمد هو محمد ابن إسماعيل .

(٥٧)هم من الشيعة الإسماعيلية ـ كونوا جماعة سرية ـ باطنية ـ بالبصرة في القرن الرابع الهجري . وفكرهم خليط من الباطنية الغنوصية والفلسفة اليونانية والإسلام . وواضح ، هنا ، تركيز ابن تيمية الهجوم على الباطنية بفصائلها المختلفة .

(٥٨) المائدة : ١٤ .　　(٥٩) الأنعام : ١٥٣ .　　(٦٠) التوبة : ١٠٠ .

(٦١) قد سبق في نصوص هذا « الملحق » ـ نقد ابن حزم لسند هذا الحديث .

(٦٢) طاهر بن عبد الله بن طاهر الطبري ، أبو الطيب (٣٤٨ ـ ٤٥٠ هـ ـ ٩٦٠ ـ ١٠٥٨م) قاض ، وفقيه شافعي .

(٦٣) إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي ، أبو إسحاق (٣٩٣ ـ ٤٧٦ هـ ـ ١٠٠٣ ـ ١٠٨٣ م) من نوابغ علماء الشريعة والإفتاء والمناظرة في عصره .

(٦٤) زكريا بن يحيى بن عبد الرحمن بن محمد بن عدى الضبى البصرى الساجى ، أبو يحيى (٢٢٠ - ٣٠٧ هـ - ٨٣٥ - ٩٢٠ م) من المحدثين والحفاظ الثقات ومن آثاره (علل الحديث) و (اختلاف الفقهاء) .

(٦٥) فى الاصل . « الشقيرى - وهو خطأ - وأبو القاسم القشيرى هو عبد الكريم بن هوازن (٣٧٦ - ٤٦٥ هـ - ٩٨٦ - ١٠٧٢ م) عالم زاهد . له آثار فى التفسير والتصوف ، اشتهر منها (الرسالة القشيرية) » .

(٦٦) أى (الرسالة القشيرية) ..

(٦٧) الشورى : ٢١ .

(٦٨) الأعراف : ٢٨ - ٢٩ .

(٦٩) الأعراف : ٣٢ - ٣٣ .

(٧٠) مريم : ٥٨ .

(٧١) الاسراء : ١٠٧ - ١٠٩ .

(٧٢) المائدة : ٨٣ .

(٧٣) الانفال : ٢ - ٤ .

(٧٤) الأعراف : ٢٠٤ .

(٧٥) الأحقاف : ٢٩ .

(٧٦) الزمر : ٢٣ .

(٧٧) الزمر : ٢٨ .

(٧٨) فصلت : ٢٦ .

(٧٩) الفرقان : ٧٣ .

(٨٠) المدثر : ٤٩ .

(٨١) الكهف ٥٧٠ .

(٨٢) الأنفال : ٢٢ - ٢٣ .

(٨٣) لقمان : ٧ .

(٨٤) الاسراء : ٧٨ .

(٨٥) الانشقاق ٢٠ .

(٨٦) البقرة : ٧٤ .

(٨٧) الحديد : ١٦ .

(٨٨) يقف ابن تيمية هنا بالحكم عند « الكراهة » ، لا « التحريم » ، والعلة عنده أنه محدث ، لكن ، ما البأس فى الحديث ، إذا لم يكن الإحداث فى «العبادات الدينية» فى رأينا أنه لا بأس ، حتى بمنطق ابن تيمية ، الذى سبق وتحدث عنه .

(٨٩) قياس ابن تيمية هذا - لما فى السماع من منفعة وضرر ، على الخمر والميسر ، وفيهما

منافع وإثم ـ هذا القياس فيه نظر .. فالخمر والميسر حرام وإثم ، فيهما منافع . أما السماع فهو مباح ، قد يعرض له ما يجعله مكروهًا أو حرامًا .. فالأصل فيه الحل والإباحة ، بينما الأصل فى الخمر والميسر الحرمة ، لأنهما من الفواحش وكبائر الآثام !..

(٩٠) واضح أن هذا هو السماع « العبادة ـ البدعة » . وليس اللهو الذى رخص فيه رفعًا للحرج عن الناس .

(٩١) المائدة . ٣ .

(٩٢) سهل بن عبد الله بن يونس التسترى ، أبو محمد (٢٠٠ ـ ٢٨٣ هـ ـ ٨١٥ ـ ٨٩٦م) أحد أئمة الصوفية وعلمائهم . له آثار فى التصوف والتفسير .

(٩٣) هذا إذا كا ن الأمر شرعًا ودينًا ، أى لابد له من شاهد فى الكتاب أو السنة ، أما ما ليس شرعًا ودينًا فيكفى فيه أن يكون على أصل الإباحة .

(٩٤) الأنفال : ٣٥ . (٩٥) لقمان : ١٩ . (٩٦) الفرقان : ٦٣ .

(٩٧) ليس هناك من يقول إن الرقص مأمور به شرعًا ، من الله ورسوله .. ثم إن الاستشهاد بالآية التى تأمر بالسكينة والوقار فى المشى ، هو استشهاد فى غير موضعه ، فالرقص شيء ، والحديث عن المشى شيء آخرَ .. ثم ، هل الحديث فى الرقص هو حديث عن « عبادة » ، حتى يقال : « إنها الركوع والسجود » ؟!.

(٩٨) هود : ٧ . (٩٩) الحديد : ٣٧ .

(١٠٠) أى انحطت وزالت عنه خطاياه ، كما يزول ويتساقط الورق عن الشجر .

(١٠١) التوبة : ٣٤ . (١٠٢) الأحزاب ٦٦ ـ ٦٨ .

(١٠٣) بياض بالأصل ، بعد كلمات : فاسدة و « أحسن من » و « المناهج » .

(١٠٤) مفردها : شبابة ـ بفتح الشين والباء المشددة ـ نوع من المزمار .

(١٠٥) معروف بن فيروز الكرخي ، أبو محفوظ (٢٠٠ هـ ـ ٨١٥ م) أحد أعلام الصوفية وزهادهم .

(١٠٦) هو عدي بن مسافر بن إسماعيل الهكاري ، شرف الدين ، أبو الفضائل (٤٦٧ ـ ٥٥٧هـ ـ ١٠٧٤ ـ ١١٦٢ م) من شيوخ المتصوفة ونساكهم ، وإليه تنسب الطائفة العدوية .

(١٠٧) أبو مدين التلمساني ، شعيب بن الحسن الأندلسي (٥٩٤ هـ ـ ١١٩٨ م) من مشاهير الصوفية بالمغرب .

(١٠٨) القصص : ٢٩ .

(١٠٩) الإشارة إلى كتاب فصوص الحكم ، لشيخ الصوفية الأكبر محي الدين بن عربي (٥٦٠ ـ ٦٣٨ هـ ـ ١١٦٥ ـ ١٢٤٠ م) .

(١١٠) هو حجة الإسلام أبو حامد الغزالي .

(١١١) الإشارة إلى كتاب (خلع النعلين في الوصول إلى حضرة الجمعين) لأبي القاسم أحمد ابن قسي الأندلسي (٥٤٥ هـ ـ ١١٥٠ م) .

(١١٢) المائدة . ٣ .

(١١٣) النساء : ٦٩ .

(١١٤) الجن : ٢٣ .

(١١٥) النساء : ٥٩ .

(١١٦) يوسف : ١٠٨ .

(١١٧) الأعراف : الشورى : ٥٢ ، ٥٣ .

(١١٨) الأعراف . ١٥٦ ، ١٥٧ .

(١١٩) أبو القاسم البغوي ، عبد الله بن محمد بن عبد العزيز ، بن المرزبان (٢١٣ ـ ٣١٧هـ ـ ٨٢٧٨ ـ ٩٢٩ م) من العلماء الحفاظ ، له آثار في التفسير والحديث .

(١٢٠) أبو عبد الله المصري ، محمد بن عبد الله بن عبد الرحيم الزهري (٢٤٩ هـ ـ ٨٦٣م) من حفاظ الحديث . ومن آثاره في علومه (كتاب الضعفاء) .

(١٢١) البقرة : ٢١٦ .

(١٢٢) البقرة : ٢١٩ .

(١٢٣) التوبة : ٣٤ .

(١٢٤) مريم : ٥٨ .

(١٢٥) المائدة : ٨٢ .

(١٢٦) الإسراء : ١٠٧ ـ ١٠٩ .

(١٢٧) الأنفال . ٣ ـ ٤ .
(١٢٨) الزمر : ٢٣ .
(١٢٩) البقرة : ١٨٩ .
(١٣٠) في الأصل : « المحبوب بالمحب » .
(١٣١) الإسراء : ٦٤ .
(١٣٢) يقول ابن حزم في نقد رواية هذا الحديث ـ في (المحلى) ـ هو « حديث لا ندري له طريقا ، إنما ذكروه هكذا مطلقا .. » انظر عبارته في مكانها من ملحق هذا الكتاب .
(١٣٣) العائن : هو الحاسد بالعين .

* * *

المصــــادر

● القرآن الكريم .

● كتب السنة النبوية .

١ ـ (صحيح البخارى) طبعة دار الشعب ـ القاهرة .

٢ ـ (صحيح مسلم) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٥ م .

٣ ـ (سنن الترمذى) طبعة القاهرة سنة١٩٣٧ م .

٤ ـ (سنن النسائى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

٥ ـ (سنن أبى داود) طبعة القاهرة سنة ١٩٥٢ م .

٦ ـ (سنن ابن ماجة) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٢ م .

٧ ـ (سنن الدرامى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

٨ ـ (مسند الإمام أحمد) طبعة القاهرة سنة ١٣١٣ هـ .

٩ ـ (الموطأ) ـ للإمام مالك ـ طبعة دار الشعب . القاهرة .

● معاجم القرآن والسنة:

١ ـ (المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم) وضع : محمد فؤاد عبد الباقى. طبعة دار الشعب . القاهرة .

٢ ـ (معجم ألفاظ القرآن الكريم) وضع : مجمع اللغة العربية ـ مصر ـ طبعة القاهرة سنة ١٩٧٠ .

٣ ـ (المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوى الشريف) وضع : وينسنك (أ.ى) وآخرين . طبعة ليدن سنة ١٩٣٦ ـ ١٩٦٩ م .

٤ ـ (مفتاح كنوز السنة) وضع : وينسنك (أ . ى) ترجمة : محمد فؤاد عبد الباقي . طبعة لاهور سنة ١٣٩١ هـ ـ ١٩٧١ م .

● **الكتب الأخرى:**

ابن تيمية : (مجموعة فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية) طبعة المملكة العربية السعودية ـ على نفقة الملك خالد بن عبد العزيز .

(مجموعة الرسائل الكبرى) ـ طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ .

(منهاج السنة النبوية) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٢ م .

ابن حجر المكي الهيثمي : (كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع) ـ طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م .

ابن حزم الأندلسي : (رسائل ابن حزم) . تحقيق : د . إحسان عباس . طبعة بيروت سنة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨٠ م .

(المحلى) طبعة القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ .

ابن سعد : (الطبقات الكبرى) طبعة دار التحرير ـ القاهرة .

ابن القيسراني : (كتاب السماع) تحقيق : أبو الوفا المراغي . طبعة القاهرة سنة ١٣٩٠ هـ ـ ١٩٧٠ م .

ابن الكلبي : (كتاب الأصنام) طبعة القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر .

ابن منظور : (لسان العرب) طبعة دار المعارف ـ القاهرة .

أحمد محمد منصور ـ وآخرين : (دليل المطبوعات المصرية ـ ١٩٤٠ ـ

١٩٥٦ م) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٥ .
ثروت عكاشة (دكتور) : (التصوير الإسلامى) طبعة بيروت سنة ١٩٧٧م .
(معراج نامة) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٧ م .
الجرجانى - الشريف : (التعريفات) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨ .
روزنتال (م) - وآخرين : (الموسوعة الفلسفية) ترجمة سمير كرم . طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .
الزركلى - خير الدين : (الأعلام) طبعة بيروت سنة ١٩٦٩ م .
سركيس - يوسف إليان : (معجم المطبوعات العربية والمعربة) طبعة القاهرة سنة ١٣٤٦ هـ ١٩٢٨ م .
الشاطبى - أبو إسحاق إبراهيم بن موسى : (الاعتصام) تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا . طبعة القاهرة سنة ١٤٠٠ هـ .
الشعرانى : (الطبقات الكبرى) طبعة صبيح . القاهرة - بدون تاريخ .
الشوكانى - محمد بن على - (نيل الأوطار) طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ .
الطهطاوى - رفاعة رافع - : (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .
عايدة نصير : (الكتب العربية التى نشرت فى مصر - ١٩٢٦ - ١٩٤٠) طبعة القاهرة سنة ١٩٨٠ م .
عبد الرحمن بدوى (دكتور) : (موسوعة الفلسفة) طبعة بيروت سنة ١٩٨٤ م .
عبد الغنى النابلسى (الشيخ) : (إيضاح الدلالات فى سماع الآلات)

تحقيق أحمد راتبه حموش . طبعة دمشق سنة ١٤٠١ هـ ـ ١٩٨١م.
علي مبارك (باشا) : (الخطط التوفيقية) طبعة بولاق سنة ١٣٠٦ هـ
(الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د . محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٨٠م.
عمر رضا كحالة : (معجم المؤلفين) طبعة دمشق سنة ١٣٧٦ هـ ١٩٥٧م.
(معجم مصنفي الكتب العربية) طبعة بيروت سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م .
الغزالي ـ أبو حامد : (إحياء علوم الدين) طبعة دار الشعب ـ القاهرة .:
(المقصد الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦١ م .
فؤاد أفرام البستاني ـ وآخرين : (دائرة المعارف) طبعة بيروت سنة ١٩٥٦ م .
الفيروزآبادي : (القاموس المحيط) طبعة بيروت سنة ١٤٠٦ هـ ١٩٨٦ م.
القرافي ـ أحمد بن إدريس : (الأحكام في التمييز ما بين الفتاوى والأحكام وتصرفات القاضي والإمام) تحقيق الشيخ عبد الفتاح أبو غدة . طبعة حلب سنة ١٩٦٧ م .
(شرح المحصول) طبعة القاهرة سنة ١٣٠٧ هـ .
القرطبي : (الجامع لأحكام القرآن) طبعة دار الكتب المصرية .
مجمع اللغة العربية ـ القاهرة : (المعجم الفلسفي) طبعة القاهرة سنة ١٣٩٩ هـ ١٩٧٩ م .
(**المعجم الوسيط**) طبعة القاهرة سنة ١٣٩٢ هـ ١٩٧٢ م .
محمد عبده (الأستاذ الإمام) : (الأعمال الكاملة) دراسة وتحقيق د.

محمد عمارة ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ .

محمد عمارة (دكتور) : (الإسلام وقضايا العصر) طبعة بيروت سنة ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٤ م .

(معارك العرب ضد الغزاة) طبعة دمشق سنة ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

(الغزو الفكرى ، وهم أم حقيقة) طبعة دار الشروق - القاهرة سنة ١٩٨٩م.

محمد غازى عرابى : (النصوص فى مصطلحات الصوفية) طبعة دمشق سنة ١٩٨٥ م .

المقريزى : (كتاب النقود القديمة الإسلامية) تحقيق : الأب أنستاس مارى الكرملى - ضمن كتاب (النقود العربية وعلم النميات) طبعة القاهرة - سنة ١٩٣٩ م .

هنرى كربان : (السهروردى المقتول ، مؤسس المذهب الإشراقى) ترجمة : د . عبد الرحمن بدوى ، ضمن كتاب (شخصيات قلقة فى الإسلام) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٤ م .

يوسف كرم - وآخرين - : (المعجم الفلسفى) طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م.

* * *

الفهـــرس

رقم الإيداع : ٢٢٠٠ / ٩١

الترقيم الدولي : ٩٧٧-٠٩-٠٠٣٨-٩

مطابع الشروق

القاهرة : ١٦ شارع جواد حسني - هاتف : ٣٩٣٤٥٧٨ - ٣٩٣٤٨١٤

بيروت : ص ب : ٨١٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٧٦٥ - ٨١٧٢١٣

الإسلام والتنمية المحلية